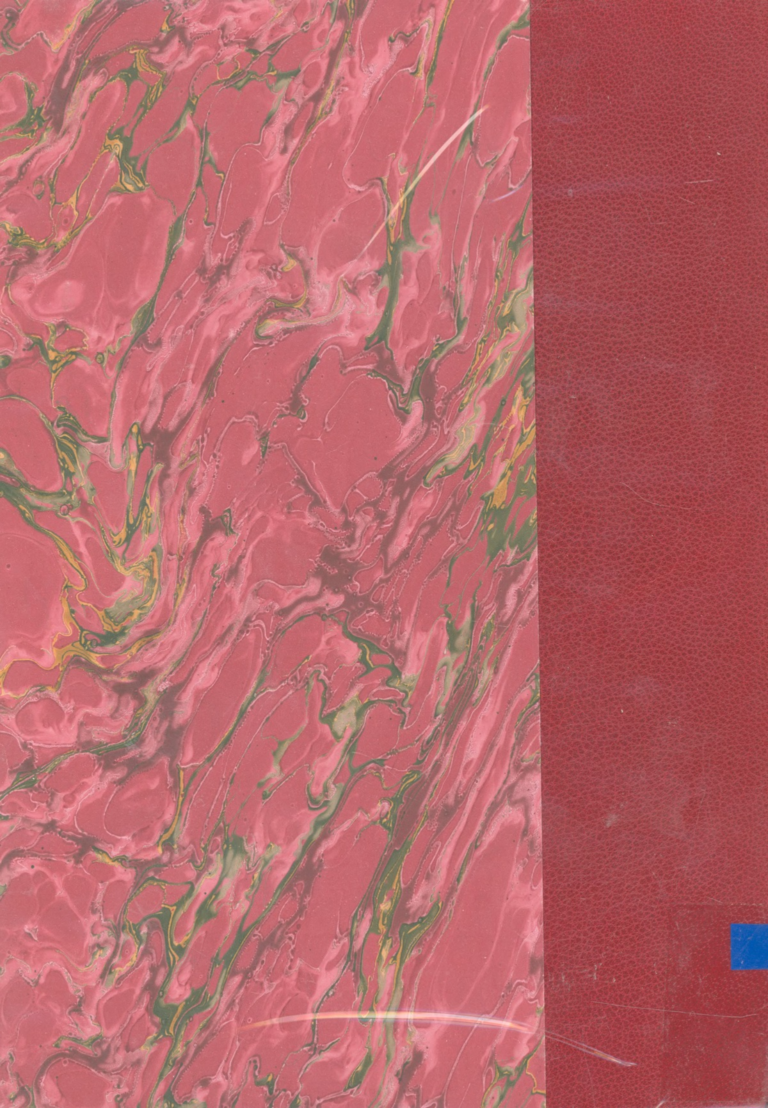
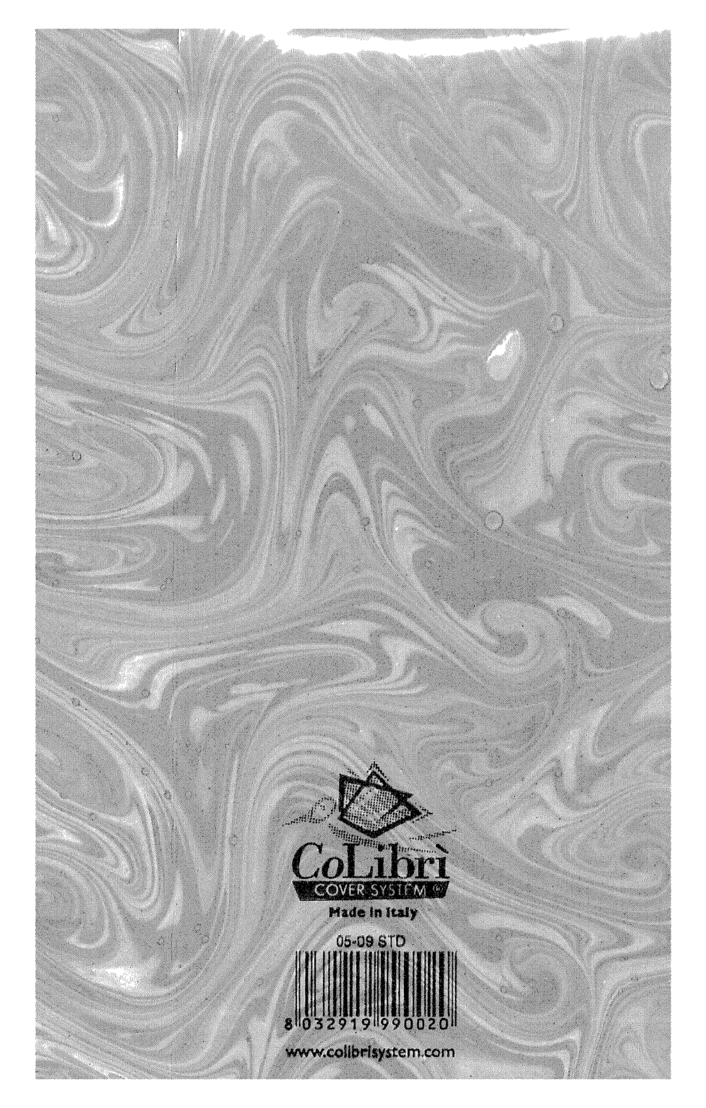
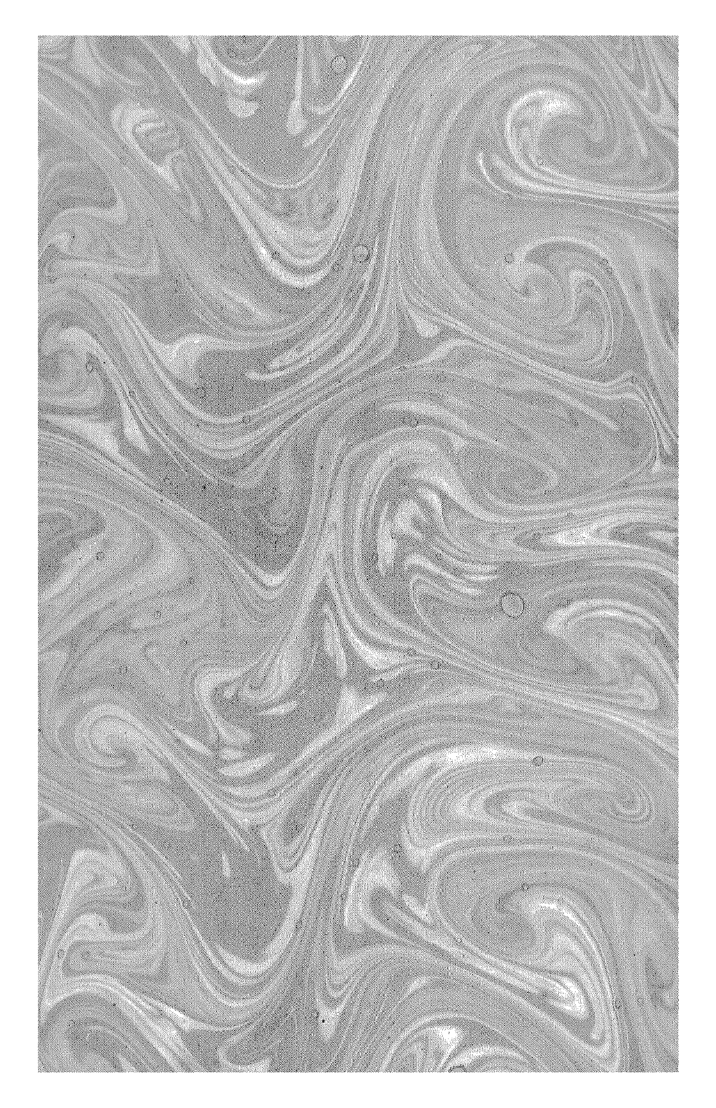



CoLibrì
COVER SYSTEM
Made in Italy
05-09 STD
8 032919 990020
www.colibrisystem.com



بطرس البستاني

الشعراء الفرسان

دار المكشوف ، بيروت

الشعراء الفرسان

للمؤلف

ادباء العرب
١ — في الجاهلية وصدر الاسلام
٢ — في الاعصر العباسية
٣ — في الاندلس وعصر الانبعاث

معارك العرب

●

في الاعداد

اساطير العرب

اناكريون وابو نؤاس

بطرس البستاني

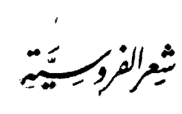
الشعراء الفرسان

منشورات دار المكشوف

طبع من هذا الكتاب الف وخمسمائة نسخة على ورق جيد .
وست وعشرون نسخة على ورق فاخر خاصة بالمؤلف .

الطبعة الاولى ، ١٩٤٤

جميع الحقوق محفوظة


شعر الفروسية

للشعر الجاهلي ، في مختلف اغراضه وابوابه ، بله باب الفخر والحماسة ، نفحات من البطولة والكبر تفرده عن سائر الشعر العربي في سائر عصوره . حتى ان ابا تمام الطائي عندما عني بجمع اشعار المتقدمين ، اطلق على مختاراته اسم « ديوان الحماسة » مع انها تشتمل على فنون من غير هذا الباب . وكذلك نسيبه البحتري حذا حذوه فاعطانا « حماسة » ثانية تضم في طياتها اغراضاً شتى من كلام العرب . فكأن الشاعرين العباسيين نظرا الى الشعر القديم ، وقد ارادا الاختيار منه ، فألفيا الفروسية تتلظى في جميع اقسامه حتى لا يستثنى منها الغزل والشكوى والحِكَم . فلم يجدا لمجموعتيهما اسماً افضل من الحماسة ، تعبر بمعناها ليس عن الباب المستقل بها فحسب ، بل عما عداه من الابواب والاغراض التي تنبعث من اجزائها نفثات الشعراء الفرسان . ولو شئنا ان نسقط من الشعر الجاهلي ما فيه من روح الفخر والحماسة لما خلص الينا منه سوى شبح ضئيل لا يصور الا نزراً يسيراً من حياة العرب قبل الاسلام .

وليس هذا بعجيب ، فان الحياة الجاهلية كانت تفرض على ابنائها ادب الفروسية ، وتقديس البطولة ، لما هم عليه من التنافس القبلي ومن التعرض المستمر لان يكونوا غزاة او مغزوين ، مترحلين في طلب الماء والكلأ ، متصعلكين مشردين في البراري المخيفة المقفرة . فجاء شعرهم حافلاً بذكر

حروبهم وامجادهم ، ووصف ما يلاقون من الاهوال والمصاعب في قطع المفاوز وطلب المعاش ، وحماية الاهل والمال . يستوي في ذلك الغني والفقير ، السيد والصعلوك ، كلهم معتدّ بنفسه ، عزيز الجانب ، متكبر فخور . فالبدوي من غريزته أناني فردي شديد التعلق بذاته ، شديد الشعور بشخصيته . وكان أن وُجد في صحراء لا يصلح معظمها للعمران وبناء الحضارات ، فاقتصر في مجتمعه على قبيلته الصغيرة بدلا من ان يؤلف أمة . واقتصر في وطنه على خيام ينصبها بجانب الماء والعشب ، فاذا جف مرعاه اقتلعها وترحل ينتجع بقعة مريعة غيرها . وهو في خلال اقامته وترحاله يغزو القبائل الآمنة ، ويقطع السبل ويسلب ، او يغزى في عقر داره ، وتقطع عليه السبل ويؤخذ ما عنده . فكان الفقر وقلة خير الارض سبباً لعداء مستطيل بين القبائل ، ولغارات متبادلة ليس لها انقطاع . فنتجت عن ذلك منافسات قبلية فتحت للشعر ابواب التفاخر بالانتصارات ، والتهاجي بالانكسارات ، وندب الابطال المجندلين . وجعلت البدوي يجد في سلوكه الفيافي الشاسعة ، وانقضاضه على القوافل والمراعي ، مصادر للتمدح بشجاعته واقدامه . فصار لا يأتي غرضاً من اغراض الشعر الا استبان له فيه مادة للفخر ترضى عنها انانيته ، او يرضي بها عصبيته القبلية . فاذا نسب بحبيبته ، لا يرى شيئاً يغريها به افضل من غزواته ومعاركه ، فيعرضها امامها مباهياً بفروسيته ، فيمتزج الغزل بالحماسة ، وتصطبغ عرائس الوحي بغبار المعامع ودماء الفرسان . وتدور الحِكَم العامة على لسانه فيخرجها كما تشاء عقلية عصره ، عليها طابع القوة والعنف ، سواء بحث في الحياة والموت ، او في الاخلاق وسياسة الناس . واذا اصابه مكروه ، شكا وتظلم ، ولكن دون ان يذل او يضعف ، وانما يتلقى المصاب بعود صليب ، وقلب جريء ، فينافس ويفاخر ويتبجح وهو في اشد الضيق والفاقة والمكروه .

فلا غرو ان يحتل باب الفخر والحماسة صدر المكان عند الرواة المتقدمين ، بل لا غرو ان يعتمد عليه خصوصاً في دراسة الادب القديم والعقلية الجاهلية ، فان فيه اوضح صورة واعمها خطوطاً والواناً للبيئة البدوية في عصر البطولة . وفيه اظهر خصائص الشعر الجاهلي واصفاه جوهراً وطبعاً .

واتفق مؤرخو الادب ان يجعلوا الفخر والحماسة باباً واحداً لما بينهما من الاتصال الوثيق ، لان الحماسة ليست شيئاً سوى فخر الفارس ببطولته وذكر مواقعه ، ووصف فرسه وسلاحه . وباب الفخر في الجاهلية ، وان اتسع الى موضوعات غير الفروسية : كالنسب والسيادة والكرم والاخلاق والاهل والاولاد والفصاحة ، الا انه لا يخلو اصلاً من المباهاة بالشجاعة والاقدام . ومن العبث ان نبحث عن فخر شاعر بنفسه ، او مدح شاعر لغيره ، او رثاء شاعر لميت دون ان يكون للشجاعة القسط الراجح بحيث لا يمكن ان نفصل الفخر عن الحماسة لانهما وجدا توأمين متلازمين ، فلا فخر بدون حماسة ، وكذلك الحماسة هي الفخر بذاته . ويحسن بالفروسية ان يرافقها شرف المحتد ، ومكارم الاخلاق ، حتى ان المضعوفين في نسبهم يدافعون عنه انبل دفاع ، كما دافع عنترة عن نسبه لامه . ولا يرضى احد الصعاليك كالشنفرى والسليك ان يغمز في حميد صفاته . والفخر يظل ناقصاً ، مهما يكن عليه الجاهلي من الشرف والفضائل ، ان لم تتمه صفة الشجاعة والفروسية . فحاتم الطائي الذي عرف بالشرف والجود وطيب الخلال لا يقنع بجميع هذه الصفات ما لم يضف اليها صفة البطولة التي يخصها بجانب كبير من اشعاره . والممدوح لا يرتاح الى اقوال مادحه ان لم يعطه حقه من الفروسية كمدح زهير لهرم بن سنان ، والنابغة لبني غسان . وهكذا الرثاء لا يكون وقعه اليماً في النفوس اذا سكت عن ندب الميت بذكر مشاهده في الحروب ، وذوده عن النساء

والاموال . وفي رثاء المهلهل لاخيه كليب ، والخنساء لاخيها صخر ، خير مثال لبكاء الشاعر الجاهلي على الميت . وهذا طبيعي في ارض كان اهلها لا يزالون في طور البداوة والهمجية ، منصرفين الى الكفاح من اجل الحياة لفقرهم وقحط صحرائهم . فكل واحد منهم مضطر الى الاعتماد على قوته ليدافع عن نفسه ، ويضمن رزقه ، ويرد غائلة عدوه ، وينازع الحيوانات الضارية التي تهاجمه في نزوله وسفره . وكل واحد منهم يعلم ان الحق لا يحصل عليه صاحبه الا بشدة بأسه ، فليس في مجتمعهم القبلي نظم وقوانين تكفل حقوق الافراد والجماعات الا ما جرى عليه العرف من احترام القوة الشخصية والتسليم لها أعلى حق كانت ام على باطل . وقد وُجدوا في اوطان مفتوحة الابواب لكل عدو مغير ، لا تملك من الحصون والاسوار غير خيام مضروبة ، فاصبح من المحتم على البدوي ان يظل متأهباً للحرب في لقاء او بيات لان الغزو عندهم لا غنى عنه فهو من قوام حياتهم . ولهذا جعل ابن خلدون الشجاعة عنصراً ضرورياً في ابناء البادية لتعرضهم الدائم للغارة والدفاع . فلا عجب أن نراهم يقدسون الفروسية ، ويعتبرونها صفة لازمة لشرف السيادة . فربما تساهل العربي في بعض الفضائل التي يريد ان يكون السيد متحلياً بها كالغنى والكرم والحلم ولكنه يأبى التساهل في فضيلة الفروسية . فقد ذكر الرواة ان العرب سودوا الفقير والبخيل والظالم والغلام . غير انهم لم يذكروا ان جباناً ساد يوماً بني قومه . فعامر بن الطفيل كان بخيلاً قليل العطاء ، وكان ظالماً جافي الطبع متكبراً ، ومع ذلك ارتضت بنو عامر بسيادته لشجاعته واقدامه . ولما علمت انه استأسر لزيد الخيل دون قتال ، فجز هذا ناصيته وأطلق سراحه ، انبته وانكرت سيادته ، ولم تعد الى الاعتراف بها الا مكرهة بعد لأي .

وكما وجهت القبيلة فارسها لمحاربة الاعداء والاثخان فيهم ، ولحماية الاهل

والمال ، فكذلك وجهت شاعرها للاشادة بايامها ومفاخرها ، ولهجاء القبائل المعادية والرد على شعرائها ، فاستأثرت المهمة القبلية بالابواب الاربعة الرئيسة في الشعر الجاهلي وهي الفخر والحماسة ، والمدح ، والرثاء ، والهجاء . فارتفع مقام الشاعر ارتفاع مقام الفارس ، حتى اذا اجتمع الشعر والفروسية في شخص واحد فقد بلغ ارفع درجة تنظر اليها القبائل باعظام . واوقع الكلام عندهم ما جاء عن شاعر فارس تلاقى في نفسه على صفاء ، اله البيان ، واله الحسام .

وشعر الفرسان يشتمل على جميع الفضائل الجاهلية ، كما قدمنا ، واخصها فضيلة الفروسية حيث ينصرف الشاعر الى ذكر مواقعه مبالغاً في وصف البطل الذي يبارزه ويسطو عليه ، او وصف المعركة التي يخوض غمارها ، ويلقي بنفسه في مهالكها ، فترى النهار حالكاً كالليل لانعقاد الغبار ، والخيل عابسة الوجوه متضايقة من وقع الرماح ، والدماء تتدفق من الجراح تدفق الماء من افواه القرب ، والفوارس مكشرة الشفاه بادية النواجذ تتصادم وتتلاحم ، ويحرض بعضها بعضاً . ويخص الفارس جواده بالتصوير الدقيق فيخرجه شاكياً مزوراً مخضباً بالدم فعل عنترة وعامر بن الطفيل . ولا يخجل ان يخبرنا عن فراره وكيف نجا به فرسه من المأزق الخطر شأن عمرو بن معدي كرب . وربما وصف جواد عدوه اذا هرب عليه من وجهه فينعت الفرس ويعير الفارس كما فعل زيد الخيل . ولا يغفل عن ذكر سلاحه وسلاح الإعداء . فالرماح المشرعة للمصاولات على ظهور الخيل ، والسيوف المجردة للنزول والمجالدة والالتحام . وقلما وصف قوسه لان الرماة يأتون في الدرجة الثانية بعد اصحاب السيوف والرماح ، ولكنه قد يصف سهام الاعداء في تساقطها عليه وعلى جواده . ويذكر الى ذلك ادوات السلاح الدفاعي : الدروع والمغافر والمجنات . ويحدث عن القتلى والاسرى والغنائم والسبايا ، فلا يخلو حديثه من تكثر او غلو .

والتكثر والغلو من خصائص شعر الفروسية ، فان الموقعة الصغيرة تبدو ملحمة كبرى ، والعدد القليل يجر جيشاً عرمرماً ، ونفيراً من القتلى يعد بالمئات والالوف . على ان غلوهم لا يأتي مستقبحاً وهو وليد العاطفة المتحمسة تجعله قريباً الى النفس ، والفطرة الساذجة تمسحه بجمالها الجذاب . يخالف الحقيقة ويصدق في شعوره الفني . يجري مع الطبع في نشوة الخاطر المتدفق ، لا يهيئه العقل في يقظة الفكر المتكلف .

واحب صفات الشعر الفروسي ما امتزج فيه الفخر والحماسة بالالم والشكوى ، وصادم الحزن واليأس روح البطولة والاقدام . فان تضارب هذه العوامل المختلفة يخلق للشعر جواً رائعاً يؤثر في النفس ويستولي على الشواعر . فاجمل حماسيات عنترة ما ظهرت فيه آلامه وشكاياته لتعيير الناس له بسواده وضعة نسبه ، او لحرمانه عبلة التي يحبها ولا يستطيع الوصول اليها . وكذلك عبد يغوث الحارثي فان احسن شعر له ما قاله في بني تيم وهو اسير ، وقد هموا بالقضاء عليه ، فطلب اليهم ان يطلقوا عن لسانه ، وكانوا قد كمّوا فمه . فرفعوا الكمامة وتركوه ينوح على نفسه بقصيدة هي من خير الشعر الجاهلي بما فيها من فخر وبطولة وعزة نفس ، على الم وتظلم وحنين الى الحياة المرسلة الجناح .

وكثير شعر الشكوى عند الفرسان الذين خلعتهم قبائلهم لجرائمهم ومعراتهم فخرجوا مشردين عن الاحياء ، يتذمرون متألمين ، ولكن بفخر واباء ومباهاة . ولنا في معلقة طرفة او لامية الشنفرى مثال صالح لا يعدوه الجمال . والشعراء الصعاليك على الجملة يتميز شعرهم الحماسي بالشكوى والالم . فاما ان يتذمروا على قومهم لانهم خذلوهم وطردوهم ، واما ان يتظلموا لضيق العيش وقلة ذات اليد . فاذا شكوا اهلهم وفاقتهم وجوع العيال احاطوها باطار من الفخر بالقوة

والاقدام والسعي لطلب الرزق . وبالجود والائتلاف ومكارم الاخلاق . هذه الميزات هي التي ترفع شعر الفروسية على اختلاف احوال اصحابه ، وتجعلنا نحس فيه الم الاسد الجريح ، تضوّره نزوان ، وبكاؤه زئير .

والشعر الحماسي كسائر الشعر الجاهلي يعتمد في الاكثر على الوصف ، وفي الاقل على القصص . وهو في كلا الحالين يؤثر الايجاز على التطويل ، ويلمح الجزئيات دون الكليات ، ويتعلق بالمادة اكثر من الروح . فاذا وصف الجاهلي تناول الموصوفات جزءاً فجزءاً حتى يحيط بها او يحيط بالجانب البارز منها . ولكنه لا يربط هذه الاجزاء بعضها ببعض ، ولا ينظر اليها نظراً شاملاً ليرتقي منها الى الحالة الكلية الجامعة . فتبقى الاجزاء متفاصلة ، مستقلة بابياتها بحيث يسهل معها الحذف والتقديم والتأخير . ويكتفي بالتعبير الموجز عن خواطره فتأتي اوصافه لمحات خاطفة لا اشباع ولا تفصيل . فلو اراد ان يصف معركة اجتزأ ببضعة ابيات ترينا جواده وسيفه ورمحه وبطشه بالاعداء ومضات من البرق جميلة في سرعتها وتلويحاتها . غير اننا لا نخرج منها بفكرة عامة او صورة تامة عن الموقعة . فما ندري كيف جرت حركات المتحاربين ، وكيف انتظم الجيشان ، واين وقف الفرسان ، واين وقف الرجالة ، وكيف تم الهجوم والالتحام . ولا نسمع من الاصوات الا غماغم يختلط فيها وقع السلاح ، وصياح الفرسان ، وحمحمة الجياد ، ودقدقة الحوافر . ولا نرى من صفات السلاح الا سيفاً قاطعاً ورمحاً طويلاً ودرعاً سابغة . وقليلاً ما يسهب الشاعر ويدقق في اوصاف السلاح كما يسهب ويدقق في نعت جواده ونعت الفارس المقاتل . على ان صورة الفارس لا تظهر في الغالب جلية ، بل يتركها غامضة مغشاة . ويعطينا المعركة على الاجمال تهاويل مقطعة الخطوط والاوصال ، لا يتألف من اجزائها وحدة موضوعية متلاحمة .

والوصف عنده لا يتعدى الطبيعة ومرئياتها ، ولا يرتفع بها عن منزلتها الا نادراً . فجواد عنترة في شكواه وتألمه صورة تكاد تكون فريدة في روحانيتها ، وارتفاع الحيوان بهـا الى درجة الانسانية . وليس له يد طولى في استجلاء اسرار النفس ، وتفهم اهوائها وحركاتها . فجاءت نفسيات الفرسان كتصاويرهم الخارجية يتغشاها سحاب من الابهام . فبراعته في الوصف لا تتجاوز النقل عن الطبيعة في الجملة ، على شيء من الاحكام والتهذيب ، لان البدوي له عين متنبهة لالتقاط المرئيات ، ومخيلة مصورة تحسن تقليد الاشياء . وليس له الخيال المبدع الذي يختزن المحسوسات ويجمع بعضها الى بعض ثم يحللها ويركبها ليخترعها صوراً جديدة ، او يخلقها خلقاً مبتكراً . ومع ذلك فهو يجيد الوصف ويتقنه اكثر مما يجيد القصص . فان القصة في الشعر الجاهلي ضعيفة الفن لاقتصارهـا على الخبر البسيط والسرد السريع كما يفعل عنترة في تحدثه عن مبـارزاته ، وتأبط شراً في حكاياته عن الغيلان . ولا جرَم ان الايجـاز الذي درج عليه الجاهلي كان يحول بينه وبين الاسهاب في اخباره . وهـذا الايجاز يعود في معظمه على قصر النفَس وشحة منابع الخيال المبدع فـلم يتّفر له عمل الملاحم والقصص الطويلة . ذلك بان باديته القاحلة ، الفقيرة بمناظرهـا الطبيعية ، غير جديرة بتغذية الخيال واغنائه . وهي في اعتزالهـا وتمردها على الفاتحين لم تقبل لقاح الثقافة اليونانية ليرتقي ادبها ويخرج عن حدود وجدانيته الضيقة . مع انها مجاورة للولايات البزنطية ، ولا غنية لها عن التردد فيها ، والتعامل معها ، غير انها اكتفت بالعلاقات التجارية لاميتها وجهلها . فكان البدو يدخلون البلدان السورية يبيعون ويشترون ثم يعودون الى صحرائهم ، كما يدخل البـدوي اليوم دمشق ثم يخرج منها بإبله دون ان يفهم شيئاً عن حضارتها ، او يدرك ما فيهـا من العلوم والاداب والفنون . مع ان لغته لا تختلف عن لغتهـا كما كانت تختلف

من قبل ، ومن هنا نعلم معنى اعتزال البادية على مجاورتها للحضر واختلاطها بابنائه . فلبثت غارقة في ماديتها الكثيفة لا ترتفع الى ما بعد الطبيعة ولا تعقل جوهر النفس وقواها الباطنة ، ومبلغ علاقتها بالجسد ، ومصيرهـا بعد الموت ، وان لها عالماً غير هذا العالم المنظور .

ولم تكن عقائدهم الدينية ذات اثر فعال في تلطيف جسمانيتهم ، لان الدين كان ضعيفاً في قلوبهم ، يخلطون الشرك بالتوحيد ، ويذكرون الله مع الاوثان المتعددة . ومع كثرة اربابهم ما تأتّى لهم ان ينضدوا مراتبها ، ويرفعوا لهـا مجتمعاً علوياً تنتظم فيه شؤونها ، فتتبين علاقة بعضها ببعض ، ثم علائقهـا بالناس ، وما يبدو خلال ذلك من طباعها واخلاقها واهوائهـا . فبقيت آلهتهم فردية كبيئتهم الاجتماعية ، متمردة كصحرائهم ، بعيدة عنهم ، لا توحي اليهم ، ولا يستوحونها الا غراراً . ووافقتها اصنام عارية من الفن والجمـال لا تنزل الالهام على عبادها : إما انصاب حجارة مستطيلة او مربعة ، واما اوثان جافة ، او مشوهة الخلق والبنيان . وكان عددهـا الاكبر في مكة ، واقله في مواضع مختلفة ، بحيث لا تستطيع القبائل البدوية في مجموعهـا ان تشاهدها الا لماماً . فانما هي في ترحل مستمر لا تستقر في مكان لتشيد البيوت لالهتها ، وتقيم بها الشعائر الدينية ، فتتمكن العبادة في نفوسها . وربما كان الواحد منهم لا يرى الاصنام الا مرة في العمر اذا اتفق له ان يزور البيت الحرام ، او موضعاً آخر مخصصاً لبعض الارباب . ولا شك ان حياتهم المضطربة المتقطعة اثرت كثيراً في توجيه ادبهم فجاء نفَسهم قصيراً متقطعاً كاقامتهم ، وخيالهم قلقاً مضطرباً كترحلهم .

والبدوي في انانيته وامتلائه من شخصيته يؤثر الخير ابداً لنفسه ، ويجمع الفضائل في ذاته ، فان ابتعد في تفكيره الى ابناء عشيرته فلانه يجد في العصبية

القبلية خيراً ومنفعة ، حتى اذا امتنع هذا الخير ترك القبيلة وانكرها ، والتحق بغيرها لينتفع منها . فكان شعوره الفردي حائلاً بينه وبين الشعور القومي على حد ما نفهمه في معناه الوطني الشامل . فلم يستطع ان يبني مجتمعاً عربياً تشد اواصره امة واحدة ، ويضم هيكله وطن واحد . وانما اقتصر على قبيلته الصغيرة يتعصب لها ويدافع عنها ، ما دامت تتعصب له وتدافع عنه . فاذا نظم الشعر فلكي يعبر به عما يخالج نفسه من احواله الشخصية سواء تناولته خصوصاً او تناولت القبيلة عموماً . في حين ان شاعر الملاحم يلزمه التجرد من فرديته ليعتنق العقيدة القومية ، ويلزمه تناسي انانيته ليصبح اجتماعياً او انسانياً .

وقد علمنا ان الشاعر الجاهلي فارس شجاع يباشر الحرب بنفسه . فجدير به ، على ما فيه من قوة الشخصية ، ان يصرف عنايته الى التحدث عن غزواته ومشاهده . واذا عرض لايام قبيلته فلان امجادها تعود اليه . فجاء شعره في جملته غنائياً شخصياً وان شاعت فيه روح القبيلة . والشاعر الفارس الذي يتغنى ببطولته لا يرجى منه صنع ملحمة طويلة لانحصاره ضمن الحدود الوجدانية ، يردد ذكريات مآتيه في نفثات حماسية قصيرة ، تاركاً القصص الملحمي لشاعر يأتي بعده ويكون له من المواهب الطبيعية والتأهب الاجتماعي ما يخوله حق هذا العمل العبقري . فعنترة العبسي مثلاً لا ينتظر منه سوى الشعر الغنائي . ولكن ينتظر ان ينبغ شاعر عربي فيصنع ملحمة عن عنترة .

فمن اجتماع هذه العوامل بعضها الى بعض نعلم لماذا جاءنا الشعر الجاهلي غنائياً شخصياً ، غارقاً في المادة ، قصير القصص ، موجز الوصف ، متقطع الانفاس ، وتتضح لنا معالم الشعر الفروسي ، وحدوده التي انتهى اليها ، مع ما فيه من صفاء الجوهر ، وصدق الشعور ، وفطرية النفس في كبريائها والمها ، في حماستها ويأسها ، في اقتصادها وتكاثرها ، في خشونتها ولينها ، في جمالها الوحشي الغريب .

شكوى فارس اسير

ولو شئتُ نجّتني من الخيل نَهدةٌ [1] ترى خلفها الحُوَّ الجيادَ تواليا [2]

ولكنني أحمي ذمارَ ابيكُمُ وكان الرماحُ يختطفن المحاميا

أقول وقد شدّوا لساني بنِسعةٍ: أمعشر تَيْمٍ أطلقوا عن لسانيا

فان تقتلوني تقتلوا بيَ سيدًا وان تُطلقوني تحرُبوني بماليا

أحقًّا عبادَ الله أن لستُ سامعاً نشيدَ الرعاء المُعزبين المَتاليا [3]

وتضحك مني شيخة عبشمية [4] كأن لم ترَ قبلي إسيرًا يمانيا

وقد علمت عِرسي مُليكةُ أنني انا الليث مَعديًّا عليه وعاديا

وكنتُ اذا ما الخيل شمَّسها القنا لبيقاً بتصريف القناةِ بنانيا

وعاديةٍ سَومَ الجراد وزعتُها بكفي وقد أنحوا إليّ العواليا [5]

كأنيَ لم اركب جوادًا ولم أقُل لخيليَ كُرّي نفّسي عن رجاليا

ولم اسبأ الزقَّ الرويَّ ولم اقل لأيسارِ صدقٍ أعظموا ضوء ناريا

عبد يغوث الحارثي

١ النهدة : الفرس المرتفعة .

٢ الحو : السود . توالي : توابع .

٣ المعزبين : المبعدين . المتالي : النوق التي تتلوها اولادها .

٤ عبشمية : منسوبة الى عبد شمس .

٥ عادية : كتيبة صغيرة . سوم : كثيرة كالجراد الراعي . وزعتها : رددتها .

أيام العرب

كان للعرب في جاهليتهم حروب كثيرة ، او هي غزوات غير منظمة ، يجعلون من ايامها مادة لفخرهم وخزي اعدائهم . وكثيراً ما كانت تجري لاجل النهب والسلب ، او مزاحمة على الماء والكلاء . ومنها ما كان يحدث لاسباب تافهة تدعو اليها عنجهية البدوي كحرب البسوس التي حدثت من اجل ناقة ، وكان الدافع اليها الحفاظ على الجوار . وحرب داحس والغبراء التي افضى اليها التنافس في الرهان بين سيدي القبيلتين . وقلما وقعت حرب لدفع عدو غريب كحرب ذي قار بين الفرس وبني بكر ، وحروب اليمن والاحباش . وانما كانت حروبهم في جملتها داخلية قبلية ، وربما اشتركت فيها عدة قبائل متحالفة . واذا خرجوا بها من شبه جزيرتهم ، فالى تخوم الشام والعراق ليتقاتلوا في سبيل كسرى وقيصر .

على ان هذه الحروب والغزوات ، مع تعددها ، لم تفجع البدو بكثير من الضحايا لان معظمها قائم على النهب والفرار بالغنيمة حتى ان حرب البسوس التي تعاود القتال فيها بنو بكر وتغلب اربعين سنة لم يقتل فيها عدد يستحق الذكر . والظاهر ان البدوي كان يتحامى القتل جهده لان تقاليدهم تقضي باخذ الثأر او الديات الثقيلة وربما لا تغسل الديات الاحقاد لما في قبولها وترك الدم من غضاضة ، ثم لاعتقادهم انه اذا قتل الرجل ولم يدرك بثأره خرج من رأسه

طائر يشبه البوم يسمونه الهامة او الصدى فلا يزال يصيح : اسقوني ، اسقوني ، حتى يقتل القاتل او احد اقاربه . قال ذو الاصبع العدواني :

يا عمرو إلاّ تدع شتمي ومنقصتي أضربْكَ حتى تقولَ الهامة اسقوني

فشريعة الثأر ، كما يسميها الاب « لامنس » ، خففت من حوادث القتل ، اذ جعلت الدم يدعو الدم ، وفرضت على الموتور ان يحرّم على نفسه احب الاشياء اليه كالنساء والخمر والعسل والطيب لا تحل له او يأخذ بثأره . قال تأبط شراً :

حلّت ليَ الخمر وكانت حراما وبلأيٍ ، ما ألمّت ، تحلّ

ولم تكن جيوشهم منظمة بل اشتات يقودها سيد القبيلة ، ويقوم على رأس كل فصيلة قائد يقال له المَنْكِب ، يأمر على خمسة عرفاء ، والعريف يأمر على نفر من الرجال (اي ما دون العشرة) . ومن عادة القبيلة ان تشترك كلها في الحرب ، وربما جعلوا النساء والاولاد وراء ظهورهم ليصبروا في القتال لان البدوي لا يصبر في الحرب الا اذا خشي ان يستولي العدو على اهله او ماله ، واما اذا غزا فانما هو يطلب الغنيمة ، فان فاتته طلب الهرب . ولذلك كان الفرّ في حروبهم ملازماً للكرّ ، وقلما عرفوا قتال الزحف والثبات . ولا يستحي اشد فرسانهم بطشاً ان يحدثنا عن فراره . قال عمرو بن معدي كرب :

ولقد اجمعُ رجليّ بها * حذَرَ الموت واني لفَرورُ

وكان سلاحهم السيف والرمح والقوس والمجن . ويلبس فرسانهم الدروع من زرد او جلد ، والمغافر على رؤوسهم . وكانوا يرفعون الرايات وربما

* الضمير في بها عائد على فرسه .

اتخذوها من عمائم ساداتهم . ويتغنون بالشعر ويرتجزون ليبعثوا الحماسة في الصدور . فاذا تم لهم النصر عادوا بالاسلاب والسبايا فاقتسموها نصباً بينهم . ويعطى الرئيس ربع الغنيمة . واما الاسرى فمصيرهم الى القتل او يقدموا الفداء . وان اطلقوهم جزوا نواصيهم ، وحفظوها في كنائنهم لايام المفاخرات . قال الحطيئة :

قد ناضلوك فسلّوا من كنائنهم مجداً تليداً ، ونبلًا غير أنكاس

يوم اللوى

عُرفت حروب العرب بالايام ، لان المعركة لا تطول في الغالب اكثر من يوم واحد ، فاما ان تنتهي بانتصار احد الفريقين ، وفرار الاخر ، واما ان يفصل بينهم الليل فيفترقوا تاركين القتال الى يوم آخر يعدون له العدة ، ويتحينون الفرصة لمداهمة اعدائهم على حين غرة . وقد يطول العداء بين قبيلتين حتى يمتد سنوات عديدة كما امتدت حرب البسوس اربعين سنة ولكن لم يذكروا من معاركها الا خمسة ايام مشهورة ، لم تفجع البكريين والتغلبيين بكثير من القتلى مع ما في عدد الاربعين سنة من ضخامة وتهويل .

وكانوا يسمون يومهم باسم المكان الذي تقع فيه الواقعة كيوم اللوى بين غطفـان وهوازن . وفيه قتل عبد الله اخو دريد بن الصمة . وكان دريد من فرسان العرب المعدودين وشاعر بني جشم وسيدهم وقائدهم في الحروب . قال ابو عبيدة انه غزا نحو مائة غزاة ، ما اخفق في واحدة منها . ولكن يوم اللوى لم يكن طالعه سعيـداً عليه ، فقد آب منه مكسوراً جريحاً ، مفلتاً من انياب الموت . ولم يبؤ بالخذلان الا لان اخاه عبد الله ابى ان يطيعه ويعمل برأيه .

وكان عبد الله قد غزا غطفان ومعه بنو جُشَم وبنو نصر ، ودريد معهم . فساقوا قطعـة من ابل الغطفانيين ، ومضوا يجدّون آمنين . فلما صـاروا غير بعيد قال عبد الله : انزلوا بنا . فقال له دريد : نشدتك الله الا تنزل ، فان

غطفان ليست بغافلة . فأقسم لا يبرح حتى يأخذ مرباعه (اي ربع الغنيمة) ، وينحر ناقة فيصنع منها طعاماً له ولاصحابه . فأقام وعصى اخاه . فبينما هم في ذلك ، اذا بغبار قد علا وسطع ، وانكشف عن الغطفانيين يتلاحقون في اثرهم ، وبينهم بنو عبس جمرة العرب . فقال دريد لربيئتهم (اي طليعتهم) : انظر ماذا ترى ؟ فقال : أرى قوماً جعاداً كأن سرابيلهم قد غُمست بالجادي (اي الزعفران) . قال : تلك بنو اشجع ، ليست بشيء . ثم نظر فقال : ارى قوماً كأنهم الصبيان ، اسنتهم عند آذان خيلهم . قال : تلك فزارة . ثم نظر فقال : ارى قوماً أدماناً (اي سمراً) كأنما يحملون الجبل بسوادهم . يخدّون الارض باقدامهم خداً ، ويجرون رماحهم جراً . قال : تلك عبس والموت معهم .

وتلاحقوا بمنعرج اللوى ، فاقتتلوا قتالا مراً استطالت فيه بنو عبس ، وسطت فوارسها على بني جشم ، وادرك احدهم عبد الله اخا دريد فناجزه آخذاً عليه مذاهبه حتى خر صريعاً بين يديه ، فتنادت بنو جشم : قتل ابو ذفافة (كنية عبد الله) . فعطف دريد على اخيه ليذود عنه وينقذه ، فلم يغن شيئاً ، لان أسنة الغطفانيين امتدت اليه ، فسقط جريحاً ، يختبط بدمه . فظنوه قتل فكفوا عنه وتركوه طريحاً ثم استنقذوا الابل ، ورجعوا الى ديارهم . اما بنو جشم ونصر فنجا منهم من هرب .

ثم مر به رجلان احدهما من عبس ، والآخر من فزارة ، كانا قد تأخرا عن القوم . فقال العبسي للفزاري : اني لاحسب دريداً حياً فانزل واجهز عليه . قال : قد مات . قال : انزل فانظر الى استه هل تضطرب وتتحرك . فتماسك دريد حتى لا ترتعد له فريصة . ونظر اليه الفزاري فقال : هيهات ، اي قد مات . ثم مال عنه بعد ان طعنه في استه فأسال دمه . وبقي دريد

لا يبرح مكانه حتى أجنه الليل فقام يمشي صعيفاً متحاملًا وقد نزفه الدم فما كاد يبصر . فجاز بجماعة تسير ، فلجأ اليهم ، واظهر لهم نسبه ، فغسلوا عنه الدم ثم زودوه طعاماً وسقاء ، فعاد الى قومه لا يصدق بالنجاة . وفي ذلك يقول شعراً يرثي به اخاه عبد الله ذاكراً عصيانه له ، ثم يصف الموقعة واحاطة الخيل بأخيه حتى سقط قتيلًا ، وكيف طاعن عنه الخيل لينقذه ، فلم يبرح مكانه حتى خرقته رماح الاعداء .

وهذه القصيدة جميلة في ترابطها وحسن اتساقها ثم في طبيعتها الفطرية ، وبعدها عن الادعاء والغلو . فقد روى الحادثة كما هي بلهجة صادقة ، خالصة من التمويه . قال انه اعطاهم نصيحته ، فلم يعرفوا قيمتها الا في الغد بعد ان نزلت بهم النازلة . فلما رآهم يعصونه ضالين ، لم يجد بداً من اتباع ضلالتهم لانه واحد منهم :

وهل انا الا من غزية ان غوت غويت ، وان ترشد غزية ارشد

واذا باخيه يدعوه الى نجدته ، والفرسان يتنادون بانه قتل ، فلبى نداء اخيه ، واقبل اليه يرجو اغاثته . وهنا تبدو لنا صورة رائعة بواقعيتها وايجازها ، صورة فارس شجاع يرى الخيل محيطة باخيه : « اخي ارضعتني امه بلبانها » ، والرماح تتناوله من كل جانب . فيطاعن الفرسان ليكشف الخيل عنه : « قتال امرىء واسى اخاه بنفسه » ، حتى يخضبه سواد من دم الاعداء ، وتخرقه أسنتهم ، فيسقط مجندلا يعثر في الرماح المتكسرة : « وغودرت اكبو في القنا المتقصد . »

ثم ينتقل الى وصف اخلاق اخيه فيجعله متحلياً باجمل الفضائل التي يفاخر بها فرسان الجاهلية وساداتهم . فمن شجاعة وخبرة بمواقع الطعن والضرب . والشجاعة وحدها لا تغني عن الخبرة الحربية ، فحلية الفارس خبرته ، ولباقته . قال عبد يغوث الحارثي :

وكنت اذا ما الخيل شمّسها القنا لبيقاً بتصريف القناةِ بنانيا

وشجاعته لا ترمي به في مهاوي الاعمال المذمومة ، بل تدفعه الى الجد في طلب المعالي ، بعيد الهمة ، صبوراً في النوائب ، بصيراً في الامور . والشجاعة تدعمها الخبرة ، اذا وجهت شطر المآتي الشريفة ، بلغت غايتها بين الفضائل ، ولكنها تحتاج الى الصبر في النوائب ، والبصر في الامور . لان الفارس الشجاع اذا لم يكن له من قوة الصبر ورباطة الجأش ما يجعله يسكن طائرة نفسه ، ويملك صافي ذهنه حين تباغته النوائب وتنزل به مفاجآت لا ينتظرها ، اضاع ما عنده من شجاعة وخبرة في الحروب ولم يغن فيها اي غناء . وكذلك البصر في الامور واعداد العدة لها من الفضائل اللازمة للفرسان . لان الشجاع الاهوج لا توكل اليه قيادة القبيلة في المعامع ، ولا يعتمد رأيه في الملمات . فمن حسنات الفرسان ان توصف بالحزم ، وسداد الرأي ، وصدق البصيرة . وقد قيل لعنترة فارس بني عبس : « أأنت اشجع العرب واشدها ؟ » قال : « لا . » قيل : « فبماذا شاع لك هذا في الناس ؟ » قال : « كنت أُقدم اذا رأيت الاقدام عزماً ، واحجم اذا رأيت الاحجام حزماً ، ولا ادخل موضعاً الا ارى لي منه مخرجاً . وكنت اعتمد الضعيف الجبان ، فاضربه الضربة الهائلة ، يطير لها قلب الشجاع ، فأثنّي عليه فاقتله . »

فهذه صفة الفارس الذي تحسن به قيادة الجيش . يقدم الرأي على الشجاعة ، ويضع الخطة قبل الاقدام . وفي اعتماد عنترة ضرب الجبان قبل الشجاع حكمة حربية جديرة بالاعتبار لان مهاجمة المواضع الضعيفة في العدو وتحطيمها يحدثان الذعر والشلل احياناً في المواطن القوية . ولهذا كانت بنو عبس تتخذ عنترة فارسها قدوة لها فتحمل اذا حمل وتحجم اذا احجم .

ولو كان عبد الله بن الصمة صاحب حزم وبصر يوم اللوى ، لما نبذ رأي اخيه

وعصى نصيحته تاركاً ان يحتاط لنفسه ولقومه وهم على مقربة من ديار اعداء الشداء لا ينامون على الضيم ، ولا يغفلون عن اخذ الثأر . ولكن دريداً يصف اخاه بكل ما ينبغي للفارس ان يتصف به من الشجاعة ومستلزماتها ، فوصفه بصدق البصيرة في اعداد الامور .

ثم لم ينس فضيلة الكرم ، وهي من الفضائل الرئيسة عندهم ، فمن مفاخر البدوي ان يجوع ليطعم غيره ، ويعرى ليكسو سواه ، واذا مسه الفقر زاده سماحاً واتلافاً . وقلما رأيتهم يصفون فارساً او سيداً الا كان الكرم والضيافة واتلاف الاموال ابرز صفاته . فهذا عنترة يقول لعبلة :

فاذا شربتُ فانني مستهلك مالي ، وعرضي وافرٌ لم يكلمِ
واذا صحوت فما اقصّر عن ندى وكما علمت شمائلي وتكرّمي

وآخر صفة ينعت بها دريد اخاه بانه صبا في شبابه ما شاء ان يصبو حتى اذا علاه الشيب « قال للباطل : ابعد . » والعرب في جاهليتهم يتمدحون بذكر الصبا ولهوه ، ولكن يتركون الوقار للشيب لان الشيب عندهم بشير السيادة ، والسيادة تطلب الحزم والرصانة . وقلما ساد فيهم فتى قبل ان يشيب . قال زهير بن ابي سلمى :

صحا القلب عن سلمى واقصر باطلُه وعُرّي افراسُ الصبا ورواحله

وآخر بيت يختم به دريد قصيدته ، اودعه التعزية لنفسه ، بتلك الفطرة الخالية من التصنع ، والسذاجة البدوية المحببة :

وطيّب نفسي انني لم اقل له : كذبتَ ، ولم ابخلْ بما ملكت يدي

بهذا البيت الذي يتمثل به الحب الاخوي الخالص من اي شائبة تكدر صفاءه ، تنتهي قصيدة الشاعر الفارس في ذكر يوم اللوى ، ورثاء اخيه . وهي من مختارات شعر الحماسة والرثاء ، ومن منتقيات الجاهلية في كتاب جمهرة اشعار العرب لابي زيد القرشي .

حرب البسوس

وقعت الحرب يوم اللوى بسبب غزوة غزاها قوم لنهب ابل غيرهم ، فلما اخفقوا في غزوتهم ، خلوا النهاب ولاذوا بالفرار . ونحن الان امام حرب البسوس المشهورة في تاريخ الجاهلية بايامها الخمسة ، وبان العداء استطال من اجلها بين بني بكر وتغلب مدة اربعين سنة . وكان الدافع اليها المحافظة على الجوار ، لان العرب شديدو الحرص على مراعاة الجار والدفاع عنه ، حتى انهم لا يتأخرون عن اشعال نار الحرب لحمايته وصيانة حقوقه . والظاهر ان منشأ هذه العادة عندهم يعود الى طبيعة ارضهم ، ثم الى حالتهم الاجتماعية ، فان قحط البادية وفقرها وجّها سكانها الى الغزو لتحصيل معاشهم ، والى الترحل الدائم في طلب الماء والكلأ . فكان البدوي على حالتيه معرضاً للمخاوف غازياً او مغزواً ، جائعاً او ضائعاً ، فلا غنية له عن قوم يستغيثهم فيجيرونه ، ويدفعون الشر عنه ، او قوم يستضيفهم فيطعمونه ، ويؤمنون طريقه . ولما كان كل بدوي لا بد له ان يغزو ويغزى ، ويتيه في صحرائه خائفاً او جائعاً ، فيستجير او يستجار ، اصبح الجوار عندهم شريعة مقدسة تعارفوا على مراعاتها واحترامها ، وجعلوها مع الايام فضيلة من فضائلهم يفاخرون بها ويتباهون باخبارها ، واتخذوا منها مادة لهجاء اعدائهم ، يتهمونهم بخذل الجار ، وترك الدفاع عنه ، فشغل الجار والجوار الشعر الجاهلي في المديح والفخر والرثاء والهجاء .

وبلغ من اعظامهم للجوار انهم اجازوه للاحداث والنساء ، مع ان الاحداث

قاصرون لا قدرة لهم على حماية جيرانهم ، والمرأة ضعيفة مهضومة الحقوق ربما دفنت حية عند ولادتها . ولكن الاباء يرعون جوار ابنائهم الصغار ، والازواج والاخوة والاولاد يرعون جوار نسائهم واخواتهم وامهاتهم . لان هذه الفضيلة لا يصح عندهم ازدراؤها او اغفالها مهما يكن امرها . واغرب ما في شريعة الجوار انهم يقبلون جوار الجار ، ويحافظون عليه محافظتهم على جوارهم الخاص ، ولا يخشى الجار ان يندد بمجيريه ، ويؤنبهم ، اذا اهين جاره في جوارهم . وعليهم ان يغسلوا اهانة جار الجار بالدم اذا اقتضت الحال . وحرب البسوس التي نحن بصددها كان جوار الجار سبباً لها ، فوقع الخصام بين تغلب وبكر ، وهما قبيلتان من وائل يجمعهما النسب والقربى ، على اثر مقتل كليب سيد بني تغلب ، وملك قبائل معدّ كلها .

وكان كليب وائل قد قاد قبائل ربيعة ومضر يوم خزازى فهزم جموع اليمن ، وخلع عن المعديين نير سيادة الغرباء ، فنادوا به ملكاً عليهم وقدموا له الطاعة ، فداخله زهو شديد ، وبغى على شعبه حتى بلغ به بغيه انه اذا مطرت سحابة في ارض حمى مكانها لينبت العشب فلا تُرعى ابل في حماه . ويجعل وحش موضع ما في جواره ، فما يجرؤ احد ان يهيجه ويصيده . واذا اوقد ناره لا توقد نار معها . واذا رعت ابله لا ترعى معها الا ابل جساس بن مرة من بني شيبان بن بكر ، لما بينهما من المصاهرة والمخالطة . فجليلة زوجة كليب هي اخت جساس ، ولها غيره تسعة اخوة .

فاتفق ان امرأة اسمها البسوس بنت منقذ جاورت جساساً ثم جاورها رجل من بني جَرْم اسمه سعد . فقبل جساس جوار جارته . وكان للجرمي ناقة اسمها سراب فرعت مع ابل جساس وكليب . فانكرها كليب وابت كبرياؤه ان ترعى حماه ناقة غريبة . فرماها بسهم خرق ضرعها ، فولت الناقة تعج حتى

بركت بفناء صاحبها ، فلما رآها صرخ شاكياً متظلماً ، فسمعت البسوس صوته ، فخرجت وصاحت : واذلاه ! واجوار جساس ، واجوار مرة ! . . ثم انشدت ابياتاً تعنف بها بني مرة لتستفزهم :

لعمريَ لو اصبحت في دار منقذ لما ضيمَ سعد ، وهو جار لابياتي
ولكنني اصبحتُ في دار غربةٍ متى يعدُ فيها الذئب يعدُ على شاتي
فيا سعد لا تغرُر بنفسك وارتحل فانك في قوم عن الجار اموات

والعرب تسمي هذه الابيات بالموثبات لان البسوس لما انشدتها اوغرت الصدور فقال لها جساس : اسكتي والله ليقتلن غداً جمل عظيم اعظم عقراً من ناقتك . فبلغ قوله كليباً فظن انه اراد قتل عُليّان وهو فحل كريم له . فقال : « هيهات دون عليان خرط القتاد . » ثم ظعن ابناء وائل من تغلب وبكر يطلبون الكلأ ، فمرت بكر على غدير يقال له شُبيث ، فمنعهم كليب من وروده . ثم مروا على غدير آخر يقال له الاحص فنفاهم عنه . حتى نزلوا الذنائب ، واتبعهم كليب وحيّه حتى نزلوا عليه . ثم مر عليه جساس وهو واقف على غدير الذنائب فقال : طردت اهلنا عن المياه حتى كدت تقتلهم عطشاً . فقال كليب : ما منعناهم من ماء الا ونحن له شاغلون . فمضى جساس عنه . ومكث يتربص به حتى بلغه ذات يوم انه خرج وليس معه سلاحه . فتبعه ومعه ابن عمه المزدلف ، حتى لحقاه في الحمى . وكان كليب لا يلتفت وراءه من كبريائه . فقال له جساس : يا كليب الرمح وراءك . فلم يلتفت كليب بل اجابه : ان كنت صادقاً فاقبل الي من امامي . فطعنه جساس ، فارداه عن فرسه ، يتدفق الدم من جرحه . فنادى جساساً منتسقياً ، فقال له جساس : هيهات تجاوزت شبيثاً والاحص . فذهبت مثلاً .

وكان المهلهل منصرفاً في حياة اخيه الى اللهو ومعاقرة الخمرة ومحادثة النساء ،

فلقبه كليب « زير نساء » لكثرة زياراته لهن . فبينا هو يسكر ويلهو ، ومعه همام بن مرة اخو جساس ، جاءت جارية الى همام ، واسرّت اليه الخبر . فتغير وجه همام ، وبدا عليه القلق . فسأله المهلهل عن الخبر . فسكت ولم يخبره . فألح عليه . وكان بينهما عهد ان لا يكتم احدهما صاحبه شيئاً فذكّره به . فاخبره همام بمقتل اخيه . فقال المهلهل : است اخيك اضيق من ذلك . فسكت همام واقبلا على شرابهما . فجعل المهلهل يشرب شرب الآمن المطمئن ، وهمام يشرب شرب الخائف القلق ، حتى صرعت الخمر المهلهل فانسل همام الى قومه بني شيبان ، فاذا هم قد قوضوا الخيام ، وجمعوا الخيل والابل ، ورحلوا عن الحي حتى نزلوا بماء يقال له النهي .

ثم ظهر امر كليب ، فقام الصياح في بني تغلب ، وخرجت الابكار والعواتق من خدورهن مخمشات الوجوه ، مشققات الجيوب . واستفاق المهلهل من سكره فرجع إلى الحي فرآهم يعقرون خيولهم ويكسرون رماحهم وسيوفهم ، فقال : ويحكم ما الذي دهاكم ؟ فلما اخبروه الخبر ، قال : لقد ذهبتم شر مذهب ، أتعقرون خيولكم حين احتجتم اليها ، وتكسرون سلاحكم حين افتقرتم اليه ؟ ثم التفت الى النساء فنهاهن عن البكاء وقال : استبقين للبكاء عيوناً تبكي الى آخر الابد . فظنوا انه يهذي من سكره . فلما اصبح غدا الى دفن اخيه . وقام على قبره يبكيه ويندبه ، ويرثيه بالاشعار مكتفياً بالوعيد والتهديد . ومن مراثيه الرقيقة قصيدة اثبتنا منها قطعة صالحة .

ليست القصيدة في جملتها من خالص الشعر ورفيعه ، وانما فيها رقة وعاطفة صادقة ، عاطفة الاخ الحزين على اخيه ، تصعّد الزفرات ثائرة متفجعة ، تندبه ، وتغالي في ندبه ، كما يغالي كل نادب ونادبة . فكأن الارض مالت ، والجبال زالت ، عندما نعى النعاة اخاه : « مالت بنا الارض ام زالت رواسيها . »

فالخطب عند المهلهل فادح الى حد انه لا يجد فرقاً بين زوال الكون وموت كليب ، بل يرى من الخير ان يبيد العالم ويصير امره الى الدمار ، اذ لا خير في الدنيا ومن فيها بعد كليب :

ليت السماء على من تحتها هبطت وانشقت الارض ، فانجابت بمن فيها

أوليس من شأن النادب والنادبة ان يظهرا فضائل السيد القتيل ، ومآتيه المأثورة في امجاد القبيلة ومفاخرها ، فيكون بذلك تحريض لقومه واستفزاز على الاخذ بثأره لانهم يشعرون بالخسارة العظمى كلما عُدّد الميت وذكرت اعماله وحسناته ؟ والثأر مقدس عند العرب كما بيّنا في بحث سابق . فلا عجب ان يسلك المهلهل هذا الطريق ، فيرينا اخاه قائد خيل تغلب الى النصر ، وهذه الخيل تعدو معجبة بنفسها دون سائر الخيول العادية . ورماح تغلب لا تشكو عطشاً لانها تروى من دماء الاعداء ، ولكنها تتبدل لوناً بلون :

نُروي الرماح بايدينا فنوردها بيضاً ونصدرها حمراً اعاليها

فاما وقد اظهر فضل اخيه وما نالت تغلب تحت قيادته من نصر ومجد ، فقد حان له ان يلتفت الى بني مرة فيهددهم بان تغلب لا تنام عن ثأرها ، وان الحرب طويلة لا صلح بعدها :

لا اصلح الله منا من يصالحكم ما لاحت الشمس في اعلى مجاريها

ومكث المهلهل يبكي اخاه ويندبه مكتفياً بوعيد بني مرة حتى يئس قومه وقالوا : انه زير نساء . وسخرت منه بكر ، وهمّت بنو مرة بالرجوع الى الحي . ولكنه ما بكى ورثى الا ليثير النفوس ، ويوغر الصدور ، فاذا به يهب للحرب ، فيجمع اطراف قومه ، ويجز شعره ، ويقصر ثوبه ، ويشمر ذراعيه . ثم يحرّم على نفسه النساء والخمر والقمار او يأخذ بثأر اخيه . فدارت رحى الحرب بين بكر وتغلب ، بايامها الخمسة المشهورة : اولا يوم النِهْي ، وكان

النصر فيه لبني تغلب . ثم يوم الذنائب ، وفيه ايضاً انتصرت بنو تغلب وقتل شراحيل اخو جساس . ثم يوم عنيزة ، تكافأ فيه المتحاربان لا غالب ولا مغلوب . ثم يوم واردات وفيه قتل همام اخو جساس . وكان المهلهل يحبه لما بينهما من الصداقة ، فلما رأى جثته قال : « والله ما قتل بعد كليب اعزّ علي فقداً منك . » وقتل المهلهل في ذلك اليوم بجير بن الحارث بن عُباد .
ودوّن هذه الواقعة بقصيدة فيها حلاوة ورشاقة ، يستهلها بذكر ليله الطويل ، ليل الحزين المهموم لا يخاله ينقضي كأن ساعته دهر . وهو يومئذ في الذنائب حيث شفى نفسه من بكر في معركة دارت رحاها على اعدائه ، وخاض فيها مستبسلًا يورد سيفه هامات الابطال . وكان من حقه ان ينام تلك الليلة قرير العين . ولكن بالذنائب قبر اخيه يتراءى له فيرد عنه طارق الكرى فيبيت مسهداً مثقلًا بالهموم يبدو له الليل طويلا ليس له آخر ، فيشكو همه ويذكر الذنائب متألماً ، يتمنى لو ينبش القبر عن كليب ليخبر عن بطشه وفتكه ، فيعلم اي زير اخوه . وكليب يعرفه زير نساء لا زير حروب واهوال :

ولو نُبش المقابر عن كليب فيُخبرَ بالذنائب اي زيرِ

ثم يذكر كيف قتل بجيراً يوم واردات . ولم يكن بجير يحارب التغلبيين ، ولا ابوه الحارث . ولكن المهلهل اعتدى عليه اعتداء ، وقتله تشفياً وانتقاماً لكي تعم الويلات كل بكري محارباً كان او غير محارب . وقد علم المهلهل انه قتله ظلماً ، الا انه وجد في هذا الظلم شفاء لغليله :

هتكتُ به بيوت بني عُباد وبعضُ الظلمِ أشفى للصدور

والبيت الاخير في هذه القطعة جميل بجماسته على ما فيه من كذب وتكثر :

فلولا الريحَ أسمع مَن بحجر صليل البَيْض تُقرع بالذكور

يقول لولا الرياح العاصفة التي يخفي صوتها سائر الاصوات لكنا اسمعنا

اهل الحجر صليل خوذ الاعداء ونحن نقرعها بالسيوف الصلاب . قيل : هذا اكذب بيت قالته العرب . فحجر قصبة اليامة ، وبينها وبين مكان الواقعة عشرة ايام .

ما قُتل بجير بن الحارث بن عباد ليذهب دمه هدراً ، فان والده فارس شجاع لا يعاب ولا يضام . وكان قد اعتزل يوم قتل كليب ، وقال : لا ناقة لي في هذا ولا جمل . فذهبت مثلا . وترك مناصرة قومه بني بكر مستعظما قتل كليب من اجل ناقة . فلما أُخذ بجير يوم واردات ولم يكن محارباً ، جاؤوا به الى المهلهل فقتله وقال : بؤ بشسع نعل كليب . اي مت بدلا من سَير نعل كليب لا بدلا من كليب نفسه ، لان المهلهل لا يجد كفؤاً لاخيه . فلما بلغ الحارث بن عباد مقتل أبنه قال : نِعْم الغلام ، غلام اصلح بين ابني وائل وباء بكليب . فقيل ان مهلهلا لما قتله قال له : بؤ بشسع نعل كليب . فغضب الحارث من ذلك ، فنادى بالرحيل ، وقال يرثي ولده ويهدد بني تغلب . والقصيدة طويلة ، يكثر فيها من ترداد هذا الشطر : قرّبا مربط النعامة مني . والنعامة فرس له من اشهر خيول العرب . ولكن ما فيه من تبجح واعتداد ، يميل بها الى الاسفاف . ولم نثبت منها هنا غير ابيات قليلة يذكر فيها كيف ان الحرب عمت جميع وائل ، فاصبحت وائل تضج تحت اعبائها ضجيج الجمال باحمالها ، والتشبيه بدوي خالص ، مأخوذ من حياة الصحراء وحيوانها الموسوم بطابعها . ثم يخبرنا كيف انه اعتزل القتال ، فابت تغلب اعتزاله ، فقتلت بجيراً ظلماً : « قتلوه ظلماً بغير قتال . » ولم يقتلوه كفؤاً لكليب ، بل قتلوه بشسع نعله : « ان قتل الكريم بالشسع غال . » والبيت الاخير جميل رائع في تصوير جيش الاعداء يقطر الموت فيه ، ويلقاه فارسنا على جواد عظيم الهيكل ، لكن جلاله خفيف غير ثقيل :

رب جيش لقيته ، يمطر الموت ، على هيكل خفيف الجلال

ثم كان يوم تحلاق اللمم وهو اليوم الاخير من الايام الخمسة المشهورة وفيه انتصرت بنو بكر انتصاراً عظيماً ، بعد ان وقعت عليها الواقعة في اغلب الايام المتقدمة . وكان المهلهل قد استطال عليها ببني تغلب ، والح في تقتيلها حتى اصابها بخيرة فرسانها وساداتها ، فتأذت بنو بكر من فتك المهلهل ، وآلمها ان تمنى بالانكسار بعد الانكسار ، فأرسلت الى من باليمامة من اقربائها البكريين تستنجدهم ، فامدوها بسبعين فارساً على رأسهم الفِنْد الزِّماني ومعه ابنتان له شيطانتان من شياطين الانس على حد تعبير صاحب الاغاني ، فخافتا ان يتأخر قومها ، وقد حمي وطيس الحرب واستطال التغلبيون ، فخلعتا ما عليها من الثياب ونزلتا عاريتين وسط المعمعة لتستثيرا نخوة البكريين واخذت احداهما تغني :

نحن بنات طارق   نمشي على النمارق

ان تقبلوا نعانق   او تدبروا نفارق

فراق غير وامق

وجاء مقتل بجير بشسع نعل كليب دافعاً للحارث بن عباد البكري ان يترك اعتزاله ، ويصطلي نار الحرب ليأخذ بثأر ولده .فتقوت به بنو بكر ، كما تقوت بالفند الزماني ، وكلاهما بطل عنيد . ويزعم بعض الرواة ان رئاسة الجيش يوم تحلاق اللمم كانت للفند ، ولكن اكثرهم متفقون على انها للحارث ابن عباد . فهو الذي ولي امر بكر ، واشار على رجالها بان يحلقوا رؤوسهم لتعرفهم النساء . فاذا مرت المرأة البكرية على جريح منهم عرفته بعلامته فسقته الماء ونعشته ، واذا مرت على جريح غير حليق ضربته بهراوة تحملها بيدها حتى تجهز عليه ، لانه يكون تغلبياً . لذلك عرفت المعركة بيوم تحلاق اللمم ،

وربما قيل لها يوم قِضَة باسم المكان الذي وقعت فيه .

وكان همّ الحارث بن عباد ان يقتل المهلهل قاتل ابنه ، فالتقاه في المعركة وهو لا يعرفه ، فاخذه اسيراً بعد عراك ثم وعده بان يطلق سبيله اذا دله على المهلهل . فاخذ عليه المهلهل العهود والمواثيق ثم اظهر له نفسه . فقال له الحارث : دلني على كفء لبجير اقتله به . فدله على امرىء القيس بن ابان من سادات تغلب وفرسانها ، واراه علمه . فجز الحارث ناصية الزير ، واطلقه ثم قصد امرأ القيس فشد عليه فقتله . وقتل من بني تغلب في هذه الواقعة رهط من رجالها ، فانهزمت محطومة الجناح . واشتفت نفوس بني بكر . فلما عاد المهلهل الى الحي جعل النساء والولدان يستخبرونه ، تسأل المرأة عن زوجها وابنها واخيها ، والغلام عن ابيه واخيه ، وهو لا يدري كيف يجيبهم . فكره البقاء بينهم ، وخرج لاحقاً بارض اليمن ، ومات غريباً عن اهله لا يعرف تماماً كيف مات .

واما جساس فان تغلب كانت تطلبه اشد الطلب ، فنصحه والده بان يذهب الى اخواله في الشام وسيره سراً ومعه خمسة اشخاص فلحقه جماعة من تغلب فقاتلهم جساس ونجا منهم جريحاً . ثم مات متأثراً من جراحه . ولكن المشهور ان جساساً كان آخر من قتل في حرب البسوس ، وقاتله ابن اخته الهجرس بن كليب . وبقي العداء مستحكماً بين قبيلتي وائل زمناً طويلا حتى اصلح بينها الملك المنذر والد عمرو بن هند ، وكان المهلهل قد مات .

حرب داحس والغبراء

عبس وذبيان ، قبيلتان مشهورتان في تاريخ العرب يجمعها نسب واحد الى جدهم غطفان ، ويتفرع من عبس بنو جذيمة ومنهم قيس بن زهير واخوته . وبنو قراد ومنهم عنترة بن شداد . وبنو زياد ومنهم الربيع واخوته . ويتفرع من ذبيان بنو فزارة ، ومن فزارة بنو بدر ، ومنهم حُذيفة واخوه حمَل . وبنو مرة ومنهم حصين بن ضمضم واخوه هَرِم . وهؤلاء الاشخاص* سيمر بنا ذكرهم في حرب داحس والغبراء التي نشبت بين هاتين القبيلتين العدنانيتين ، فقتل فيها نخبة من فرسانها وساداتها ، وتشتت شملها بالترحل المستمر طلباً لمحالفة قبيلة ، او التجاء الى مكان امين .

وانتهزت بعض القبائل الغريبة عداوة الاقرباء ، فحاولت ان تستفيد منها على ظهورهم ، فحالفت فريقاً منهم لتوقع بالفريق الآخر ، فكانت مجزرة اهلية في بني غطفان « تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم » على حد قول زهير بن ابي سلمى .

وسبب هذه الحرب تافه في حد نفسه ، وانما جعله عظيما ما عند البدوي من عنجهية وحب للتنافس والادعاء . فانهم يتنافسون في النسب والشرف والعدد والخيل والابل ، وفي كل ما يعود عليهم بالفخر ويعدونه من فضائلهم وامجادهم . ولطالما جرّ عليهم هذا التنافس الويل والحروب كما جرّت على بني عبس وذبيان هذه الحرب الضروس على اثر سباق داحس والغبراء . وداحس جواد لقيس

ابن زهير سيد بني عبس ، والغبراء لحمل بن بدر سيد بني فزارة ، وكلاهما من اشهر خيول العرب ، ولكنهما كانا شؤماً على القبيلتين حتى قال فيهما عنترة الفوارس :

فليتهما لم يجريا قيد غلوة وليتهما لم يرسلا لرهان
لقد جلبا حيناً وحرباً عظيمة تبيد سراة القوم من غطفان

وغير عجيب ان يتنافس العرب بخيولهم ، وهم اهل فروسية ونجدة . والجواد العربي عدة الفارس وعونه في الحروب لما به من حميّة وغيرة على صاحبه . وكان لا يقتني الخيل الا السادات والفرسان لغلاء اثمانها ، واكلاف قوتها وسياستها . وكانوا يعنون بها عناية خاصة ، ويجعلون مرابطها قرب العيال اكراما لها ، وخوفاً عليها من ان تسرق او تصاب باذى . ولذلك سموها المُقربات لتقريبها من الاهل والاولاد . قال عبد الله بن جعفر :

وجُرداً يُقرّبن دون العيال خِلالَ البيوت ، يلُكن الشكيما

وربما تعهد الفارس بنفسه اطعام جواده وسقايته لحبه له ، وحرصه عليه . حتى ليلازمه اكثر من ملازمته لاهله ويسقيه اللبن صبوحاً وغبوقاً ، فيوقع الغيرة احياناً في نفس زوجته ، فتنحي عليه باللائمة كما لامت عنترة زوجة له من بني بجيلة حين رأته يؤثر مهره عليها ، ويسقيه اللبن قبل ان يسقيها . فقال لها عنترة :

لا تذكري مهري وما اطعمته فيكون جلدك مثل جلد الاجرب
ان الغبوق له ، وانت مسوءة فتأوّهي ، ما شئت ، ثم تحوّبي
ان الرجال لهم اليك وسيلة ان يأخذوك تكحلي وتخضبي
ويكون مركبك القَعود وحدجه وابن النعامة يوم ذلك مركبي
وانا امرؤ ان يأخذوني عنوة اقرن الى شر الركاب واجنب

وبلغ من اعظامهم للخيول انهم كانوا لا يهنئون الا بغلام يولد ، او فرس

فتنتج ، او شاعر ينبغ . وحسبك من ذلك دلالة على قيمتها ، فهي بمثابة البنين ، والشاعر المحامي عن القبيلة . وقد كرمها القرآن حين اقسم بها ، وانما هو يخاطب العرب بلغتهم وبيانهم ، وبما يحسون به ويشعرون : « والعاديات ضبحاً ، فالموريات قدحاً ، فالمغيرات صبحاً ، فاثرن به نقعاً ، فوسطن به جمعاً . » وفي الحديث المأثور عن النبي قوله : « الخيل معقود بنواصيها الخير الى يوم القيامة. » والنبي عربي لمست كفه اعراف الخيول في غمرات القتال .

وقادهم التنافس في خيولهم الى التراهن عليها وارسالها للسباق . فكانوا يصّفونها على حبل يسمونه المقوّس يمتد دون صدورها حاجزاً لها قبل انطلاقها ، ويركزون قصبة في اقصى الغاية ، فاذا ازيل المقوس ، وجرت الخيل بركبانها ، كان على السابق ان يقتلع القصبة ويأخذها ليعلم انه المجليّ من غير نزاع . ومن ذلك قولهم : احرز قصب السبق .

وقد يجري السباق بين فرسين اثنين كما جرى بين داحس والغبراء . وربما ادخلوا بينهما ثالثاً يسمونه الدخيل . فيرسلون الافراس الثلاثة فان سبق احد الاولين اخذ رهن صاحبه . ولا يؤدي الدخيل شيئاً . وان سبق الدخيل اخذ الرهنين جميعاً .

على ان الحلبة وهي مجتمع الخيل تتألف عادة من عشرة جياد ترسل في الرهان معاً ، ولها اسماء تطلق عليها بحسب تقدم بعضها على بعض عند جريها الى الغاية . فالاول السابق يقال له المجلّي ، والثاني المصلّي ، والثالث المسلّي ، والرابع التالي ، والخامس المرتاح ، والسادس العاطف ، والسابع المؤمّل ، والثامن الحظي ، والتاسع اللطيم ، والعاشر السكّيت ، والفسكل .

وسباق داحس والغبراء حدث على ارجح الروايات بين الفرسين منفردين ، لا في حلبة كاملة كما يزعم بعض الرواة . وسببه ان رجلا من بني عبس نافس

حمل بن بدر واخاه حذيفة في داحس والغبراء ، فانتصر العبسي لداحس ، وانتصر حمل للغبراء فتراهنا عليهما ، وجعلا حق السباق عشرة من الابل ، فذهب العبسي واخبر قيس بن زهير ، فكره قيس ان ينافس قريبه وهو يعلم ما عند حمل واخيه من كبرياء وعتو واعتداد . فذهب اليهما ليبطل الرهان ، فرفض حمل واوجب عليه المال اذا ابى السباق . فغضب قيس ، وجعل الرهان عشرين ، فجعله حمل ثلاثين . وما زالا يتزايدان حتى بلغ به قيس مائة من الابل . وجعل المجرى يمتد مائة غلوة (اثني عشر ميلا) طولا حتى ينتهي عند ذات الاصاد ، وهو ماء في ديار بني عبس بنجد فيه شعاب كثيرة . وان يكون تضمير الفرسين اربعين يوماً . فلما تم الاضمار قادوهما الى رأس الميدان ، ووضعوا القصبة في عهدة رجل من بني ثعلبة . وكان حمل بن بدر قد اكمن فتياناً في الشعاب على طريق الفرسين ، واوصاهم بان يردوا داحساً عن غايته اذا جاء سابقاً . ثم أرسل الفرَسان ، فانطلقا يعدوان وبنو عبس وفزارة ينظرون اليهما ، فبرزت الانثى وتأخر الذكر ، فقال حمل : سبقتك يا قيس . فقال قيس : رويداً يعدوا الجَدَد (الارض الغليظة) الى الوعث (الرمل) وترشح اعطاف الفحل . فلما اوغلا في الجدد وخرجا الى رملة ليّنة يشقّ فيها السير اخذت الغبراء تتأخر وداحس يتقدم حتى خرج عنها وتركها تشتد وراءه ، فقال قيس : جريُ المُذكيات غِلاب . اي مغالبة . فارسلها مثلًا . وما زالا كذلك حتى دنا داحس من الشعاب وشارف الغاية ، فوثب الفتية من مكمنهم فلطموا وجهه وردوه عن غايته ، فخرجت الغبراء متمطرةً ، وطرحته وراءها حتى احرزت قصبَ السبق . وفي ذلك يقول قيس بن زهير :

وما لاقيتُ من حمَل بن بدرٍ ... واخوته على ذات الاصاد
همُ فخروا عليّ بغير فخر ... وردوا دون غايته جوادي

فوقع النزاع بين الحيين ، وطالب قيس بحقه ، فابى حمل بن بدر الا ان يكون هو السابق ، وحق الرهان له . فتوترت الاعصاب ، واشتد الجدال حتى افضى الى الخصام ، فذهب الفريقان على ضغينة ونفور . ثم ان قيساً اغار عليهم فلقي عوف بن بدر فقتله واخذ ابله ، فبلغ الخبر بني فزارة فغضبوا وثاروا للقتال ، فتدخل الربيع بن زياد العبسي ، وكان نازلا في جوارهم ، ودعاهم الى اخذ الدية تفادياً من وقوع الحرب بين الاقرباء ، فارتضوا باخذها وحمل لهم الربيع مائة ناقة عشراء . فسكن الناس .

واتفق ان مالك بن زهير خرج من الحي الى موضع يقال له اللقاطة ليُعرس فيه ، فبعث حذيفة بن بدر واخوه حمل فرساناً وراءه ، فساروا يقتصون اثره حتى ادركوه فقتلوه . ورجعوا عشية وقد جهدت افراسهم من شدة السير ، فوقفوا على حذيفة ومعه الربيع بن زياد . فقال لهم حذيفة : أقدرتم على حماركم ؟ قالوا : نعم وعقرناه . فقال الربيع : ما رأيت كاليوم اهلكت افراسك من اجل حمار . واخذ يلومه على ذلك . فقال حذيفة : انّا لم نقتل حماراً ، ولكنّا قتلنا مالك بن زهير بعوف بن بدر . فقال : بئسما فعلتم بقومكم ، قبلتم الدية واخذتموها ثم غدرتم . وذهب الربيع الى منزله يطأ الارض وطأ شديداً ، فبات ليلته يتغنى بابيات يرثي بها مالك بن زهير .

والابيات تظهر لنا في مطلعها حالة الشاعر العبسي بعد تلقيه خبر مصرع مالك ، فقد بات ليلته لا يغتمض له جفن لشدة حزنه واضطرابه وتفكيره في اخذ الثأر . فاكتفى ببيت واحد يشرح حالته ، ثم انتقل مسرعاً الى ذكر النساء واحوالهن بعد هذا الرزء الاليم :

أفبعد مقتل مالك بن زهير   توجو النساء عواقب الاطهار

وهذا البيت ، على ما في صدره من اختلال التفعيل ، يعطينا عن العرب

بعض الفوائد التاريخية . فانهم ، على بداوتهم الخشنة ، كانوا لا يقربون النساء وهنّ في زمن الحيض ، ولكن بعد ان يطهرن منه . والشاعر لم يذكر النساء الا لينذر الاعداء باخذ الثأر . لانهم اذا ارادوا طلب الثأر ارادة حقاً ، حرموا على نفوسهم مقاربة النساء الى ان يأخذوه . وما كان دم مالك بن زهير ليذهب هدراً ووراء الثأر اخوه قيس سيد العبسيين ، وفرسان عبس جمرة العرب . فلا تنتظر العبسيات عاقبة الطهر ، اي مقاربة الرجال ، قبل ان يدرك بثأر السيد القتيل .

وبعد ان يشير على العقلاء من بني قومه بان يقرروا الحرب وشد المطي للقتال يختم ابياته بوصف النساء العبسيات في مأتم الفتى الكريم ، كاشفات الرؤوس ، نادبات يلطمن بيض الوجوه . والوجوه البيض عندهم هي وجوه الحرائر لا وجوه الاماء . فالعبسية الباكية على السيد القتيل حرة بيضاء لا امة سوداء ، ام بنين لا ام ولد . ومن اولى منها بالندب والنواح وتعداد الميت ، والتحريض على الاخذ بثأره ؟

ثم خرج الربيع بن زياد عن بني ذبيان لاحقاً بقومه . وكان بينه وبين قيس بن زهير خلاف من اجل درع فاصطلحا . وتولى الربيع رئاسة الجيش ، وفيه عنترة الفوارس . وقاد جيش الفزاريين حذيفة بن بدر . فالتقوا بذي المريقب من ارض الشرّبة ، فاقتتلوا طوال يومهم . ونازل عنترة اشد فرسانهم فاستطال عليهم وقهرهم ، واردى منهم ضمضماً فارس بني مرّة وسيدهم ، فانهزم بنو فزارة بعد ان قتل منهم نفر كثير .

ثم بلغ عنترة ان حصيناً وهرماً ابني ضمضم يشتمانه ويوعدانه . وكان حصين فارساً شجاعاً معروفاً بالفتك . وفيه يقول زهير بن ابي سلمى :

جريء متى يظلم يعاقب بظلمه   سريعاً ، وان لم يبدَ بالظلم ، يظلم

فنظم عنترة قطعة من معلقته يصف بها موقفه من الاعداء في المعركة ، ويتطرّق الى ذكر حصين وهرم وتهديدهما اياه . وهذه القطعة من صفوة شعر المعلقة بما فيها من حماسة واندفاع وجمال التصوير والتركيب . فالاعداء في اولها مقبلون يحضّ بعضهم بعضاً للحرب . فيكر عليهم عنترة محمود النقيبة لا يعاب ولا يذم . وهم لا يطلبون من فرسان عبس غيره ، ولا ينادون الا باسمه : « يدعون عنتر » لعلمهم انه ركن المعركة ومحورها ، فاذا قتلوه هان عليهم سواه . فرماحهم ممدودة الى صدر ادهمه تنزع دماءه كما تنزع الحبال دلو الماء من البئر ، وهذا التشبيه صورة محلية مأخوذة من حياة البادية . ولكن عنترة لا يرتدّ عنهم مهما تألبوا عليه ، بل يتبع الحملة بالحملة ، يدفعهم بنحر جواده وصدره ، وانياب الرمح تنهش من جسم الادهم ، حتى يتبدل لون جلده : « تسربل بالدم . »

وهنا يخرج الشاعر ثلاث صور تتوالى حركاتها المختلفة في بيت واحد ، فتمسحه بجمال رائع ، وروحانية سامية قلما نجدها في الشعر الجاهلي . فالجواد تألم من وقع الرماح في صدره ، فمال عنها ليتجنبها ، فانتهره الفارس ورده نحوها ، فالتفت اليه شاكياً ، وشكواه دمعة تجري من عينه ، وحمحمة تخرج من صدره :

فازورّ من وقع القنا ، فزجرته ، فشكا اليّ بعبرة وتحمحم

فقد رفع عنترة جواده في هذا البيت من الحيوانية الى الشعور الانساني ، فشكواه ودمعته وحمحمته تجعلنا نحسّه انساناً متألماً يتظلم ويسترحم ، ولو استطاع الكلام لتكلم :

لو كان يدري ما المحاورة اشتكي ولكان ، لو علم الكلام ، مكلمي

على ان نفس عنترة تجد شفاءها في مثل هذا الموقف ، فكيف يتخلى عنه ، والفوارس تحتمي به ، وتقول له : « ويك عنتر اقدم » ولطالما عيّروه امه

وسواده واعتلال نسبه فاذا هم الآن يلتجئون اليه ويعترفون له بالتقدم .

وتنتهي هذه القطعة الجميلة بثلاثة ابيات يخبرنا فيها الشاعر الفارس بانه يخشى ان يموت ولا يرى ابني ضمضم قتيلين ، فهما يشتمان عرضه ، وهو عفّ اللسان لا يشتمهما ، ويهددانه بالقتل ، ولكن في غيبته لا في حضوره . ثم يسلي نفسه بان دمه لا يذهب هدراً ، فيظمأ في قبره ، اذا تمكنا من قتله ، لانه هو البادىء بالقتل فقد ترك اباهما فريسة السباع والنسور :

ان يفعلا ، فلقد تركت اباهما جزَر السباع وكل نسر قشعم

ثم تتابعت الايام بين القبيلتين فكان النصر في اغلبها لبني عبس . وفي يوم الهباءة قُتل حذيفة وحمل ابنا بدر .

التقت القبيلتان في مكان يقال له جفر الهباءة فاقتتلوا من الصبح الى الظهيرة ثم حجز الحرّ بينهم ، فارتد بنو ذبيان الى الماء يتبردون ، فتبعهم بنو عبس واحاطوا بهم ، فقتلوا حذيفة واخاه حملًا ، ومثّلوا بحذيفة اشنع تمثيل لانه فتك بغلمان من بني عبس كانوا رهائن في قومه ومثّل بهم ، فانتقموا لهم منه ، واشتفت نفس قيس بن زهير فقال :

شفيت النفس من حمل بن بدر وسيفي من حذيفة قد شفاني

فان اكُ قد بردَت بهم غليلي ، فلم اقطع بهم الا بناني

وفي قوله : « لم اقطع بهم الا بناني » اشارة الى انهما من انسبائه ، فهو شاعر بالمصاب والخسارة ، ولكنه قتلهما اخذاً بثأر اخيه وقومه . ويظهر هذا الشعور ايضاً في رثائه لحمل بن بدر ، اذ يعرب عن حزنه على نسيبه لولا ان حمل بن بدر بغى عليه حين اخذ الدية منه ، ثم قتل اخاه مالك بن زهير :

ولكن الفتى حمل بن بدر بغى والبغي مرتعه وخيم

ولم يطب المقام لبني عبس في ديارهم بعد مقتل حذيفة وحمل ، فتركوها

وراحوا يتنقلون من قبيلة الى اخرى ، والقبائل تعينهم مرة وتعين عليهم طوراً . وربما اصطلحوا مع انسبائهم فيرجعون الى ارضهم ، ثم تغلي الاحقاد في الصدور ، فيستأنفون القتال . وهكذا اورثهم سباق داحس والغبراء عداء طويلا ، وحروباً لا تنتهي الا لتعود . ومات قيس بن زهير بعيداً عن دياره ، مهاجراً الى عُمان . وقيل انه تنصّر قبل موته وكان قد ظهر الاسلام .

فمن خلال هذه الحروب الثلاث : يوم اللوى ، حرب البسوس ، حرب السباق ، تبدو لنا طرائق القتال واسبابه عند العرب ، وتتبين منزلة الشاعر الجاهلي ولاسيما الشاعر الفارس . فان عصبية القبيلة تقضي على كل فرد ان يدافع عن قبيلته بما في وسعه . فاتجهت مهمة الشاعر الى الفخر بقبيلته والاشادة بايامها وانتصاراتها ، والطعن على اعدائها . ويتسع عليه مجال الفخر والحماسة اذا كان من السادات والفرسان . وشعراء الجاهلية في الجملة كانوا اهل نجدة وغزوات وحروب . فجاء الشعر الحماسي اوسع الابواب الجاهلية واسماها نفساً ، يمثل اصدق تمثيل حياة البدو وتقاليدهم وعاداتهم . وسيتضح ذلك جلياً في الدراسات التي نخصها بطائفة من الشعراء الفرسان ، سواء كانوا من السادات والاشراف ، او كانوا من العبيد والصعاليك .

أمرتُهمُ أمري بمنعرَج اللِوى فلم يستبينوا الرُشد إلا ضُحى الغدِ
فلما عصَوني كنتُ منهم ، وقد أرى غَوايتهم ، وأنني غيرُ مُهتدِ
وهل أنا الا من غزيّة أن غَوت غَويتُ ، وان تَرشُدْ غزية ارشُد [1]
دعاني اخي ، والخيلُ بيني وبينه ، فلما دعاني لم يجدني بِقُعدُدِ [2]
أخي ارضعتني امُّه بلِبانها بثديَيْ صفاء بيننا لم يُجدَّد [3]
تنادوا ، فقالوا : اردت الخيلُ فارساً ، فقلت : اعبدُ الله ذلكمُ الرّدي
فجئت اليه والرماحُ تنوشُهُ كوقع الصياصي في النسيج المُمدَّد [4]
فطاعنتُ عنه الخيل حتى تبدَّدت وحتى علاني حالكُ اللونِ اسودي
فما رِمتُ حتى خرّقتني رماحُهم وغُودرت اكبو في القنا المتقصّدِ [5]
قتالَ امرىء واسى اخاه بنفسه ويعلمُ أن المرء غير مخلّدِ
فإن يكُ عبدُ الله خلّى مكانَه فما كان وقافاً ، ولا طائش اليدِ
كَميشُ الازار ، خارجٌ نصفُ ساقه بعيدٌ من الآفات ، طلاّعُ أنجدِ [6]
قليل التشكّي للمصيبات ، حافظٌ من اليوم اعقابَ الاحاديثِ في غدِ

١ غزية : قوم دريد.
٢ القعدد : الجبان .
٣ لم يجدد : لم يقطع فيذهب .
٤ الصياصي : جمع صيصة ، وهي شوكة يمرها الحائك على الثوب وقت نسجه .
٥ رمت : برحت مكاني . القنا المتقصد : الرماح المتكسرة .
٦ كميش الازار : اي يشمر للجد والنشاط حتى يبرز نصف ساقه . بعيد من الافات : سليم الاعضاء .

تراه خَميص البطنِ والزادُ حاضرٌ عتيدٌ، ويغدو في القميص المُقدَّدِ[٧]
وان مسّهُ الاقواء والجهدُ زاده سماحاً وإتلافاً لما كان في اليدِ
صبا ما صبا حتى علا الشيبُ رأسه فلما علاهُ، قال للباطل : ابعدِ
وطيّبَ نفسي أنني لم اقل له : كذَبتَ، ولم ابخل بما ملكت يدي

دريد بن الصِمة

حرب البسوس

ندب وتهديد

كليب لا خير في الدنيا ومن فيها اذ انت خلّيتها فيمن يخلّيها
نعى النعاةُ كليباً لي فقلت لهم مالت بنا الارض ام زالت رواسيها
ليت السماء على من تحتها هبطت وانشقّت الارضُ، فانجابت بمن فيها
القائد الخيلَ تردي في اعنتها زهواً اذا الخيل لُجّت في تعاديها
من خيل تغلبَ ما تُلقى اسنتها الا وقد خضّبتها من اعاديها
تُروَى الرماح بأيدينا فنوردها بيضاً ، ونصدرها حمراً اعاليها
لا اصلح الله منّا من يصالحكم ما لاحت الشمس في أعلى مجاريها

المهلهل

٧ خميص البطن : خاليه . عتيد : معد مهيأ .

يوم واردات ومقتل بجير

أَليلتَنا بذي حُسُم أنيري ... اذا انتِ انقضيتِ فلا تحوري[1]
فان يكُ بالذنائب طال ليلي ... فقد ابكي من اللّيل القصير
ولو نُبشَ القابر عن كليبٍ ... فيُخبرَ بالذنائب ايُّ زير
واني قد تركتُ بوارداتٍ ... بُجَيرًا في دمٍ مثل العبير
هتكت به بيوت بني عُباد ... وبعضُ الظلم أشفى للصدور
على ان ليس عدلاً من كليب ... اذا برزت مخبأة الخدور
فلولا الريحُ أسمعَ من بحجْرٍ ... صليلَ البَيض تُقرعُ بالذكور

المهلهل

رثاء بجير، تهديد تغلب

اصبحت وائل تعجُّ من الحرب ... عجيجَ الجمالِ بالاثقالِ
قد تجنبتُ وائلا كي يُفيقوا ... فأبت تغلبٌ عليَّ اعتزالي
واشابوا ذوائبي ببُجَيرٍ ... قتلوه ظلماً بغير قتال
قتلوه بشسعِ نعل كليب ... انّ قتل الكريم بالشسعِ غالِ
قرّبا مربط النعامةِ مني ... لقحت حرب وائلٍ عن حيالِ
قربا مربط النعامةِ مني ... لاعتناق الكماة يوم القتال
رب جيش لقيتُه يَمطُر الموتَ ... على هيكلٍ خفيف الجلالِ

الحارث بن عباد

[1] تحوري : ترجعي .

قطع الرجاء من السلم

كففنا عن بني هندٍ وقلنا القومُ اخوانُ
عسى الايام ان ترجع قوماً كالذي كانوا
فلما صرّح الشرّ فأضحى وهو عريانْ
ولم يبقَ سوى العدوا نِ دِنّاهم كما دانوا
وفي العدوانِ للعدوان توهينٌ وإقران
شددنا شدّة الليث غدا والليثُ غضبان
بضربٍ فيه تأييمٌ وإيتامُ وإرنانْ
وطعنٍ كفم الزقِ وهى والزقُ ملآن
وفي الشرّ نجاة حين لا ينجيكَ احسان

الفِند الزمّاني

حرب داحس والغبراء

رثاء مالك بن زهير

إني ارقتُ فلم اغمّضْ حارِ من سيءِ النبأ الجليلِ الساري
أفبعدَ مقتلِ مالكٍ بن زُهيرٍ ترجو النساءُ عواقِبَ الاطهار
ما إن ارى في قتله لذوي النُهى الا المطيَّ تُشدّ بالاكوار
من كان مسروراً بمقتل مالكٍ فليأتِ نسوتَنا بوجه نهار
يجدِ النساء حواسرًا يندبنه يلطِمن اوجههنّ بالأسحار

يضربن حرّ وجوههنّ على فتى عفّ الشمائل طيّبِ الاخبار

الربيع بن زياد العبسي

يوم المريقب

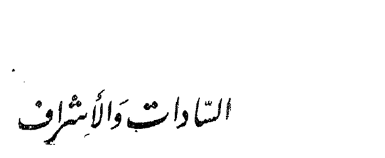
لما رأيتُ القوم أقبل جمعهم يتذامرون كررتُ غيرَ مذمّمِ
يدعون عنترَ والرماح كأنها أشطانُ بئرٍ في لَبانِ الادهم
ما زلتُ أرميهم بثغرة نحره ولَبانه حتى تسربل بالدم
فازورّ من وقع القنا فزجرته، فشكا اليّ بعبرةٍ وتحمحُم
لو كان يدري ما المحاورةُ اشتكى ولكان، لو علمَ الكلامَ، مكلّمي
ولقد شفى نفسي وأبرأ سقمَها قيلُ الفوارس: ويكَ عنترَ، أقدِم
والخيلُ تقتحم الخَبارَ عوابساً من بين شيظمةٍ واجردَ شيظمِ
ولقد خشيتُ بأن اموت ولم تدُر للحرب دائرةٌ على ابنَي ضمضمِ
الشاتمَي عرضي ولم اشتمهما، والناذِرَين، اذا لم ِالقهما، دمي
ان يفعلا فلقد تركتُ اباهما جَزَر السباعِ، وكُل نسرٍ قشعم

عنترة بن شداد العبسي

يوم جفر الهباءة

تَعَلّمْ أنّ خيرَ الناس ميتٌ على جفرِ الهباءة لا يَريمُ
ولولا ظلمُه ما زلت ابكي عليه الدهرَ ما طلَع النجومُ
ولكنّ الفتى حمَل بنَ بدر بغى والبغيُ مرتعهُ وخيمُ

قيس بن زهير العبسي


السادات والأشراف

عمرو بن كلثوم

احاطت به الاساطير قبل مولده وبعده ، وبشرت بقدومه الاحلام والهواتف في طفولة امه وفي حملها به ونوهت في السنة الاولى من عمره بسيادته المبكرة لبني قومه . وامه ليست من المغمورات في تاريخ العرب ، فكل ذي المام بايام الجاهلية لا بد له ان يعرف شيئاً عن حرب البسوس ، واخبار فارسها المهلهل بن ربيعة ، وانه يكنى ابا ليلى باسم ابنته . كذلك العامة التي تقرأ قصة الزير مترنمة بازجالها تظل تردد في كل قصيد : يقول الزير بو ليلى المهلهل . . . فليلى هذه هي ام عمرو بن كلثوم . ويقول الرواة ان المهلهل تزوج هنداً بنت بعج ابن عتبة ، فولدت له ليلى فلم يفرح بها ، ورغب في وأدها تخاصاً من عارها ، كما وأد كثير من العرب بناتهم . فقال لامرأته هند : اقتليها . فضنت بها ، ومالت الى انقاذها ، فامرت خادمة لها ان تغيبها عن انظار ابيها . ونام المهلهل تلك الليلة فاذا هاتف يهتف به :

كم من فتى مؤمَّلْ وسيِّدٍ شمَرْدَلْ
وعدَّة لا تُجهلْ في بطن بنت مُهلهلْ

ويظهر ان هذا الهاتف لا يحفل باقامة وزن الشعر وتجويد نظمه ، وانما يعنيه ان ينبه ويحذر من يأتيه بما يتفق له من رجز منظوم . فقد حذر المهلهل ونبهه ، فاستيقظ هذا مذعوراً ودعا اليه امرأته وقال لها : « يا هند اصدقيني اين ابنتي ؟ » قالت : « قتلتها . » قال : « كلا واله ربيعة ، فاصدقيني . »

فاخبرته حقيقة امرها . فقال : « احسني غذاءها ، ان لها لشأناً . » فلما كبرت ليلى تزوجها كلثوم بن مالك من سادات تغلب وفرسانها . فلما حملت بعمرو اتاها آت في المنام فقال :

يا لكِ ليلى من ولدْ ... يُقدم اقدام الاسدْ
من جُشَم فيه العدد ... اقولُ قيلًا لا فَنَدْ

فاستبشرت بولادته وبشرت به ذويها . فلما وضعته واتت عليه سنة ، زارها ذلك الهاتف ليلًا فاشار الى الصبي وقال :

اني زعيمٌ لك امّ عمرو ... بماجدٍ الجدّ كريمِ النجرِ
أشجعَ من ذي لبدٍ هِزَبر ... وقّاصِ آدابٍ شديدِ الاسر
يسودهم في خمسةٍ وعشر

وكان الامر كما سمعت ، فان عمراً ساد قومه وهو ابن خمسة عشر عاماً ، فخرق بذلك تقاليد العرب وآدابهم ، لانهم كانوا لا يقبلون سيادة الفتيان .

ومهما يكن من امر هذه الهواتف واراجيزها ، فان سيادة عمرو لبني تغلب وهو فتى لا يختلف فيها الرواة ، كما لا يختلفون في تصوير نفسه ابية متكبرة ، امتلأت عزة وفخراً فما تصبر على اقل ضيم يصيبها . تجابه الاخطار ، ولا تبالي ، ذوداً عن شرفها ، هذا الشرف الذي اكتنف عمراً من كل جانب فكان سيد بني تغلب ، وتغلب من اعظم قبائل العرب واكثرها عدداً واياماً ومناقب حتى قيل فيها : لو تأخر الاسلام لاكلت بنو تغلب الناس . وله من فرسانها وساداتها آباء واجداد نطق التاريخ بآتيهم وبطولتهم . وحسبه منهم ابوه كلثوم فارس تغلب وجده المهلهل فارس ربيعة وعمه كليب صاحب الحمى ، ملك ربيعة ومضر ، وقائدهم يومَ خزازى الى النصر والتحرر من سيطرة اليمن .

اجتمعت له هذه الاحساب التليدة ، واضاف اليها من طارفه امجاداً عالية

البنيان توازيها فما تنخفض عنها ، وان كانت لا تسمو عليها . وانحدر اليه الشعر من جده المهلهل بروحه وهيكله ، فاخرجه على طريقته فخراً وحماسة ، مندفع العاطفة حتى الغلو المتطرف ، قليلاً فيه عمل الخيال ، واقل منه عمل التفكير . ليس الا شعور يتدفق ، وحمية تشتعل ، ونفس تثور فتتخطى الحواجز والحدود مرتدية من الالفاظ ثوباً نسجته على هواها ، لم تمتد اليه يد صناع فتشدّ سداه ولحمته ، وتُحكم وشيه وتخطيطه . فخرج على طبيعته من حسن ورديء عصبي المزاج في تركيبه . تدافعت حروفه تدافع الامواج الجائشة ، فيها صخب ولين ، وعود وتكرار ، وتفكك واتصال . اكثره في الفخر ، واقله في الهجاء والمدح . افتخر ممتلىء النفس حماسة ، وهجا ثائراً منتقماً ، ومدح شاكراً لا متكسباً . وقد اثبتنا في صفحة الشعر امثلة من فخره وهجائه وتهديده . وضربنا صفحاً عن مدحه لانه ليس من موضوعنا في هذا البحث ، وانما موضوعنا ان نظهر تلك الشخصية البدوية في كبرها واعتدادها ، وفي تهورها وغليان شواعرها . فالفخر والهجاء عند ابن كلثوم يخرجان صورة جلية تبرز نفسية سيد عريق يستأثر بالفضائل الجاهلية ، ويتكلم بانا ونحن ، أنانياً بصيغة المفرد ، اميراً بصيغة الجمع . مناقبه غنية في ذاته ، ومناقب قومه مردودة اليه . يبذل المال ولا يبالي ، فاذا لامته العاذلة ، وحذرته من العوز ، اراها مهره يكر على الاحياء يغزو ويغنم :

يُخلفُ المالَ فلا تستيئسي كرّيَ المُهر على الحي الحِلال

والعاذلة في الشعر العربي شخص رمزي يقرع ابواب الفخر والمدح والغزل ، يلوم المفتخر والممدوح والعاشق ، على الاتلاف والتبذير ، وعلى التادي في الصبا والغواية ، فيرده الاول والثاني ، ويرده الثالث لا يقبلون منه نصحاً . وقد رد عمرو بن كلثوم عاذلته :

لا تلوميني فاني مُتلفٌ كل ما تحوي يميني وشمالي

وحقيق بمثله ان يردها ، فعنوان الكرم عندهم عذل وردّ . ونفسه الجبارة يطيب لها ان تتحدث بانا عن كرمها وبأسها ، كما تتحدث بنحن عن مفاخر قومها . وفي هذا وذاك لا تتحرج ان تغالي وتفرط في المغالاة :

ملأنا البر حتى ضاق عنا وظهر البحر نملؤه سفينا
لنا الدنيا ومن اضحى عليها ونبطش ، حين نبطش ، قادرينا
اذا بلغ الفطام لنا صبيٌّ تخرّ له الجبابر ساجدينا

فاذا ملأ البر والبحر بجيوشه واساطيله ، فلعل بني تغلب كانت تخرج الى الحرب بألف مقاتل ، ولعل لها بعض الزوارق في نهر الفرات .

وصاحبنا التغلبي لم يُعرف له شعر كثير كما عرف للمهلهل ، ولكن قيمته الادبية ، مع قلة نظمه ، أربت على قيمة جده ، فهو من شعراء الطبقة الاولى اصحاب المعلقات . ومعلقته من الشعر القبلي الخالص بما فيها من فخر واعتداد وتنديد بالخصم ، واشادة بمناقب العشيرة ، فاتيح لها منزلة قومية لم تتبوأها قصيدة سواها حتى قيل ان بني تغلب كانوا يعظمونها جداً ، ويرويها كبارهم وصغارهم . ولما كثر تردادها على ألسنتهم عيّرهم ذلك بعض بني بكر اعدائهم فقال :

ألهى بني تغلب عن كل مكرُمةٍ قصيدة قالها عمرو بن كلثوم
يروونها ابداً مذ كان اوّلهم يا للرجال لشعرٍ غير مسئوم

ومن عادة اهل البادية ان يهجو بعضهم بعضاً بكل شيء افرطوا في اتخاذه والعكوف عليه ، فليس بعجيب ان تُهجى تغلب لاقبالها على معلقة شاعرها ، وانما العجيب ألا تكثر من روايتها والتغني بقوافيها ، وقد حملت لها خلال ابياتها آيات المجد الاثيل تباهي بها اعداءها . واذا عرفنا عقلية القبائل البدوية وما هم عليه من التنافس المستمر يهون علينا ان نفهم لماذا أحرزت قصيدة ابن كلثوم

تلك المنزلة القومية عنـد بني تغلب ولاسيا انها قيلت يوم وقف التغلبيون واعـداؤهم بنو بكر يتقاضون لدى ملك الحيرة عمرو بن هند ليحكم بينهم ، فكان عمرو بن كلثوم في معلقته خطيباً محامياً ينافر الخصوم ويدافع عن بني قومه . ويوم التقاضي بين قبيلتي وائل ترجع اسبابه الى حرب البسوس وما اورثت العشيرتين من الاضغان على ما بينهما من القربى وآصرة الارحام ، حتى اصلح بينهما الملك المنذر والد عمرو بن هند . وملوك الحيرة يعطفون على قبائل ربيعة ويعنون باصلاح شؤونها لقرب منازلها من العراق ، فانهم اذا بسطوا نفوذهم عليها استفادوا منها في حروبهم وكيد اعدائهم . ولطالما كان البكريون والتغلبيون احلافاً لهم على الفرس والغساسنة . وحرص المنذر ان لا تعود القبيلتان الى القتال بعد الصلح فاخذ من كل حي منها مائة غلام رهينة ، ليثأر منهم للمعتدى عليه في حالة الاعتداء .

ولما صار الملك الى عمرو بن هند ترسّم خطة ابيه في الارتهان من العشيرتين . فاتفق ان بعث ذات يوم ركباً من تغلب وبكر الى جبلي اجأ وسلمى في بعض اموره ، فنزلوا في ارض لبني شيبان انسباء البكريين ، فعدا بنو بكر على التغلبيين فأجلوهم عن الماء ودفعوهم الى مفازة فتاهوا وماتوا عطشاً ، فثارت بنو تغلب حين جاء الخبر ، وطلبوا ديات ابنائهم من البكريين ، فأبوا اداءها ، فاحتكموا الى عمرو بن هند فقال لهم : « ما كنت لاحكم بينكم حتى تأتوني بسبعين رجلاً من اشراف بكر بن وائل فأجعلهم في وثاق عندي ، فان كان الحق لبني تغلب دفعتهم اليهـم ، وان لم يكن لهم حق خليت سبيلهم . » ففعلوا وتواعدوا ليوم بعينه يجتمعون فيه . فلما كان ذلك اليوم انتدبت تغلب للدفاع عنها شاعرها وسيدها عمرو بن كلثوم ، وانتدبت بكر احد اشرافهـا النعمان بن هرم ، وهو رجل اصم اصلع . وكان ملك الحيرة يميل الى انصاف

التغلبيين ، ويرى ان لهم الحق على بني بكر . فلما دخل النعمان تحرّش به عمرو بن كلثوم فقال : « يا اصم ، جاءت بك اولاد ثعلبة تناضل عنهم ، وهم يفخرون عليك . » قال : « وعلى من أظلّت السماء يفخرون . ثم لا يُنكر ذلك . » قال عمرو : « والله لو لطمتك لطمة لما اخذوا لك بها . » فقال النعمان : « والله لو فعلت ما افلتّ بها انت ومن فضّلك . » ويريد بمن فضّله عمرو بن هند ، وكان البكريون يشعرون بميل الملك الى التغلبيين . فغضب عمرو ابن هند من هذا التعريض ، فرمى النعمان بكلمة قارصة ، فرد عليه باشد منها لان البدوي لا يصبر على الاهانة ولا يرعى عندها حرمة سيد او امير . فتلظى الملك غيظاً ، وطرد النعمان من حضرته . فوقف حينذاك عمرو بن كلثوم وانشد معلقته منافراً بني بكر ، مبالغاً في الفخر ، مندفعاً مع العاطفة في التبجح على ملك العراق ، منددا به ، مهدداً اياه . فبدلا من ان يستغل عطف الملك على قومه ، فيكسب القضية عنده ، اثار حفيظته بتهوره ، فحكم هذا للبكريين بعد ان سمع قصيدة شاعرهم العاقل الحارث بن حلزة . فقد استطاع الحارث بدهائه ومرونته ان يستميله الى قبيلته ، ويصلح ما افسده نزق النعمان ابن هرم . وساعده على النجاح سفه ابن كلثوم وتطاوله الى مقام عمرو بن هند مذكراً اياه بعصيانهم على ملوك الحيرة :

ابا هندٍ فلا تعجَلْ علينا ... وأنظرنا نخبّرْك اليقينا
بانّا نورد الراياتِ بيضاً ... ونصدرهنّ حُمراً قد روينا
وايامٍ لنا غُرّ طوالٍ ... عصينا المَلك فيها ان ندينا

وفيها يقول :

حُديّا الناس كلهمُ جميعاً ... مقارعةً بنيهم عن بنينا
ألا لا يجهلنْ احدٌ علينا ... فنجهلَ فوق جهل الجاهلينا

وقد اثبتنا ابياتاً من المعلقة في صفحة الشعر ، يستدل منها انها لم تُقل يوم التقاضي وانما قيلت بعد مقتل عمرو بن هند . وعلى هذا تكون المعلقة قسمين نظما في زمانين وحالين مختلفين ، في حين ان الاصمعي يزعم انها قيلت يومَ التحكيم دفعة واحدة . ولا ينبغي ان نبحث هذا الموضوع قبل ان نذكر شيئاً عن مقتل صاحب الحيرة لنتبين القرائن التي تقدمها المعلقة تأييداً لاحد الامرين . روي ان عمرو بن هند قال يوماً لندمائه : « أتعلمون احداً من العرب تأنف امه من خدمة امي ؟ » فقالوا : « لا نعلمها الا ليلى ام عمرو بن كلثوم . » قال : « ولمَ ذلك ؟ » قالوا : « لان اباها مهلهل ربيعة ، وعمها كليب وائل أعزّ العرب ، وبعلها كلثوم بن عتّاب فارس العرب ، وابنها عمرو بن كلثوم سيد قومه . » فارسل عمرو بن هند الى عمرو بن كلثوم يدعوه الى زيارته ، ويدعو امه لزيارة امه . فاقبل عمرو من الجزيرة بين النهرين في جماعة من تغلب . واقبلت ليلى في ظعن من نساء تغلب . وامر عمرو بن هند بان يضرب له رواق بين الحيرة والفرات . وارسل الى وجوه مملكته فحضروا . ودخل عمرو بن كلثوم الرواق ، ودخلت أمه ليلى قُبّة هند ام الملك عمرو . وكان عمرو بن هند قد اوعز الى امه ان تنحّي الخدم وتستخدم ليلى اذا دعا بالطُرَف وهي ما يقدّم بعد الطعام من حلوى وفاكهة .. فلما جيء بالطرف خرج الخدم من القبة ، فقالت هند : « يا ليلى ، ناوليني ذلك الطبق . » قالت : « لتقم صاحبة الحاجة الى حاجتها . » فأعادت عليها ، فلما ألحّت صاحت ليلى : « وآذلاه ! يا لتغلب ! » فسمعها عمرو بن كلثوم تستغيث وتنادي بالذل ، تلك التي لم تعرف الضيم في بيت ابيها ، ولا عرفته في بيت زوجها ، أفتعرفه عند ولدها ، وهو الذي يصك بكبريائه منكب السماء ؟ فثار الدم في وجهه ، فقام الى سيف لعمرو بن هند معلق بالرواق ، وليس هناك سيف غيره

مما يدل ان الوفود دخلوا على الملك بغير سلاح ، فضرب به رأسه حتى قتله ، ونادى في بني تغلب ، فانتهبوا جميع ما في الرواق وساروا نحو الجزيرة .

ولنعد الان الى المعلقة لنرى ما فيها من القرائن التي تشير الى هذه الحادثة ، وتؤيد القول بانها نظمت في واقعتين . فاذا عرضنا بالنقد للقسم الذي قد يظن انه نظم بعد مقتل الملك ، لا نجد فيه الا بيتاً واحداً يمكن ان يستأنس به كدليل او شبه دليل ، وهو :

تُهددنا وتوعدنا رويداً ! متى كنّا لامّك مَقْتوينا

فقوله : « متى كنا لامك مقتوينا » اي خادمين ، لا يصعب علينا ان نجد له تفسيراً في قصة ليلى وهند ، فنطمئن الى القول بان المعلقة نظمت في مرحلتين . غير ان البيت الذي يتقدمه يدل على ان الشاعر يؤنب عمرو بن هند لانه ولى على بني تغلب اميراً من قبَله يحكم فيهم . والبدوي لا يرضى بسيادة الغريب الا مكرهاً ، فاذا سنحت له الفرصة وثب عليه فقتله وتخلص منه . فالشاعر يقول :

بأي مشيئةٍ عمرو بن هندٍ نكونُ لقَيلكمْ فيها قطينا

فبنو تغلب ، كما يتبين ، ساخطون على عمرو بن هند لامر لا علاقة له بحادثة الطرف . فقوله اذاً في البيت التالي : « متى كنا لامك مقتوينا » يقتضي ان لا يعني بحد ذاته حادثة خاصة ، وانما مفاده ان بني تغلب ليسوا بخدم للملوك او لامهاتهم ليستبد هؤلاء بهم ، ويولوا عليهم من يشاؤون . ولا نجد في بقية الابيات التي تتناول عمرو بن هند الا تبجح ابن كلثوم واعتداده بصلابة عوده وتمرده على كل من يريد ان يتحكم به او بقومه :

فان قناتنا يا عمرو أعيت على الاعداء قبلك ان تلينا

وليس في جميع ذلك ما ينافي قوله السابق : « نكون لقيلكم فيها قطينا » بل هو بالاحرى تأكيد له وتبليغ . ويصح ان تكون هذه الابيات قد قيلت يوم التقاضي ، واغضبت عمرو بن هند فحكم للبكريين ، كما قيلت الابيات التي قبلها وفيها ما يشبهها :

وايامٍ لنا غر طوالٍ عصينا الملك فيها ان ندينا

واذا تتبعنا المعلقة الى آخرها بعد الابيات التي يأتي فيها ذكر عمرو بن هند نرى انها متصلة كل الاتصال بيوم التقاضي . فيها مفاخرة بالقبيلة ومنافسة للبكريين ، كما تقتضي شروط المنافرة والتحكيم في العصر الجاهلي ، مما يؤيد ان المعلقة قيلت في واقعة واحدة لا في واقعتين . وهذا لا يعني اننا نحاول ان نلقي غشاء من الشك على حادثة الطُرَف ومقتل عمرو بن هند . فالرواة متفقون على اثباتها ، والشعر القديم نفسه صريح بتأييدها . فقد ذكرها افنون بن صريم احد شعراء بني تغلب مفتخراً :

لعمرك ما عمرو بن هند وقد دعا لتَخدم ليلى أمّه بموَفَّقِ
فقام ابن كلثوم الى السيف مُصلتاً ، فأمسك من ندمانه بالمُخنَّق
وجلّله عمرو على الرأس ضربةً بذي شُطبٍ صافي الحديدة رونَق

واشار اليها الفرزدق بقوله مادحاً بني تغلب :

قومٌ همُ قتلوا ابن هند عنوة عَمراً ، وهم قسطوا على النعمان

فمقتل ملك العراق لا يتناوله الشك لترجح ادلة الثبوت ، وانما يعترينا الشك في ان تكون المعلقة نظمت في حادثتين متباينتين استناداً الى بيت من الشعر يتهافت عنده اليقين .

ولم يكن مقتل عمرو بن هند بالشيء اليسير على بني تغلب ، فقد أسعرهم المنذر الرابع اخو الملك القتيل حرباً عواناً ، وما زال يرميهم بالواقعة تلو الواقعة ، ويغير عليهم برجاله واحلافه ، حتى اضطرهم الى الجلاء عن الجزيرة ، فطلبوا ارض الشام محتمين بجوار الغساسنة ، ولكن لم يطمئن لهم جانب فيها لما هم عليه من صلف وجفاء . قال ابن الاثير : خرج ملك غسان الحرث بن ابي شِمْر ، فمرّ ببني تغلب فلم يستقبلوه ، فاغتاظ وطلب سيدهم عمرو بن كلثوم فتوعده ، فأفضى الامر بينهم الى القتال فانهزم الغساسنة ، وقتل أخو الحرث في عدد كبير . فقال عمرو بن كلثوم :

هلاّ عطفتَ على اخيك اذا دعا بالثُكل ، ويلَ ابيك ، يابن ابي شِمْرْ

ولبث التغلبيون نازحين عن ديارهم حتى مات المنذر الرابع ، وقام بعده ولده النعمان ابو قابوس فرجعوا الى الجزيرة ، فأرسل اليهم النعمان جيشاً على رأسه ابنه المنذر ، فكسرهم بنو تغلب ، وقتل المنذر بن النعمان ، قتله مُرة اخو عمرو بن كلثوم . والى هذه الحادثة يشير الفرزدق بقوله : « وهم قسطوا على النعمان . » وكذلك الاخطل التغلبي يلمع اليها والى مقتل عمرو بن هند اذ يقول مفتخراً على قوم جرير :

أبني كليب ان عميّ اللذا قتلا الملوك ، وفككا الاغلالا

ثم ارسل النعمان الى عمرو بن كلثوم يتوعده ، فأخذ عمرو يهجوه ، ويعيره أمه سلمى وكانت بنت صائغ واخت صائغ . والبدو يحتقرون الصناعات ، ويزدرون اصحابها ، ولا يحمدون الرزق الا من السلب والغنائم . على اننا لا ندري كيف انتهى العداء بين ملك العراق وسيد تغلب ، لان المراجع التي بين ايدينا لا تذكر شيئاً عنه ، وانما نعلم ان كلا الاميرين عاتٍ متكبر لا يلين له عود . فعمرو بن كلثوم عنده جرأة كبيرة على الملوك لما اصاب من التوفيقٌ في قتالهم وتقتيلهم ، ووراءه قبيلة كثيرة الحصى ، تعودت مُباشرة الحروب ، فلا ينتظر منه ان يذل للنعمان . وصاحب الحيرة عظيم بملكته وكتيبته الشهباء ودوسر ، فلا يمكن ان يغضي على اذى ابن كلثوم فيكفّ عنه . ولعل الامر بقي على حاله بين لخم وتغلب الى ان قُتل النعمان بن المنذر سنة ٦٠٢ ، وانهار من بعده عرش المناذرة .

عمرو بن كلثوم

العاذلة والكرم

لا تلوميني فــاني مُتلفٌ كلّ مــا تحوي يميني وشمالي
لستُ إن اطرفتُ مالاً فرحًا واذا أتلفتــه لست أبالي
يُخلف المالَ ، فلا تستيئسي كرّي المُهرَ على الحيِّ الحِلال [1]

اعتداده على عمرو بن هند

بأيّ مشيئةٍ عمرو بن هنــدٍ تطيع بنا الوشــاة وتزدرينــا
بأي مشيئة عمرو بن هنــدٍ نكون لقيلكم فيها قطينــا [2]
تُهــددنا وتوعــدنا رويدًا ! متى كنّا لأمّك مَقتوينا ؟ [3]
فان قناتنا يا عمرو أعيَتْ على الاعداء قبلك ان تلينا
اذا عضّ الثقافُ بها اشمأزّت وولتهُ عشوزَنةً زَبونا [4]
عشوزنةً اذا انقلبت أرنّتْ تشجُّ قفــا المُثقّفِ والجبينا [5]
فهل حُدّثتَ في جُشَمَ بن بكرٍ بنقصٍ في خُطوبِ الاوّلينا ؟ [6]

هجاء النعمان

لحا اللهُ أدنانا الى اللؤم زلفــةً وألأمنا خالًا واعجزنا أبا [7]
وأجدرَنا ان ينفُخَ الكيرَ خالُه يصوغُ القروطَ والشُنوف بيثربا [8]

١ الحلال : النازلين في مكان .
٢ القيل : الملك التابع للملك الاعظم .
القطين : الخدم .
٣ مقتوين : خدام الملك .
٤ الثقاف : الحديدة التي تقوم بها الرماح .
عشوزنة : صلبة . زبون : اي تضرب الثقاف وتدفعه عنها .
٥ القفا : مؤخر الرأس . المثقف : الذي يقوم الرماح .
٦ جشم بن بكر : من بطون تغلب .
٧ زلفة : منزلة .
٨ الكير : ما ينفخ فيه الحداد والصائغ .
القروط : الحلق . الشنوف : نوع من القروط .

ربيعة بن مكدم

كان ربيعة بن مُكدّم فارس بني كنانة ، بل فارس العرب لا يُفضّل عليه احد في الجاهلية ، شهدت له الفرسان واعترفت بشجاعته واقدامه ، وأشادت بذكر فروسيته ولباقته على صهوات الخيل مع انه مات غلاماً حديث السن لم يفسح له في مجال العمر ، لكي تتعدد مواقعه ، وتظهر فيها سطوته على ابطال زمانه . فقد عاصر عنترة العبسي ، وعتيبة بن الحارث بن شهاب ، وسليك بن السلكة ، وعامر بن الطفيل ، وزيد الخيل ، ولكنه لم يلق واحداً منهم لنقيس بسالته على بسالتهم وهم فرسان العرب المشهورون ، غير انه لقي دريد بن الصمة ، فرأى دريد منه ما ادهشه . ولقي عمرو بن معدي كرب فأوفى عليه ، ولو شاء لقتله ، وعمرو معدود من الطبقة الاولى بين فرسان الجاهلية .

ويصف الرواة ربيعة فيقولون انه كان فتى جميل الصورة ، حلو الشمائل ، الا انه متهور في شجاعته واقدامه ، لا يحتاط لنفسه في المخاطر . ولعل ذلك راجع الى حداثته وقلة خبرته ، وغرور الصبي وكبريائه . وينقلون لنا شيئاً من شعره الحماسي ، واكثره اراجيز قصيرة مما يتغنى به البدوي عند نزوله للقتال ، وليس فيه ما يستحق ان يسمى شعراً . ولم نجد له من القصيد الا ابياتاً عادية قالها في يوم الاخرم ، لا تجعل من صاحبها شاعراً محسناً . فربيعة فارس يتقدم الفرسان او يجاريهم ابطالا ، ويتأخر عنهم ولا يجاريهم شعراء .

ويطلق الرواة على ربيعة لقب حامي الظعينة ، وهي المرأة التي ترحل في

هودجها . ومن مفاخر فرسان العرب حماية النساء ، ودفع الغزاة عنهن ، لان المرأة في البادية متعرضة ابداً للسبي والعـار ، سواء كانت مقيمة في الحي او ظاعنة في القفر . والخطر على الظعائن اشد منه على المتخلفات في الاحياء ، لان لصوص العرب وغزاتهم يترصدون الركبان حتى اذا انفردوا بظعينة قلّ حراسها وضعف حاميها ، انقضوا عليهم فبددوهم عنهـا ، ويستاقونها غنيمة . والفارس العربي يتباهى ببطولته حين يقول انه يسير بظعينته منفرداً بالقفار لا يخشى ان يغلبه عليها احد ، كما تبـاهى عمرو بن معدي كـرب ، وان يكن استثنى اربعة يحذرهم وهم : عتيبة بن الحارث ، وعامر بن الطفيل ، وعنترة بن شداد ، وسليك بن السلكة . وكان ربيعة من اولئك الفرسان الذين يعتدّون بانفسهم ، ينفردون بظعينتهم لا يبالون شذاذ الطرق وسلاّبها ، ولا يخشون فارساً مغيراً يغلبهم عليها . وكل ما جاءنا من الاخبار عن اقدامه ونجدته يختص بحماية النساء والظعائن حتى انه حماهن حياً وميتاً . فقد حماهن حياً من دريد بن الصمة وعمرو ابن معدي كرب ، وحماهن حياً وميتاً من نُبيشة بن حبيب وقومه بني سُليم . حدثنا ابو عبيدة قال : خرج دريد بن الصمة في فوارس بني جُشم يريد الغارة على بني كنانة ، فلما انتهى الى وادي الاخرم بالقرب من ديار القوم ، لاح له من جانب الوادي شخص ومعه ظعينة ، فقال لفارس من اصحابه : « سِر اليه وصح به : خلّ عن الظعينة وانج بنفسك . » فساق الفارس جواده حتى بلغ الظعينة وصاحبها ، فاذا هو غلام لا يزال يرخي ذوائبه على مؤخر رأسه . فاستهان به ، والحّ عليه ان ينجو بنفسه ويترك الظعينة . فأبى مستكبراً ، وقال له : « هيهات ما انت فيه . » ثم القى زمام الراحلة وقال للظعينة :

سيري على رِسلك سيرَ الآمنِ ... سيرَ رَداحٍ ذات جأشٍ ساكنِ
ان انثنائي دونَ قرني شائني ، ... أبلي بلائي ، فاخبُري وعايني

وحمل على الفارس فطعنه برمحه فارداه ، واخذ فرسه فدفعه الى الظعينة . فلما استبطأ دريد صاحبه بعث فارساً آخر يكشف له الخبر ، فانطلق حتى انتهى الى رفيقه فوجده صريعاً ورأى الفتى يقود الراحلة فصاح به فلم يرد عليه ، فظن انه لم يسمع ، فاقتحمه بفرسه . فالقى الفتى زمام الراحلة الى الظعينة ثم حمل على الفارس فصرعه وهو يقول :

خلِّ سبيلِ الحرّة المنيعه انكَ لاقٍ دونها ربيعه
في كفه خَطّيّةٌ مُطيعه او لا فخذها طعنة سريعه
فالطعنُ مني في الوغى شريعه

واستبطأ دريد صاحبه الثاني فبعث فارساً آخر لينظر ما صنعا . فلحق برفيقيه فألفاهما صريعين . ونظر الى ربيعة فرآه يقود ظعينته متمهلاً ويجر رمحه . فصاح به : « خل عن الظعينة ! » فقال لها ربيعة : « اقصدي قصد البيوت . » ثم اقبل على الفارس وهو يقول :

ماذا تريد من شَتيمٍ عابسِ ألم ترَ الفارس بعد الفارسِ
أرداهما عاملُ رمحٍ يابسِ

ثم طعنه فصرعه فانكسر رمحه . واستبطأ دريد اصحابه فداخلته الريبة ، وظن انهم اخذوا الظعينة وقتلوا الرجل . فلحق بهم فوجد ربيعة لا رمح معه ، وقد دنا من الحي ، ووجد اصحابه مقتولين . فقال له : « ايها الفارس ان مثلك لا يُقتل . وان الخيل ثائرة ورائي بفرسانها ولا ارى معك رمحاً . واراك حديث السن ، فدونك هذا الرمح ، فاني راجع الى اصحابي فمثبطهم عنك . » وناوله رمحه ، ورجع الى قومه فقال لهم : « ان فارس الظعينة قد حماها ، وقتل فوارسكم ، وانتزع رمحي ، ولا طمع لكم فيه . » فانصرف القوم . وانصرف دريد وهو يقول :

ما ان رأيت ولا سمعت بمثله حامي الظعينة فارساً لم يُقتل
أردى فوارس لم يكونوا نُهزة ثم استمرّ كأنه لم يفعل
متهللًا تبدو أسرّة وجهه مثل الحُسام جلاّه ايدي الصيّقل
يُزجي ظعينته ويسحب رمحه متوجهاً يُمناه نحو المنزل

وفي يوم الاخرم يقول ربيعة قصيدته التي وصلت الينا وهي مثبتة في مكان آخر ومطلعها :

ان كان ينفعك اليقينُ فسائلي عني الظعينة يوم وادي الاخرم

وليس خبره مع دريد باعجب من خبره مع عمرو بن معدي كرب ، فقد روى صاحب الاغاني وابو علي القالي ان عمر بن الخطاب قال لعمرو بن معدي كرب: « من اشجع من رأيت ؟ » قال : « خرجت في بعض غزواتي فأصبحت بين رمال متعاقدة ، وفيها ابيات مرفوعة ، فعدلت اليها ، فاذا انا بجوارٍ ثلاث كأنهن نجوم الثريا ، فبكين حين رأينني . فقلت : « ما يبكيكن ؟ » قلن : « لما ابتُلينا به منك . وأخت لنا وراء هذا الكثيب اجمل منا ، تموت هناك ضياعاً بعدنا . » فتركتهن وسرت في طلب الجارية الرابعة طمعاً في اخذهن جميعاً حتى اشرفت من مكان مرتفع ، فاذا غلام لم أرَ قط احسنَ من وجهه له ذؤابة يسحبها ، وهو يخصف نعله (اي يخرزها ويرقعها) . فلما نظر اليّ وثب على فرسه مبادراً فسبقني الى الابيات ، فوجد الجواري خائفات فسمعته يقول لهن :

مهلًا نُسيّاتي فلا تَرتعنْ ان تُمنع اليوم نساءٌ تُمنعنْ

فلما دنوت منه قال : « اتطردني ام اطردك ؟ » قلت : « بل اطردك . » فركض وركضت في اثره حتى اذا مكنت سنان الرمح من لفتته (اسفل الكتف) اتكأت عليه ، فاذا هو والله ينقلب على صدر جواده فتذهب الطعنة

خائبة . ثم استوى في سرجه ، فعدت الى طرده وهو يركض امامي حتى اذا مكنت السنان من متنه شددت عليه وانا اظن اني قد فرغت منه فمال عن سرجه حتى خالط الارض ، ومضى السنان زالجاً في الهواء . ثم استوى على فرسه ، فطردته ثالثة ، ومكنت الرمح بين ذوائبه ، فاذا هو والله قائم على الارض والسنان يسبح في الخلاء . فلما استوى على فرسه قال لي : « أبعد ثلاث تريد ماذا ؟ ثكلتك امك ! » فوليت عنه وانا مرعوب ، فلحقني حتى غشيني ، وأحسست مس الرمح في بدني ، فالتفت اليه فاذا هو يطردني بالرمح دون سنان . ثم كف عني واستنزلني فنزلت عن جوادي ، فجز ناصيتي وقال : « انطلق فاني أنفس بك عن القتل . » فكان ذلك عندي يا امير المؤمنين اشد من الموت . وسألت عنه فقيل هو ربيعة بن مكدم . فذلك والله اشجع من رأيت . »

ومهما يكن في اخبار ربيعة من اصطناع الرواة وعمل الخيال فانها تتفق كلها ، على اختلاف مساندها ، في اظهار هذا الفارس حديث السن ، جميل الوجه ، خفيف الحركات ، مدافعاً عن النساء ، فتخلق منه شخصاً فريداً في بطولته المبكرة بين فرسان الجاهلية ، وتحيطه بهالة من الحب والاعجاب لاجتماع الشجاعة والحداثة والجمال فيه . حتى ان واضع قصة عنترة ابى الا ان تكون مواقع ربيعة مع فارس بني عبس لانه آلى على نفسه ان لا يدع فارساً في الجاهلية الا جعله يبارز عنترة ويستخذي لسيفه وسنانه سواء كان معاصراً له او لم يكن . فضن بربيعة ان يلقى دريداً وعمرو بن معدي كرب ولا يلقى الاسود العبسي . فجمعهما في قصته بطلين لا يقهر الواحد منهما الآخر ، واظهر ربيعة لعنترة ما اظهره لابي ثور من الخفة على ظهر الجواد في الانقلاب والميل والوثوب حتى ادهش ابا الفوارس وكاد ييأس من الغلبة ، ويتشاءم على نفسه ، لولا ان

واضع القصة وجد للقضية حلاً معقولا استوحاه من انكسار رمح ربيعة يوم الاخرم ، واعطاء دريد له رمحه . فهو معجب بالفتى الكناني لا يريد ان يخذله ، ومتعصب لبطله العبسي لا يسمح لفارس ان ينتصر عليه . فجعل ربيعة يضرب عنترة بسيفه ضربة هائلة فيلقاها ابو الفوارس بترسه المتين فينكسر السيف ويقف ربيعة حائراً لا يدري ما يصنع . ولكن فارس بني عبس شهم كريم يأنف ان يغدر بخصمه الاعزل ، فيناوله سيفاً كان بجنبه ليدافع به عن نفسه . ولم يكن ربيعة دون عنترة شهامة وكرماً ، فأبى ان يحاربه بسلاحه ، فأخذ السيف ووضعه على فمه فقبّله ثم ارجعه اليه . وانتهى القتال بين البطلين الى الصلح والمصادقة .

واعجب شيء في اخبار ربيعة مقتله وحمايته ، وهو مائت ، لنسائه . ميتة ترتفع بها الفروسية الى اسمى معانيها ، وتظهر البطولة في اكمل تصاويرها . فليس بمستغرب ان تثير الغيرة في نفس صاحب عنترة ، وهو حريص على ان يضيف الى بطله كل خارق وعجيب ، فينسبها اليه غير متأثم ويجعله يحمي عبلة في موته كما حماها في حياته ، ناقلاً اليه الحالة التي مات عليها ربيعة ممتطياً جواده ، معتمداً عامل رمحه . مع انها ليست من الميتات المألوفة في اخبار الجاهلية ، فالرواة لا يذكرون لها شبهاً في احاديثهم ، وانما هم يخصونها بالفتى الكناني الصغير . قال ابو عمرو بن العلاء : « لا نعلم قتيلا ولا ميتاً حمى الاظعان غيره . وانه يومئذ لغلام له ذؤابة . » ويروي لنا ابو عمرو وابو عبيدة خبر مقتله الفاجع ، وعنهما ينقله صاحب الاغاني وسواه من المؤرخين . قيل ان نزاعاً وقع بين نفر من بني سُليم ونفر من بني كنانة ، فقتلت بنو كنانة رجلين من بني سُليم ، ثم أعطت ديتهما ، فارتضى اهلهما وكفّ النزاع . ومضى زمن والسُلميون لا يفكرون في اخذ الثأر ، حتى خرج يوماً نُبيشة بن حبيب غازياً في جماعة من

قومه فلقي ظعائن من بني كنانة في موضع يقال له الكديد ، ومعهن جماعة من الفرسان فيهم ربيعة بن مكدم ، وهو يومئذ مريض يُحمل في محفّة . فقال الحارث اخوه : « هؤلاء بنو سُليم يطلبون دماءهم . » فلما سمع الفتى المريض كلام اخيه ، عزّ عليه ان يتقاعد يوماً عن حماية نسائه ، فتحامل يغالب الضعف ، ونزل من المحفة فامتطى جواده ، وقال : « انا اذهب حتى اعلم علم القوم فآتيكم بخبرهم . » وتوجه نحوهم . فقال بعض الظُعن : « هرب ربيعة . » فعطف الى النساء وقد سمع قولهن وأنشد :

لقد علمنَ انني غير فَرِقْ لاطعننّ طعنةً واعتنقْ
أصبحهم صاح بمُحمرّ الحدَقْ عضباً حساما ، وسناناً يأتلقْ

ثم انطلق يعدو به جواده ، فحمل عليه فارس من بني سليم ، فاستطرد له ربيعة في طريق الظعن حتى انفرد به ثم عطف عليه ، فشكه بالرمح فأرداه . فلحق به فارسهم نبيشة حتى داناه فرماه بسهم نفذ في عضده ، فارتد الى الظعن حتى انتهى الى أمه فقال : اجعلي على يدي عصابة ، وهو يرتجز :

شدي عليّ العصْبُ أمّ سيّارْ فقد رُزئت فارساً كالدينار

فقالت أمه :

انّا بنو ثعلبةَ بن مالكِ مُرزّؤو خيارنا كذلكِ
من بين مقتول وبين هالكِ

وشدت عليه عصابة ، فاستسقاها ماء ، فقالت : « اذهب فقاتل القوم فان الماء لا يفوتك . وان شربت الان متّ . » فرجع وكرّ على القوم يطعن فيهم ودمه ينزف حتى كشفهم وردّهم عن الظعائن . ولم ينجده احد من اصحابه ، بل احجموا كلهم تاركين همهم على عاتقه ، ثم عاد الى الظعن وقد احس الضعف وانحطاط القوى لاجتماع النزف والمرض عليه . فأيقن انه هالك فقال لهن :

« اسرعن الى ادنى بيوت الحي ولا تتباطأن فاني سأقف دونكن لهم على العقبة ، فاتكىء على رمحي فان فاضت روحي كان الرمح عمادي ، وهم لا يجرؤون ، ما دمت واقفاً مكاني ، على اللحاق بكن لان هيبتي وقعت في نفوسهم. فالنجاء النجاء ! فاني اردّ بذلك وجوه القوم عنكن ساعة من النهار . » فحثّت النساء رواحلهن الى الحي ، فقطعن العقبة ، وبلغن ديار بني كنانة آمنات . وهرب الرجال في اثرهن ، وربيعة واقف ازاء الاعداء على جواده ، معتمد على رمحه ، يسيل الدم من جرحه ، حتى لفظ آخر نفس من حياته وبنو سُليم واقفون ازاءه متهيبين لا يجرؤون على الدنو منه . فلما طال ذلك منه ومنهم قال نُبيشة : « انه لمائل العنق وما اظنه الا قد مات . » ثم وتر قوسه ورمى فرسه بنبلة ، فقمص الجواد رافعاً يديه ، فخر ربيعة على وجهه . فتبادرت الفرسان وراء الظعن ، فلم يدركوهن ، وانما ادركوا أخاه الحارث فقتلوه . ثم عادوا الى ربيعة فاهالوا الحجارة على جثته ، وتركوا قبره في تلك البقعة رمزاً للفتوة ، يمر به الفرسان خاشعين ، يحيّون حامي الظعينة حياً وميتاً . قال محمد بن سلاّم : مر بقبره عمرو بن شقيق من بني فِهر بن مالك ، فنفرت ناقته من الحجارة التي اهيلت على جثته ، فقال يرثيه ، ويعتذر ألا يكون عقر ناقته على قبره . وحضّ بني كنانة على الاخذ بثأره ، وعيّر قومه الذين فروا عنه وأسلموه بعدما نجّاهم من بني سُليم :

نفرتَ قلوصي من حجارةِ حرّةٍ ... بنيت على طلق اليدين وهوب

لا تنفري يا ناقُ منه فانه ... سبّاءُ خمرٍ ، مسعر لحروبِ

لولا السِفارُ ، وبُعدُ خرقٍ مهمهٍ ... لتركتُها تحبو على العُرقوب

فرّ الفوارسُ عن ربيعةَ بعدما ... نجّاهمُ من غمرة المكروب

لا يبعدَنّ ربيعةُ بن مكدّم ... وسقى الغوادي قبرهُ بذَنوب

ربيعة بن مكدم

حامي الظعينـة

إن كان ينفعكِ اليقينُ فسائلي — عني الظَعينة يوم وادي الاخرَمِ [1]

إذ هي لأول من اتاها نُهبةٌ — لولا طعانُ ربيعةَ بن مُكدَّم

اذ قال لي ادنى الفوارس ميتةً : — خلِّ الظعينة طائعًا ، لا تندمِ

فصرفتُ راحلةَ الظعينة نحوه — عمدًا ليعلم بعض ما لم يَعلمِ [2]

وهتكتُ بالرمحِ الطويلِ إهابه — فهوى صريعاً لليدينِ وللفمِ [3]

ومنحتُ آخرَ بعدهُ جيّاشةً — نجلاءُ ، فاغرة كشدق الاضجمِ [4]

ولقد شَفعتُهما بآخر ثالثٍ — وأبى الفرارَ لي الغداةَ تكرُّمي

---

١ الظعينة : المرأة في الهودج .
الاخرم : اسم جبل بالبادية .

٢ الراحلة : الناقة او البعير يحط عليه الرحل للسفر .

٣ اهابه : جلده .

٤ جياشة : طعنة يغلي دمها في تدفقه .
نجلاء : واسعة . فاغرة : منفتحة .
الشدق : جانب الفم .
الاضجم : المعوج الفم ، ويشبه الجرح الواسع بالفم الاضجم .

الحارث بن ظالم المُرّي

أفتك من الحارث بن ظالم . مثلٌ من امثال العرب يُضرب لمن عُرف بالجرأة والاقدام على سفك الدماء ، لا يبالي على اي حاليه وقع الامر . يلقي نفسه في المهالك اذا بدت له خطة يريد تحقيقها . يقترف افظع الجرائم وانكرها اذا هاجت ثورة الانتقام في نفسه . يستحل الغدر والخيانة ، ليحامي عن جاره او يمحو اهانة لحقت به . كان الحارث بن ظالم من الفرسان المعدودين في الجاهلية ، ولكنه كالذئب في غدره لا يُؤمن جانبه ولا يُغفل عنه . وكان من اوفى العرب لجاره ، وقد طالما عرّض نفسه للمخاطر ليرفع الضيم عن جيرانه . فاذا هو مثال الوفاء على جماله ، كما كان مثال الغدر على قبحه ، فاجتمع النقيضان في ذاتية هذا البدوي العجيب .

كان الحارث يقدس جواره كما يقدسه كل بدوي شريف . فأقل اساءة تنال جيرانه يعدها عاراً عليه ، لا تغسله الا الدماء . وتأبى عنجهيته في جبروتها ان يصبر على حيف ألمّ به ، فتدفعه وتحثه على الانتقام السريع كيفما دار الامر . يتحدى الاخطار اذا احدقت به ، ويتجاوز العقبات مهما اعترضت طريقه ، ليفتك بالمسيء . فقد يغتاله غدراً ان لم يُتح له سوى الغدر ، ولا يرى مذمة في غدره . وقد ينبهه ليدافع عن نفسه اذا امكنه التنبيه ، ولم يحل دونه حائل .

والحارث شاعر يجيد الفخر والحماسة والهجاء ، الا ان شعره ما وصل الينا

منه غير القليل . والقصيدة التي تقرأها في ذيل هذا البحث يهدد بها الملك النعمان ، ويهجوه ويفتخر عليه . وتتلوها قصيدة اخرى ينتسب بها الى بني قريش مادحاً اياهم ، ناكراً قومه بني غطفان لانهم خذلوه فلم ينجدوه عندما طلبه ملك العراق . وكان الحارث قد آذى النعمان ابا قابوس مرتين . في الاولى اعتدى على جاره خالد بن جعفر ، وفي الثانية فجعه بابنه شرحبيل . وقد اندفع في كلتا المرتين بثورة نفسه المتكبرة التي لا تبيت على ضيم .

وسبب ذلك ان خالد بن جعفر كان قد فتك بزهير بن جذيمة سيد بني عبس وغطفان وهرب الى الحيرة مستجيراً بالملك النعمان واخيه الاسود ، فاتفق ان وفد الحارث بن ظالم على النعمان وخالد ينادمه ، وبين ايديهما تمر يأكلان منه . فقال النعمان : « أُدنُ يا حارث فكُل . » فدنا ، فقال خالد : « من ذا أبيت اللعن ؟ » قال : « هذا سيد قومه وفارسهم الحارث بن ظالم . » قال خالد : « ان لي عنده يداً . » قال الحارث : « وما تلك اليد ؟ » قال : « قتلت سيد قومك فتركتك سيدهم بعده . » يعني زهير بن جذيمة . قال الحارث : « أما اني سأجزيك بتلك اليد . » وجعل يتناول التمر ، فيتساقط من اصابعه لارتعاد يده من الغضب . فقال له خالد : « ايّتهن تريد فأناولك ؟ » قال الحارث : « أيتهن تهمك فأدعها ؟ » ثم نهض من مكانه وخرج . فقال النعمان لخالد : « ما اردتَ بهذا وقد عرفت فتكه وسفهه ؟ » فقال : « ابيتَ اللعن وما يُتخوف عليّ منه ؟ فوالله لو وجدني نائماً ما ايقظني . » وانصرف خالد من عند النعمان بعد هدأة من الليل ، فدخل قبة له ومعه عروة الرحّال . فلما نامت العيون خرج الحارث منسلاً الى قبة خالد فشقها ودخل عليه ، فاستيقظ عروة الرحال ، فأمنه الحارث على ان لا يتكلم . ثم دنا من خالد فأيقظه ، فلما استيقظ قال له : أتعرفني ؟ قال : « انت الحارث . »

قال : « خذ جزاء يدك عنـدي . » وضربه بسيفه فقتله ، وخرج ينطلق في البيداء مبتعداً عن الحيرة . فقام عروة الى النعمان فبث اليه الخبر ، فأرسـل الفرسان في اثره فلم يدركوه . فجعل يطلبه في كل مكان ليقتله بجاره . وبنو هوازن تطلبه من جهة اخرى لتأخذ بثأر سيدها خالد . والحـارث يتنقل في القبائل محتمياً مستجيراً لا يستقر به مكان ، فحيناً في بني كندة وحيناً في بني عجل ، حتى انتهى الى جبـلي اجأ وسلمى فنزل جاراً على بني طي ، فأجاروه ، فقال في ذلك :

لعمري لقد حلّت بي اليوم ناقتي على ناصرٍ من طيّءٍ غير خـاذلِ
فـأصبحت جـاراً للمجرّة فيهمُ على باذخٍ يعـلو يدَ المتطـاولِ
اذا أجَأٌ لفّت عـليّ شعابُهـا وسلمى ، فأنّى انتم من تنـاوُلي

فمكث عندهم حيناً . ثم ان الاسود بن المنذر ، لما اعجزه امره ، ارسل الى جارات له فاستاقهن مع الاولاد والاموال ليغيظ الحارث ويستفزه لما يعلم من شدة حفاظه على الجوار . فلما بلغ الحارث الخبر خرج من الجبلين متخفياً يندس في الناس حتى علم مكان جاراته ومرعى ابلهن ، فاستنقذهن واستـاق الابل امامه ، وعاد بالنساء والصبية والاموال ، فألحق كل جارة بقومهـا لئلا يعتدى عليها ثانية بسببه .

ولكنه لم يقتنع بانقاذ جاراته ، ونفسه المتكبرة لا يرضيها غير الانتقام ممن اهانها وآذاها . فجاء قومه بني مرة ، وكان النعمان بن المنذر ، وقيل بل اخوه الاسود ، قد استرضع ابنه شُرَحبيل عنـد سلمى امرأة سنان بن ابي حارثة المرّي ، وهي اخت الحارث على رواية بعضهم ، وكانت لا تأمن على ابن الملك احداً . فاستعار الحارث من سنان سرجه وهو في ناحية الشربّة ، ديار بني عبس ، فاعاره اياه ، ولم يعلم من امره شيئاً . فاتى الحارث به الى سلمى

وقال : « يا اختاه ، يقول لك بعلك ان تسلميني شرحبيل لاذهب به الى الملك مستأمناً عساه يعطف عليّ ، فاني لا اجد من يجيرني منه . وقد اعطاني سرجه آية لك . فقامت سلمى الى الغلام ، واثقة باخيها ، فالبسته ثيابه وزيّنته ، ودفعته اليه . فلما اخذه رماه في الهواء ، وتلقاه بسيفه ذي الحيات فقطعه شقين ، وفرّ هارباً ، مشتفي النفس يخاطب النعمان بقوله :

حسبتَ ابا قابوس انك سالمٌ ولمّا تُصب ذلا ، وانفك راغمُ
فان تكُ اذوادٌ أُصبن وصبية فهذا ابن سلمى رأسه متفاقمُ
علوتُ بذي الحيات مفرقَ رأسه وهل يركب المكروه الا الاكارم ؟

ثم ان الحارث اقبل يطلب مجيراً ، فلم يجره احد وقالوا : « من يجيرك على النعمان ، وقد قتلت ولده ؟ » فاخذ يتردد في القبائل وقد نبت به الارض حتى نزل في بني دارم ، فاستجار بمعبد بن زُرارة فاجاره على كره من قومه .

ولما بلغ النعمان مقتل ابنه شرحبيل غزا بني ذبيان ، وقيل غزاهم الملك الاسود فقتل وسبى ، واخذ الاموال ، ونكل ببني مرة رهط الحارث وسلمى اشد تنكيل . ولم يرجع عنهم حتى حمل اليه سيار بن عمرو الفزاري الف ناقة دية شرحبيل ، وهي دية الملوك .

وبلغ الاحوص بن جعفر اخا خالد مكان الحارث بن ظالم عند معبد بن زرارة ، فأغار ببني عامر على بني دارم ، فالتقوا في موضع يقال له رحرحان ، فاعتركوا مدة ثم انهزمت بنو دارم واسر معبد بن زرارة . وفر الحارث بن ظالم الى مكة ملتحقاً بقريش زاعماً ان نسبته فيهم لقول بعضهم ان مرة بن عوف بن ذبيان جد الحارث انما هو مُرّة بن عوف بن لؤي بن غالب القرشي . ونظم قصيدة ينكر فيها نسبه في فزارة وذبيان ، ويمدح قومه بني قريش مفاخراً بهم . غير ان قريشاً تشاءمت بهذه القرابة فدفعته عنها ولم تقبله ، فخرج

غاضباً يقول :

ألا لستمْ منّا ، ولا نحن منكمُ   برئنا اليكم من لُؤيّ بن غالبِ

والغريب في امر هذا الفارس الفاتك انه مع اضطرابه وتنقله في طلب الحماية والجوار ، لم يكن يتأخر عن القاء نفسه في تهلكة جديدة اذا نالته أذية من شخص ، ولو اذية كلام منقول ، فما يستطيع صبراً على الاذى ، مهما تكن نتيجة الامر . فقد جاءه ان عمرو بن الاطنابة من سادات الخزرج في يثرب يهدده ويقول فيه سوءاً . وكان عمرو صديقاً لخالد بن جعفر ، فلما بلغه مقتله قال : « لو وجده يقظان ما اقدم عليه ، ولوددت اني لقيته . » فارسل اليه الحارث يتوعده فقال عمرو :

ابلغا الحارث بن ظالمٍ الرعديدَ   والنـاذر النـذورَ عليّـا

انما تقتلُ النيـام ولا تقتلُ   يقظانَ ، ذا سلاحٍ كميّـا

فلما بلغ الحارث شعره جاء يثرب ليلاً ، وسأل عن منزل ابن الاطنابة فدُل عليه . وكان عمرو لا يدعوه احد بليل الا اجابه دون ان يسأله عن اسمه . فهتف به الحارث داعياً فخرج اليه . فلما دنا منه نادى : « اغثني يا ابن الاطنابة ، انا رجل غريب عرض لي قوم بقربك فأخذوا مالي ، فاركب معي حتى نستنقذه . » فلبس عمرو سلاحه وركب جواده . فلما ابعدا عطف عليه الحارث وقال : « أنائم انت ام يقظان ؟ » فقال : « يقظان . » قال : « انا ابو ليلى (كنية الحارث) فخذ حذرك يا عمرو ! » فأجفل عمرو وخاف على نفسه منه ، ثم القى رمحه من يده ، وقال : « قد اعجلتني ، فأمهلني حتى آخذ رمحي . » فقال : « خذه . » قال : « أخاف ان تقتلني قبل ان اتناوله . » قال : « لك مني ذمة ظالم لا اعجلك حتى تأخذه . » قال : « فوذمة الاطنابة لا آخذه ما لم تذهب . » فاسقط في يد الحارث ولم يبق له مناص بعد ان

اعطاه ذمة ابيه ، فجز ناصيته ، وانصرف وهو يقول :

بلغتني مقالة المرء عمروٍ بلغتني ، وكان ذاك بديّا
فخرجنا لموعد فالتقينا فوجدناه ذا سلاح كميّا
غير ما نائم يروّع بالليل ولكن مقلداً مشرفيّا
فمننا عليه بعد اقتدارٍ بوفاء ، وكنتُ قدماً وفيّا

وفى الحارث بذمته ، ولم يغدر بخصمه لان الشرف يأبى عليه الغدر في هذه الحالة ، وهو ضنين بشرفه حريص على ذمته ، فكما انه يفتك وينتقم لادنى اهانة تلحق به ، فكذلك يفي ويبر لادنى ذمة تربطه بغيره . فقد مر رجل يقال له عياض بن ديهث برعيان الحارث وهم يسقون الابل ، فأراد ان يسقي ابله ، فقصر حبله عن بلوغ الماء في البئر ، فوصله بحبل للحارث ، واروى نياقه . وفيما هو منصرف أغير عليه ، فأخذت الابل منه ، فرجع الى بني مرة وصاح : « يا حار يا جاراه ! » فقال له الحارث : « ومتى كنت جارك ؟ » قال : « وصلت حبلي بحبلك فسقيت ابلي ، فأغير عليها واخذت مني وذلك الماء في بطونها . » قال : « جوارٌ وربِ الكعبة . » وذهب معه وما زال يطلب المال حتى استنقذه .

واخبار الحارث في الوفاء كثيرة كأخباره في الغدر . صور متناقضة تتنازع فيها الحيوانية والانسانية على شرف البداوة وعنجهية الاعراب . ولولا الشرف والعنجهية لما اجتمع الغدر والوفاء في هذا البدوي الخشن الطباع . فعفوه عن عمرو بنُ الاطنابة ، وقبوله جوار الحبل ، يمتعان نفسه المتكبرة ، كما يمتعها غدره بخالد بن جعفر ، وفتكه بطفل الملك النعمان .

وكانت نهاية امره بعد ان سدت المذاهب في وجهه ، وقد جدّ النعمان وبنو هوازن في طلبه ، ان لجأ الى الشام ، نازلاً على الغساسنة اعداء المناذرة ، فأجاره

يزيد بن عمرو الغساني واكرمه . فاقام عنده مدة ثم عدا على ناقة له فعقرها بغير اذنه . وفتك باحد خاصته الحسن التغلبي . فغضب عليه يزيد فقتله ولم يشفع به الجوار ، ذلك الجوار الذي طالما قدسه الحارث وحافظ عليه .

الحارث بن ظالم المري

الحارث والنعمان

حسبتَ ابا قابوس انك سالمٌ ... ولمّا تُصب ذلّا ، وانفك راغِمُ
فان تكُ اذوادٌ أصبن وصبيةٌ ، ... فهذا ابنُ سلمى رأسه متفاقِمُ [1]
علوتُ بذي الحيّات مفرقَ رأسه ... وهل يركبُ المكروه إلا الاكارم [2]
فتكتُ به كما فتكتُ بخالدٍ ... وكان سلاحي تجتويه الجماجم [3]
أَخُصْيَ حمارٍ باتَ يكدم نجمةً ، ... أتأ كلُ جيراني ، وجارك سالمُ ! [4]
بدأتُ بهذي ثم أثني بهذه ، ... وثالثةٌ تبيضّ منها المقادمُ [5]

انتسابه الى قريش

فلستُ بشاتمٍ أبدًا قريشاً ... مُصيباً رغم ذلك من أصابا
فما قومي بثعلبةَ بن سعدٍ ... ولا بفزارة الشُعرِ الرقابا [6]
وقومي إن سألت بنو لُؤيٍ ... بمكّة علّموا الناسَ الضرابا
سفهنا باتّباع بني بَغيضٍ ... وتركِ الاقربين لنا انتسابا [7]

1 الاذواد : النوق . ابن سلمى : يريد به ابن النعمان وكان رضيعاً عند سلمى بنت ظالم زوج سنان بن ابي حارثة ولذلك دعاه بابن سلمى .

2 ذو الحيات : سيف الحارث .

3 تجتويه : تكرهه .

4 يكدم : يعض . نجمة : نبتة يحبها الحمار ، ولذلك يلقب بذي النجمة . يهجو النعمان فيقول انه رخو كخصي حمار تدلى ، والحمار يأكل النجمة .

5 المقادم : النواصي . يريد بالثالثة انه سيقتل النعمان نفسه بعد ان قتل جاره وابنه .

6 الشعر : الكثيرو الشعر .

7 بني بغيض : قومه من غطفان .

سفاهة فارطٍ لمّا تروّى هَراق الماء واتّبع السّرابا [٨]
فما غَطَفانُ لي بأبٍ ولكن لُؤيٌّ والدي ، قولًا صوابا
فلما أن رأيتُ بني لُؤيٍّ عرفتُ الوُدّ والنسب القُرابا
رفعت الرُّمحَ إذ قالوا قريشٌ ، وشبَّهت الشمائل والقِبابا

٨ فارط : مجازفٌ . تروى : ارتوى من الماء . هراق : بمعنى اراق .

حاتم الطائي

١

اذا شئت ان تتعرف الفضائل الجاهلية وما فيها من مكارم الاخلاق ، فعليك بحاتم الطائي ، فانه المثال الاعلى لخير ما يفخر به الاعرابي من حميد الصفات ، فقد اجتمعت له اشرف الخلال البدوية واطيبها ذكراً ، وبلغ بعضها في مقداوه حداً متطرفاً يرتد خانساً عنه كل منافس وطامح . فان وُجد من يجاريه او يتقدمه في الفروسية والاقدام ، والنجدة وحسن الجوار ، والحلم والعفة ، والشعر والفصاحة ، فما كان ليجاريه او يتقدمه احد في ضروب السخاء وغرائب الضيافات . حتى ضرب المثل بجوده ، ولهجت بمدحه ألسن الشعراء والكتّاب في عصره وبعد عصره . واصبح اسمه مرادفاً للكرم المتناهي يشبّه به ، ولا يُرى افضل منه للتشبيه . ونسجت اساطير السخاء على ولادته وحول قبره كما نسجت على حياته ، فاختلط الصحيح من اخباره بالموضوع ، وتلبّس التاريخ بالخرافة ، وتبرجت الحقيقة بوشي الخيال . فقد طارت لحاتم شهرة في الجود لم يكن مثلها لغيره ، ورويت عنه نادرات شوارد تثير الاعجاب ، وتبعث الشهوة في النفوس لتسقّط احاديثه . فاستغل الرواة نهم الناس ، فاقبلوا على اخباره يتتبعونها ، ويتزيدون فيها ، بحسب تفاوت المخيلات ، وحب التزيين والاغراب ، فجعلوها قصصاً واثاراً يتنزه بها الخاطر ، وفيها متسع لمنافع التاريخ .

فمما روي عن ولادته ان أمه جاءها هاتف في المنام وهي حبلى فقال لها :

« أغلام سمح يقال له حاتم أحب اليكِ أم عشرة غلمة كالناس ، ليوث ساعة الباس ، ليسوا باوغال ولا أنكاس ؟ » ففضلت حاتماً على العشرة فكان لها ما تمنت . وهذه الرواية لا تنافي طبع ام حاتم فانها كانت من اسخى الناس واقراهم للضيف ، تعطي ما تملك يدها ولا تحرص عليه مهما تكن قيمته . وطبيعي ان يكون حاتم قد اكتسب مزية الكرم منها ، فأبوه لم يعرف بالسخاء ، ومات وحاتم صغير ، فجعل الولد في حجر جده سعد بن الحشرج . فلما كبر وفتح يده لكل طالب وطارق ، ضيّق عليه جده ثم رحل عنه بأهله خوفاً على ماله .

ويروى عن أمه ، واسمها عُتْبة بنت عفيف ، انها تمادت في بذل المال واتلافه ، وهي في بيت ابيها ، فاضطر اخوتها الى الحجر عليها لئلا تذهب بثروتها . فمكثت زمناً طويلاً لا تعطى شيئاً من مالها . وظن اخوتها ان ألم الحرمان علمها الاقتصاد ، فأرادوا امتحانها فدفعوا اليها قطعة من ابلها لتتصرف فيها . فاتفق ان زارتها امرأة من هوازن كانت تأتي اليها في كل سنة تسألها ، فقالت لها : « دونك هذه الابل فخذيها ، فوالله لقد عضني من الجوع ما لا امنع معه سائلاً ابداً . » فكانت النتيجة بخلاف ما توهم اخوتها ، وبدلا من ان يؤدبها الحرمان زادها سخاء . فلا غرو ان ينشأ الابن على شيم والدته وفي حضنها ربي ، وبلبانها غذي ، ومن يدها تناول العطاء . وكان نصيب اولاده منه كنصيبه من أمه فجاؤوا مساميح وهابين ولا سيا ابنته سفّانة فانها كانت تباريه في الجود والاتلاف . يعطيها القطعة بعد القطعة من ابله فتوزعها على الناس . فقال لها يوماً : « أي بُنيّة ، ان القرينين اذا اجتمعا في المال اتلفاه . فاما ان أعطي وتُمسكي ، او أمسك وتعطي ، فانه لا يبقى على هذا شيء . » فقالت : « والله لا أمسك ابداً . » قال : « وانا لا امسك ابداً . » قالت : « لا نتجاور . »

فقاسمها ماله وافترقا .

وليست اسطورة ولادته من الغرابة في شيء بالاضافة الى اسطورة القبر . فقد زعموا ان رجلاً يقال له ابو الخيبري مرّ في نفر من قومه بقبر حاتم وحوله انصاب متقابلات من حجارة كأنهن نساء تنوح عليه . فبات ابو الخيبري ليلته ينادي : « يا حاتم أقرِ أضيافك ! » فقيل له : « مهلاً ما تكلمُ من رمّة بالية ؟ » قال : « ان طيئاً يزعمون انه لم ينزل به احد الا قراه . » وضحك ابو الخيبري ساخراً شامتاً ثم لبث ينادي حاتماً مرة بعد مرة كمن يتحداه . حتى غلب عليه النعاس فنام . فلما كان السحر استيقظ مبغوتاً فوثب وهو يصيح : « وآراحلتاه ! » فقال له اصحابه : « ويلك ما لك ؟ » قال : « خرج والله حاتم بالسيف وانا انظر اليه حتى عقر ناقتي . » فكذبوه ولم يصدقوه . فسار بهم الى راحلته فاذا هي منحورة مخضبة بدمها ، فقالوا له : « قد والله قراك . » واقبلوا عليها يأكلون من لحمها ضيوفاً لصاحب القبر . ثم اردفه بعضهم ، اي اركبه وراءه ، وساروا في طريقهم وهم يتحدثون بهذه الضيافة العجيبة . واذا بشخص رُفع لهم عن بعد يركب جملاً ويقرن اليه جملا أسود ، فما زال يدنو منهم حتى ادركهم فاذا هو عدي بن حاتم . فقال : « ايكم ابو الخيبري ؟ » فقالوا : « هو هذا . » قال : « جاءني ابي في النوم ، فذكر لي شتمك اياه ، وانه قرى راحلتك لاصحابك ، وقد قال في ذلك ابياتاً رددها حتى حفظتها . » وانشد عدي اربعة ابيات رواية عن ابيه اولها :

أبا الخيبري وانت امرؤٌ   حسودُ العشيرة شتّامُها

ثم قال له : « وقد امرني ان احملك على جمل بدل راحلتك فدونكه . » فاخذه ابو الخيبري وركبه ، وذهبوا وهم مدهوشون مما رأوا وسمعوا . ومثل

هذه الاسطورة جديرة بان تولد وتنشأ في بني طي. يتناقلها وينشرها رواتهم ومحدثوهم، مفاخرين بصاحبهم يقري الضيوف في مماته كما كان يقريهم وهو حي.

واخبار حياته حافلة بغرائب الضيافات، واعاجيب العطايا، تريك شخصاً فريداً في اطواره، لا همّ له الا البذل والقرى لكل سائل وطارق. يده مبسوطة ابداً، وابله معقورة او موهوبة. ناره موقدة وقدره مرفوعة. يطعم ويعطي غير ما يطعم الناس وغير ما يعطون. فربما نحر لكل ضيف ناقة، وربما اعطى جميع ما تملك يمناه. قيل مرّ به ثلاثة شعراء وهو غلام، فقالوا: «يا فتى هل من قرى؟» قال: «تسألوني عن القرى وقد ترون الابل.» ثم نحر لهم ثلاثاً منها. فقال له احدهم: «انما اردنا بالقرى اللبن. وكانت تكفينا ناقة اذا كنت لا بد متكلفاً لنا شيئا.» فقال حاتم: «قد عرفت، ولكنني رأيت وجوهاً مختلفة، وألواناً متفرقة، فظننت ان البلدان غير واحدة، فاردت ان يذكر كل واحد منكم ما رأى اذا اتى قومه.» فقالوا فيه اشعاراً امتدحوه بها وذكروا فضله. فقال حاتم: «اردت ان احسن اليكم فكان لكم الفضل عليّ. وانا اعاهد الله ان اضرب عراقيب ابلي عن آخرها او تقدموا اليها فتقتسموها.» فاقتسمها الثلاثة فيما بينهم، فاصاب كل واحد منهم تسعة وتسعين بعيراً. وكانت ثلاثمائة مع الثلاثة التي نحرت لضيافتهم. ويقول الرواة ان جده فارقه على اثر هذه الحادثة، وخرج بأهله عنه محافظة على ماله. وفي ذلك يخاطبه حاتم بقوله:

وانّي لعفّ الفقر مشترك الغنى ، وودّك شكل لا يوافقه شكلي

ويزيد يعقوب بن السكّيت على هذه الرواية بقوله: «بينا حاتم بعد ان انهب ماله، وهو نائم اذ انتبه، واذا حوله مائتا بعير او نحوها تجول ويحطم بعضها بعضاً فساقها الى قومه، فقالوا: «يا حاتم ابق على نفسك فقد رزقت

مالا ، ولا تعودنّ الى ما كنت عليه من الاسراف . » قال : « فانها نُهبى بينكم . » فهجموا عليها فانتهبوها . ولكن يعقوب نسي ان يعلمنا من اين اتت هذه الابل وكيف رُزقها حاتم فجأة وهو نائم . ولعله اراد ان نزعم معه انها كانت شاردة فساقها القدر اليه ، وعندئذ يُفض المشكل بطريقة يسيرة مقبولة .

وجاءه مرة رجل من البراجم فقال له : « وقعت بيني وبين قومي ديات فاحتملتها في مالي واملي . فعدمتُ مالي ، وكنتَ املي . فان تحملها عني فربّ همّ فرّجته ، وغم كفيته ، ودين قضيته . » ثم مدحه بابيات منها قوله :

حملت دماء للبراجم جمةً فجئتك لما اسلمتني البراجمُ
وقالوا سفاهاً : لمْ حملت دماءنا ؟ فقلتُ لهم : يكفي الحمالةَ حاتم
يعيش الندى ما عاش حاتم طيّء وأن مات قامت للسخاء مآتمُ

فقال حاتم : « هذا مرباعي من الغارة على بني تميم ، فخذه وافراً فان وفى بالحمالة ، والا اكملتها لك . » فاخذ البرجمي المرباع اي ربع الغنيمة ، وهي حصة رئيس الجيش ، وكانت مائتي بعير ما عدا النياق واولادها ، ثم زاده مائة بعير فانصرف راجعاً الى قومه ، وقضى ما عليه من حق الدماء .

وروي ان حاتماً خرج في الشهر الحرام يريد حاجة فمر بارض بني عنزة ، فرآه اسير لهم فناداه : « يا ابا سفّانة اكلني الاسار والقمل ! » فقال حاتم : « ويلك ما انا في بلاد قومي ، وما معي شيء . وقد اسأت بي اذ نوهت باسمي . » على ان الفتى الطائي ما تعود ان يرد سائلاً ، ورأى من العار ان يترك الاسير في ضنكه بعد ان استغاثه وصرح باسمه . فجاء العنزيين ، وساومهم به حتى اشتراه منهم ولكنه لم يستطع تأدية الفداء وهو بعيد عن دياره ، فاضطر ان يقيم في القيد مكان الاسير ، وارسل الى قومه يخبرهم بامره فبعثوا اليه بالمال .

وكان حاتم اذا جنّ الليل يوعز الى غلامه ان يوقد النار في مرتفع من الارض ليبصرها من ضل طريقه فيأوي الى منزله . واذا كان الليل بارداً والريح عاتية ، حض غلامه على متابعة الايقاد ، ووعده بالاعتاق ان جلبت ناره ضيفاً :

أوقد فان الليل ليل قرّ　　والريح يا موقد ريح صرّ
عسى يرى نارك من يمرّ　　ان جلبت ضيفاً فانت حرّ

ويفاخر حاتم بان كلابه تنبح للضيف وهو بعيد لتهديه ، ولا تنبح في وجهه لانها تعودت رؤية الضيوف . والعرب تمدح الكرام وتذم البخلاء بكلابهم . قال حسان بن ثابت يمدح الغساسنة :

يُغشَون حتى ما تهرّ كلابهم　　لا يَسألون عن السواد المقبل

ورأى حاتم يوماً ولده يضرب كلبة له وكان يحبها لانها تدل الضيفان على منزله ، فغضب وانهال عليه بالسوط وهو يقول :

أوصيك خيراً بها فان لها　　عندي يداً لا ازال احمدها
تدل ضيفي علي في غلس الليل　　اذا النارُ نام مُوقدُها

وقلما خلت اخبار حاتم في الجود والضيافة من الغرائب ، حتى لتخال هذا الطائي به مس من الجنون في كرمه ، لا يطيب له العيش الا في بذل ماله واتلافه ، ولا ينام قرير العين الا على مرأى الضيوف حول قدوره وجفانه . ويقول الرواة انه لم يكن يمسك شيئاً مما تملك يده غير فرسه وسلاحه ، فانه كان لا يجود بها . ولعلهم يستندون في ذلك الى قوله :

متى يأت يوماً وارثي يبتغي الغنى　　يجدْ جُمع كفي غير ملء ولا صفر
يجدْ فرساً مثل العنان وصارماً　　حساماً اذا ما هزّ لم يرضَ بالهبر
واسمرَ خطياً كأن كعوبه　　نوى القسب قد اربى ذراعاً على العشر

ومع ذلك فهم يروون عنه نادرتين كانت فرسه فيها ضحية سخائه . فقد زعموا :

« ان احد قياصرة البزنطيين بلغته اخبار جود حاتم فاستغربها ، وكان قد بلغه ان لحاتم فرساً من كرام الخيل عزيزة عنده . فارسل اليه بعض حجابه يطلب منه الفرس هدية اليه . وهو يريد ان يمتحن سماحته بذلك . فلما دخل الحاجب ديار طي سأل عن ابيات حاتم حتى دخل عليه ، فاستقبله احسن استقبال ورحب به وهو لا يعلم انه حاجب الملك . وكانت المواشي في المرعى ، فلم يجد اليها سبيلًا لقرى ضيفه . فقام الى فرسه فنحرها واضرم النار . ثم دخل الى ضيفه يحادثه ، فاعلمه هذا انه رسول القيصر وقد حضر يستميحه الفرس ، فساء ذلك حاتماً وقال : « هلا اعلمتني قبل الآن ، فاني قد نحرتها اذ لم اجد جزوراً غيرها . » فعجب الرسول من سخائه وقال : « والله لقد رأينا منك اكثر مما سمعنا . »

وحدث الهيثم بن عدي ان ماوية امرأة حاتم سئلت عن بعض عجائب زوجها فأجابت : « كل امره عجب . » ثم اندفعت تروي هذه النادرة عنه ، قالت : « اصابت الناس سنة حاطمة فذهبت بالخفّ والظلف ، واتت علينا ليلة اسهرنا فيها الجوع فاخذ عدياً ابنه ، واخذتُ سفانة وجعلنا نعللها حتى ناما ثم اقبل علي يحدثني ، ويعللني بالحديث كي انام . فرثيت له لما به من الجهد ، فأمسكت عن كلامه لينام ، فقال لي : أنمتِ ؟ فلم اجب . فسكت . ثم نظر في فتق الخباء ، فاذا شيء قد اقبل ، فرفع رأسه ، فاذا امرأة ، فقال : « ما هذا ؟ » قالت : « يا ابا سفانة اتيتك من عند صبية جياع يتعاوون كالذئاب جوعاً . » فقال : « احضريني صبيانك فوالله لاشبعنّهم . » فقمت سريعاً فقلت له : « بماذا يا حاتم ؟ فوالله ما نام صبيانك من الجوع الا بالتعليل . » قال : « والله لأشبعن صبيانك مع صبيانها . » فلما جاءت قام الى فرسه فذبحها واضرم النار ودفع الى المرأة شفرة وقال : « اشتوي وكلي واطعمي

ابناءك . » ثم قال لي : « ايقظي صبيانك . » فأيقظتهم واخذت اطعمهم وآكل ، فقال حاتم : « ان هذا للؤم ، تأكلون وحدكم ، وجيراننا حالهم مثل حالكم ؟ » ثم قام الى جيرانه فجعل يأتيهم بيتاً بيتاً ، ويناديهم : « انهضوا ، عليكم بالنار ! » فاجتمعوا حول تلك الفرس يأكلون فما اصبحوا ومن الفرس على الارض قليل ولا كثير الا العظم والحافر . واما حاتم فانه تقنع بكسائه ، فجلس ناحية لا يذوق شيئاً مع انه كان اشد جوعاً منهم . »

تلك عظمة الجود ومكارم الاخلاق نقف امامها معجبين بهذا الاعرابي بعد مضي اربعة عشر قرناً كما وقف امامها الاقدمون معجبين ، فان العمل العبقري لا يختص بزمان ولا مكان وانما هو رفيق العصور والاجيال يفيض جماله ابداً ولا يكتنف نوره ظلام . الا ان حاتماً على فضله وسخائه لم يخرج عن خلق البدوي في ايثار نفسه وارضاء انانيته ، فاذا اتلف ماله مراراً وجاد به على العفاة والضيفان ، فانه كغيره من الاعراب لا يفهم معنى للصدقة المكتومة ، والعطاء المستور . يعطي ويطعم ليقال ان حاتماً أعطى واطعم ، وقد سمعناه يقول للشعراء الذين وهبهم ابله : « اردت ان يذكر كل واحد منكم ما رأى اذا أتى قومه . » يحب ان يذكره الناس ويمدحوه ، ولا يريد ان يكون فضله خفياً . يفاخر بكرمه ، شأن كل جاهلي ، معتداً بنفسه ، معتزاً بمناقبه ، فكل شعره فخر وتمدّح وتعداد لمكارمه وفضائله . ينافس الكرام وينافرهم على طريقة ابناء عصره كما نافر نسيبه سعد بن حارثة الطائي ، ولما طلب اليه سعد ان يترك المفاخرة نازلاً له عن حقه ابى الا ان تظهر غلبته عليه ، فأخذ افراسه وافراس اصحابه فعقرها واطعمها الناس . واذا كان قد افتدى الاسير بنفسه ، وجاء عمله عظيماً في حد ذاته ، فانه لم يفعل ذلك الا حفاظاً على سمعته لان الاسير نوّه باسمه . وهو حريص على شهرته لا يحب ان يتحدث الناس بان

حاتماً اصم اذنيه عن سماع صوت المستغيث . فسخاء حاتم خارق عجيب في افراطه ، بيد انه يتقاضى ثمنه فخراً ومدحاً ، ويلقيه جزافاً على غير روية فيصيب المحتاج وغير المحتاج ، وربما جعل ماله نهبى بين الناس ليقتسموه امام عينيه ، فترضى كبرياء نفسه ، وتغتبط انانيته باستقبال الفاظ الشكر واللوم ، وما يتلوهما من حسن الاحدوثة . واللوم يدغدغ عاطفة الجاهلي اكثر مما يدغدغها الشكر ، فقد خلق العاذلة التي لا تأتلي نصحاً له وتأنيباً ، وجعلها رفيقة حياته تلومه على اسرافه بالكرم والحب والشجاعة ، ولكنها لا تلقى منه سوى الرد والاعراض ، او تفنيد نصائحها ، والدفاع عن مذهبه في شيء من التفلسف وقرع الحجة باختها . وشعر حاتم لا يخلو في اكثره من شخص هذه العاذلة المحبوبة ، وهي في الغالب زوجته يسميها باسمها ، او يتركها نكرة مجهولة ، تلومه على افراطه في الجود وتبذير المال ، فيفهمها ان الكريم خير من البخيل ، فللكريم حسن الذكر اذا مات ، واما البخيل فيتبعه سوء الثناء . ولماذا يحرص الانسان على ماله ما دام الموت راصداً ، ولا سبيل الى الخلود في هذه الحياة ؟ أفليس الافضل له ان يترك ذكراً طيباً يخلد بعده فتتحدث به الاجيال ؟

مهلًا نوارُ أقلّي اللومَ والعذلا ولا تقولي لشيء فات : ما فعلا ؟
ولا تقولي لمال كنتُ مُهلكه مهلًا ! وان كنت أعطي الانس والخبلا
يرى البخيلُ سبيل المال واحدة ان الجواد يرى في ماله سُبُلا
ان البخيل اذا ما مات يتبعه سوءُ الثناء ويحوي الوارثُ الابلا
فاصدق حديثك ان المرء يتبعه ما كان يبني ، اذا ما نعشهُ حُملا
يسعى الفتى وحمامُ الموت يُدركه وكلّ يوم يدنّي للفتى الاجلا

ويستوقفنا قوله : « ويحوي الوارث الابلا » فقد كان حاتم لا يرى خيراً في توريث ابنائه واسعادهم بماله ، فانما هو يبني لنفسه لا لغيره ، فاذا روّاها

في حياته ، وتركها تنفق على هواها ، لتكسب حسن الاحدوثة ، فتلك غاية ما يصبو اليه ، وليتعس الارث والوارث بعد ان يزج هو في غيابة القبر :

أَهن في الذي تهوى التِلادَ فانـه يكونُ اذا ما متّ نهباً مقسّماً
ولا تشقَيَنْ فيـه فيسعدَ وارثٌ به حين تُحشى أغبرَ الجوف مُظلما

فصاحبنا فردي ممتلىء من شخصيته ، يذهب في الحياة والموت وفهم الخلود مذهبَ غيره من اهل الجاهلية في تلك الصحراء المستأثرة بذاتها ، والتي لا تدرك السعادة الا في الاشياء المادية ، بعيداً عن الاغراض الروحانية ، تبتدىء بأنا ، ثم تسير بفرديتها لا لتؤلف مجتمع أمة ، بل لفيف ابنـاء عمٍ تدعوهم عشيرة وقبيلة . وما حاتم الا واحـد من اولئك الاعراب ، يحس باحساسهم ويفكر بتفكيرهم ، ويتصور الاشياء كما هم يتصورونها . فلا نلتمس منه ان ينظر الى الحياة غير ما ينظر اليها ابناء باديته في عصر فطري تغلبت عليه المادة ، وانما يخلق بنا ان نحفظ له حقه من الشمائل الحسنى ، فقد كان كرمه عنوان الجود في الجاهلية ، وتخطت شهرته القرون والاحقاب حتى انتهت الينـا ، فما نزال نسمع الى يومنا هذا مثلاً سائراً تردده العامـة والخاصة : فلان اكرم من حاتم طي . فقد تم لابي سفانة خلود الذكر كما تمنى ، وهو وان يكن افاد هذه الشهرة بماله وسخائه ، فان فيه من فضائل العفة والفروسية والنجـدة والفصاحة ما يتحلى به جوده ، ولا يجوز اغفاله ، فمن العدل ان نعود اليه ، نتبين تلك الخلال في بحث آخر .

حاتم الطائي

جود حاتم ومكارم اخلاقه

أماويّ إن المال غادٍ ورائحٌ ... ويبقى من المال الاحاديثُ والذكرُ
أماويّ اني لا اقول لسائلٍ ... اذا جاء يوماً حلّ في ماليَ النزر
أماويّ ما يغني الثراء عن الفتى ... اذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدرُ
أماويّ إن يُصبح صَداي بقفرة ... من الارض لا ماءٌ لديّ ولا خمرُ[1]
تري ان ما انفقتُ لم يكُ ضرّني ... وان يدي مما بخلتُ به صِفرُ
اذا انا دلّاني الـذين يلونني ... بمظلمةٍ لُـجٍ جوانبهـا غُبرُ[2]
وراحوا سراعاً ينفضون اكفّهم ... يقولون : قد أدمى اظافرنا الحفرُ
أماويّ ان المال مالٌ بذلتــه ... فأوله شُكرٌ وآخره ذكـرُ
وقد يعلم الاقوامُ لو انٍ حاتماً ... اراد ثراء المـال كان لـه وفرُ
فاني وجدّي رُبّ واحد أمّـهِ ... أجرتُ ، فلا قتلٌ عليه ولا أسرُ[3]
ولا أظلم ابن العم إن كان اخوتي ... شهودًا ، وقد أودى باخوته الدهرُ
غنينـا زماناً بالتصعلك والغنى ... وكلاً سقاناه بكاسيها العصر[4]
فما زادنا بأوًا على ذي قرابة ... غنانا ، ولا أزرى بأحسابنا الفقرُ[5]
وما ضر جارًا يا ابنة القوم فاعلمي ... يجـاورني ، ألّا يكون له سترُ
بعينيّ عن جَاراتِ قومي غفلة ... وفي السمعِ مني عن حديثهم وقرُ[6]

١ الصدى : جسد الانسان بعد موته . والهامة
٢ يلونني : يدنون مني اي اهلي واقربائي .
مظلمة لج : اي شديدة الظلام تتموج كلج البحر ويريد بها القبر .
٣ وجدي : الواو للقسم .
٤ بكاسيها : اي كأس التصعلك وكأس الغنى .
٥ بأوًا : فخرًا .
٦ وقر : ثقل السمع .

حاتم الطائي

٢

اذا كانت فضيلة الجود اظهر شيء في حاتم لكثرة ما روي عنه من غرائب الضيافات والعطايا ، فليس من شأنها ان تحجب سائر فضائله . وقد تحلى هذا الطائي باجمل الخلال التي يفاخر بها العربي ، ويجعلها من الصفات اللازمة لسيد القبيلة ، لان البدوي لا يعترف لغيره بالسيادة الا اذا رأى فيه خيراً ونفعاً . فكلهم في العشيرة ابناء عم يعتزون ببيوتهم وانسابهم حتى صعاليكهم . وكلهم انانيون معتدّون بانفسهم ، طامحون الى الرئاسة ، لا يتركها الواحد للاخر الا عن كره وحياء ، او عن اقتناع تام بفضله وصلاحه . فمن اجتمع له الجود والحلم ، والعفة والفروسية ، والنجدة والفصاحة ، كان أحق من غيره بالشرف الرفيع . وقلما وجدت هذه الصفات مجتمعة في شخص واحد ، كما وجدت في حاتم ، فسلموا له بالسيادة عن رضى واقتناع ، فكان يفاخر بها ، ويرد على من يلومه في سخائه وتبذيره بقوله :

يقولون لي : اهلكت مالك، فاقتصد، وما كنتُ ، لولا ما تقولون ، سيدا

على ان هذا التسليم لا يمنع ان يقوم في العشيرة من ينافسه ، وينازعه الشرف . فالمنافسة شيء من طباعهم نشأوا عليه ، فأصبح عنصراً جوهرياً مؤتلفاً بنفوسهم وركناً ثابتاً في بناء قبيلتهم . فليس من الهين ان ينتزعوه من نفوسهم ، او يستلوه من بنائهم . وقد لقي حاتم من ابناء عمه من يطاوله ليسمو الى

منزلته ، كما طاوله سعد بن حارثة واصحابه ، فخسروا مجادهم وافراسهم ، وأربى حاتم عليهم . وسارت له شهرة في الشرف والجود تجاوزت حدود الخيام والقبائل الى قصور الملوك ، فزعموا ان القيصر البزنطي سمع بذكره ، وارسل اليه حاجبه يستوهبه فرساً . وقد ذكرنا هذا الخبر في البحث السابق ، وهو عندنا يحتمل الشك اكثر من اليقين . ولكن من الثابت ان حاتماً كان يتردد الى الحيرة ، ويدخل على النعمان بن المنذر فيلقى لديه الحظوة والكرامة . ويزور الغساسنة في الشام ، فيقربونه ويراعون جانبه . وحدث مرة ان بني طيء اغاروا على ابل للنعمان بن الحارث الجفني ، فغضب الملك وغزا بني طيء فأصاب سبعين اسيراً من بني عدي عشيرة حاتم . وحاتم يومئذ في الحيرة عند ابي قابوس النعمان ابن المنذر . فلما قدم الجبلين أجأ وسلمى حيث منازل طيء ، جعلت المرأة منهم تأتيه بالصبي من اولادها ، فتقول له شاكية : « يا حاتم ، اسر ابو هذا . » ذلك بان هموم القبيلة تعقد بعمامة سيدها . فلم يلبث الا ليلة حتى سار الى الملك الغساني ، فاستوهبه الاسرى ، فأطلقهم النعمان من الاغلال اكراماً له ، فعاد بهم الى الجبلين .

ومن محاسن السيادة عندهم ان يكون صاحبها حليماً يكره الظلم ، ويعفو عن السيئات . وقد اتصف حاتم بكرم اخلاقه وسعة صدره على ما به من كبر النفس وحب المفاخرة . فما روي عنه مرة انه هضم حق غيره او جار على احد سالكاً به طريق العسف ، مع ان اكثر ابناء عصره كانوا يتباهون بالظلم ، ويمدحون به ، جاعلين شعارهم : انصر اخاك ظالماً او مظلوماً . فهذا زهير بن ابي سلمى قاضي الشعراء وحكيمهم يعتبر الظلم من الاسس التي ترتكز عليها الحياة الاجتماعية ، فيقول :

ومن لم يذُد عن حوضه بسلاحه   يُهدّم ، ومن لا يظلمِ الناسَ يُظلم

حتى ان الفرزدق الشاعر الاسلامي لم يستطع ان يتخلص من الروح الجاهلية لقرب عهده بها فاذا هو يفاخر بقوله :

أبت ان أسومَ الناسَ الا ظُلامةً وكنتُ ابنَ مِرغامِ العدوّ ظلومِ

فحاتم احد اولئك السادات الفرسان الذين كان الحلم اقرب الى نفوسهم من الظلم ، وان خلا حلمهم من الرقة والتواضع وغلبت عليه الكبرياء والمباهاة . ولا يطعن في حلم صاحبنا اصراره على مخايلة سعد بن حارثة حتى اخذ افراسه فنحرها واطعمها الناس . فان سعداً اعتدى على جواره واراد منافسته فصار من حقه ان يدافع عن حسبه ، ويخذل هذا السيد واصحابه بعدما اساؤوا اليه . مع ان حاتماً كان يتجنب الاساءة لابناء عمه لان شرط فضيلة الحلم عندهم ان يتناول القبيلة قبل غيرها ، ولا سيما الضعيف الذي قلّ اخوته وانصاره كما قال حاتم :

ولا اظلم ابن العم ان كان اخوتي شهوداً ، وقد أودى باخوته الدهرُ

والفتى الطائي لا يحصر حلمه بابناء عمه بل يشمل به عدوه احيانا ، فكان يعفو عن وحيد أمه اذا وقع في يده فلا يقتله لئلا يفجعها به وليس لها سواه . وقد اعترف له الرواة بهذه المحمدة ، وهو يذكرها في شعره اذ يقول :

أماويّ اني رُبّ واحدِ أمّهِ أجرْت ، فلا قتلٌ عليه ولا أسرُ

وله في الحلم اقوال متفرقة تشهد بكرم خلقه ، ويمكن صرفها الى ناحية الشمول بحيث يجوز ان ينظر الى حلمه كفضيلة انسانية لا فضيلة قبلية ، من ذلك قوله :

وأغفرُ عوراء الكريم ادخارَهُ وأعرض عن ذات اللئيم تكرّما

وروى الجاحظ في البيان والتبيين ان حاتماً اوصى ابنه عدياً بقوله : « اي بنيّ ، ان رأيت ان الشر يتركك ان تركته ، فاتركه . » فأين هذا من

كلام غيره في تحسين الظلم ! ومما يؤثر عنه قوله : « العاقل فطنٌ متغافل . » فالتغافل هنا فيه كثير من سعة الصدر ، وسماحة النفس ، وايثار الخير على الشر . وأي فضيلة جامعة لهذه الصفات سوى الحلم ؟

وكذلك العفة كانت من الفضائل التي اضيفت الى حاتم ، وافتخر بها في شعره . وهي عندهم على انواع ، فمنها العفة عن السؤال ، فان الحر اذا افتقر يصبر على الجوع ولا يرضى لنفسه ذُل المسألة . ومنها ترك الاسلاب والغنائم عند اقتسامها لمن ينتفع بها من ابناء العشيرة . وهذا دليل الاباء والكرم والاستغناء . ودليل الفروسية يعتمد صاحبها على ذاته في تحصيل معاشه بغزوات يباشرها منفرداً عن اهله ، فنسمع عنترة يقول لعبلة :

هلاّ سألتِ الخيل يا ابنة مالكٍ ان كنتِ جاهلةً بما لم تعلمي

يُخبركِ من شَهد الوقيعة انني أغشى الوغى ، وأعفّ عند المغنم

وقد تكون هذه العفة نظرية اكثر منها عملية ، يتخذها البدوي للفخر ، مع انه في الحقيقة قلما تنازل عن نصيبه من الغنيمة الا مكرهاً ، او واهباً اياه تكرماً في بعض الاحوال كما وهب حاتم مرباعه للبرجمي الذي تحمّل اليه في ديات قومه .

ومنها عفة اللسان ، وكانوا يتمدحون بها اكثر مما يحافظون عليها . واخيراً عفة النفس عن الشهوة الاباحية ، وهي اجدر من غيرها بالذكر ، فقد كان البدوي لا يعرف معنى صحيحاً لهذه الفضيلة ، فسبي امرأة واغتصابها ، وانتهاك حرمة فتاة في بيت ابيها لا يدخل عندهم في باب العفة او عدمها ، وانما العفة كل العفة ان لا يعتدي احدهم على جارته حتى ولا يرفع نظره اليها اذا مرت امامه . ويجمل به ان يمتنع عن زيارتها في غياب زوجها ، لان حرم الجوار مقدس لا يجوز خرقه وتدنيسه . قال عنترة :

واغضن طرفي ما بدت لي جارتي حتى يواري جارتي مأواها

وقد عرف حاتم بعفته عن السؤال في جوعه وفقره ، ولطالما جاع وافتقر لفرط سخائه فعف عن المسألة ، وابى ان يذل ويبذل ماء وجهه . وفي ذلك يقول : « واني لعفّ الفقر مشترك الغنى . » او يقول : « ولا أزرى باحسابنا الفقرُ . »

غير انه كان يبيح لنفسه السؤال اذا اضطره الدفاع عن شرفه الى طلب المال فيلجأ الى اقربائه يسألهم المؤازرة ليسد ما به من خلة ارضاء للمجد ، وحفاظاً على الحسب • فان منافسته لسعد بن حارثة واصحابه في الكرم عرّضته لان يخايلهم جميعاً في كثرة الطعام والشراب . ويكون ذلك في يوم حافل مشهود يتبارى به المتنافسون في نحر الابل وبسط المآكل وجر زقاق الخمر ، ودعوة عامة يدعونها للناس . فمن استطاع ان ينحر ويسقي الخمر اكثر من غيره نودي باسمه وتم له النصر على خصمه ، واحرز الشرف الرفيع يتحدث بذكره القريب والبعيد • فلما نشب الخلاف بين حاتم وسعد بن حارثة الطائي ورهطه قالوا له : « بيننا وبينك سوق الحيرة فنماجدك . » فاجابهم الى طلبهم لان النكوص عن المباراة يزري بقدره . فوضعوا تسعة افراس رهناً على يدي رجل يقال له امرؤ القيس بن عدي . ووضع حاتم فرسه . ثم خرجوا حتى انتهوا الى عاصمة المناذرة ، وعليها النعمان ابو قابوس . وكان متزوجاً بنت سعد بن حارثة ، وقد خص والدها وعشيرته بني لأم بالاعطيات السنية . فاقدام حاتم على منافستهم في البذل واطعام الناس غير مأمول النجاح ، وهم في جوار صهرهم يعتزون به ويعتمدون على معونته . فكيف يستطيع حاتم ان يباري قوماً وراءهم الملك النعمان ؟ وصاحبنا لم يجهل الخطر الذي يهدد شرفه في قبوله هذه المماجدة الخاسرة ، وقد حُمل عليها مكرهاً فلم يُطق ردها ، فالرجوع عنها ذل ،

وخسرانها ذل اكبر . فما عليه الا ان يفزع الى من بالحيرة من قومه بني ثُعَل ثم بني الغوث فيدعوهم الى مساعدته . فذهب اولا الى ابن عمه مالك بن جبار وكان كثير المال فقال : « يا ابن عمّ اعنّي على مخايلتي . » فقال له مالك : « ما كنت لأُحرب نفسي ولا عيالي واعطيك مالي . » فانصرف عنه ساخطاً يهجوه . واتى ابن عم آخر يقال له وهم بن عمرو ، وكان مصارماً له لا يكلمه . فقال له وهم : « ما جاء بك يا حاتم ؟ » قال : « خاطرت على حسبك وحسبي . » قال : « في الرحب والسعة ، هذا مالي وعدّته تسع مائة بعير ، فخذها مائة مائة حتى تذهب الابل او تصيب ما تريد . » فشكره حاتم وخرج من عنده راضياً .

وذاع خبر هذه المباراة في الحيرة ، فتحدث بها الناس ، وتضاربت فيها الاقوال . وكان اكثرهم يميل الى ترجيح كفة بني لأم لما للنعمان من عطف عليهم . وتعصب بنو ثعل والغوث لحاتم فانقسم الطائيون على انفسهم بحسب عشائرهم . وكان إياس بن قَبيصة الطائي نازلا في الحيرة وهو من اشراف الغوث ، وله حرمة عظيمة في بلاط ابي قابوس لمنزلته عند الاكاسرة ، فقد كان ملك الفرس يعوّل عليه في الامور الخطيرة ، ويقطعه امارة عين التمر . واذا خلا العرش العراقي من ربه ، عهد اليه في ولايته الى انْ يختار له خلفاً من آل المنذر . فلما انتهى اليه خبر المخايلة بين حاتم وسعد بن حارثة خشي ان يخسر حاتم مجاده اذا أمدّ النعمان بني لأم بماله وسلطانه فتفتضح الغوث وتعيّرها قبائل العرب . فدعا اليه رهطه من بني حيّة ، وقال : « يا بني حية ، ان هؤلاء القوم قد ارادوا ان يفضحوا ابن عمكم في مجاده . » فقال رجل من بني حية : « عندي مائة ناقة سوداء ، ومائة ناقة حمراء أدماء . » وقام آخر فقال : « عندي عشرة حُصُن على كل حصان منها فارس مدجج

لا يرى منه الا عيناه . » وقال حسان بن جبلة الخير : « قد علمتم ان ابي قد مات وترك كلأً كثيراً ، فعلي كل خمر او لحم او طعام ما اقاموا في سوق الحيرة . » ثم قام اياس فقال : « عليّ مثل جميع ما اعطيتم كلكم . . » وتم الاتفاق بينهم على ذلك وحاتم لا يعلم بشيء لانه اكتفى بان يلجأ الى اقربائه الادنين من بني ثعل .

ومرت الايام حتى اذا دنا موعد افتتاح سوق الحيرة حيث يجتمع الناس كل سنة ، قال إياس لقومه : « احملوني الى الملك . » وكان به نقرس فحمل حتى أدخل اليه ، فقال : « انعم صباحاً ، ابيت اللعن . » فقال النعمان : « وحيّاك الهك . » فقال اياس : « أتمد أختانك بالمال والخيل ، وجعلت بني ثعل في قعر الكنانة ؟ أظنّ اختانك ان يصنعوا بحاتم كما صنعوا بعامر بن جوين ولم يشعروا ان بني حية في البلد؟ فان شئت ، والله ، ناجزناك حتى يسفح الوادي دماً . فليحضروا غداً مجادهم بجمع العرب ! » فعرف النعمان الغضب في وجهه وكلامه فقال له : « يا احلمنا لا تغضب فاني سأكفيك . » ثم ارسل الى سعد بن حارثة واصحابه يقول : « انظروا ابن عمكم حاتماً فأرضوه ، فوالله ما انا بالذي اعطيكم مالي تبذرونه ، وما أطيق بني حية . » فخرج بنو لأم الى حاتم يسترضونه ليعرض عن مجاده ، وتركوا له حق انف سعد ، وكان حاتم قد اطار ارنبته بسيفه عندما وقع الخلاف بينهم . الا ان حاتماً تمسك بمجاده وابى ان ينزل عنه ، فاضطروا اخيراً الى ان يتركوا له الافراس التسعة التي وضعوها رهناً عند امرىء القيس بن عدي ، فأخذها حاتم فعقرها ، واطعمها الناس ، وسقاهم الخمر .

في مثل هذه الحال كان صاحبنا يسأل ابناء عمه ان يرفدوه ، ولا يرى في السؤال غضاضة ، لانه مخاطر على حسبهم وحسبه معاً . فاليهم واليه يعود

الفوز والخذلان .

وكان كغيره من ابناء عصره يفاخر بحفاظه على الجوار وتعففه عن الجارة لا يختلس النظر اليها ، ما بدت له ، او ما انكشف ستر خبائها . ويسد اذنيه عن استطلاع اسرارها مع زوجها . واذا اخلى الجار بيته فخباؤها حرم عليه لا يدخله في غيبة بعلها . بيد انه لا يقطع عنها صلاته بل يتعهدها بكل ما تحتاج اليه دون ان ترخي عليه ستور بيتها . وقد شغلت الجارة جانباً كبيراً من مفاخره ، فجاء شعره وفيه صور مختلفة لعفته عنها ، وحرصه على قداستها ، فمن ذلك قوله :

وما تشتكيني جارتي غير انها | اذا غاب عنها بعلها لا ازورها
سيبلغها خيري ، ويرجع بعلها | اليها ، ولم يُقصر علي ستورها

وقوله :

فأقسمت لا أمشي الى سرّ جارتي | مدى الدهر ، ما دام الحمام يغرّدُ

وقوله :

اذا ما بتّ أختِلُ عِرس جاري | ليخفيني الظلام ، فلا خفيتُ
أأفضح جارتي ، وأخون جاري | معاذ الله افعل ما حييت !

وقوله :

وما ضرّ جاراً يا ابنة القوم فاعلمي | يجاورني ، ألاّ يكون له سترُ
بعينيّ عن جارات قومي غفلة | وفي السمع مني عن حديثهم وقر

فهذه العفة التي يتحدث عنها حاتم ، ويفاخر بها ، هي الفضيلة التي اصطلح عليها الجاهليون ، يجعلونها مرهونة بالجوار ، ولا يتجاوزون بها الى ابعد من الجارة . ومع ذلك فقد روي عن حاتم انه دعي مرة الى ريبة لا علاقة لها بالجوار فنفر منها مبتعداً ، ولم يغفل ان يشير اليها في شعره . وان تكن عفته يومئذ

تحتمل التأويل ، وتقبل في التفسير وجهاً آخر . وقد وقعت له هذه الحادثة مع ماوية بنت عفزر ، ويقول ابن قتيبة انها من بنات ملوك اليمن . والظاهر ان هذه المرأة كانت معتدة بجاهها ومالها ، ولعل لها من الجمال ما يزيدها اعتداداً فكانت تتزوج من يعجبها من الرجال ، وتشترط عليه حق الطلاق ، فاذا ملت جانبه تركته . والطلاق في الجاهلية من حقوق الرجل وحده ، الا ان تجعله المرأة شرطاً لعقد الزواج ، ويرضى الرجل به ، فيصبح لها الحق مثله في طلب الانفصال عنه ، وعليه ان يذعن لطلبها كما تذعن هي لطلبه . وطريقة الطلاق عند النساء تكون بتحويل باب الخباء ، فان كان الباب قبل المشرق حولته قبل المغرب ، وان كان قبل اليمن حولته قبل الشام . فاذا رأى الرجل ذلك علم ان امرأته قد طلقته فيمتنع عن دخول خبائها .

ويروى عن ماوية انها احبت ان تتزوج يوماً فبعثت غلمانها الى الحيرة وامرتهم بان يأتوها باجمل فتى يجدونه فوقعوا على حاتم ، فاعجبهم ، فجاؤوا به اليها ، يرافقه صاحبان له . فلما دخل حجرتها رأى فيها من دلائل النعمة والبذخ ما لم يتعوده في حياته البدوية الخشنة ، فاستوحش من هذه المناظر المترفة ، وساوره شيء من التخوف والانقباض . فقالت له ماوية : « استقدم الى الفراش لأختبرك . » فنفر منها وقعد على الباب وقال : « إستُ لم تعوّد المجمر تحترق .. » يريد انه اعرابي يابس الجلد متقشف لم يتعود الطيب والبخور ، ثم قال : « انيَ انتظر صاحبيَ لي . » فناولته خمراً ليسكر فجعل يريقه بالباب ولا يشرب . وقال لها : « لا اذوق قرى حتى ارى ما فعل صاحباي . » قالت : « انّا سنرسل اليهم بقرى . » قال : « ليس بنافعي شيئاً او آتيهما . » ثم فرّ منها وأتى صاحبيه فقال لهما : « أفتكونان عبدين لابنة عفزر ترعيان غنمها ام تقتلكما ؟ » قالا : « كل شيء يشبه بعضه بعضاً ، وبعض الشر

اهون من بعض . » فقال حاتم : « الرحيل والنجاة ! » وخرج الثلاثة يتوغلون في قلب الصحراء هاربين من تلك الشيطانة المتحضرة . ولم يشأ شاعرنا ان يدع هذه الحادثة تمضي دون ان يستغلها لفخره بالعفة والابتعاد عن الريبة ، مع ما في امره من اشكال :

لشِعبٌ من الريان املك بابه — أُنادي به آل الكبير وجعفرا
أحبُّ الي من خطيب رأيته — اذا قلتُ معروفاً تبدّل منكرا
تنادي الى جاراتها ان حاتماً — اراه لعمري بعدنا قد تغيرا
تغيرتُ أني غير آت لريبة — ولا قائلٌ يوماً لذي العرف مُنكرا

ومضت على حاتم ايام بعد انصرافه من عندها ، وهو يفكر فيها وفي خوفه وهربه منها ، فرأى عمله سخيفاً لا معنى له ، فندم على ما فرط منه ، وتاقت نفسه اليها ، فشد رحاله ضارباً في عرض البيد حتى بلغ دارها ، فوجد لديها النابغة الذبياني ورجلاً من النبيت يحاولان خطبتها ، ففضلته عليهما لما شهدت من سخائه وامساكهما ، ولكن طلبت منه ان يطلق زوجته آنفة ان يكون لها ضرة تشاطرها البيت والمباعلة . فرفض طلبها وابى عليه كرم عنصره الا ان يكون وفياً لامرأة خبر حبها ووفاءها . فامتنعت ماوية عن الزواج وردته مكرماً فعاد الى اهله غير نادم هذه المرة كما ندم في المرة الاولى ، وان تكن نفسه ما برحت تدعوه الى الاميرة المترفة .

واتفق لحسن حظه او لسوء حظ حليلته ان توفيت بعد حين ، فتحرر حاتم من رباط زواج آثر بقاءه على اتباع هوى قلبه . فقام الى رحاله يشدها من جديد طالباً ماوية بنت عفزر . وشاءت الاقدار ان يحالفه التوفيق في رحلته هذه ، فألفاها كما فارقها ليست بذات بعل . فتزوجته بعد ان اشترطت عليه حق الطلاق . فمكثت عنده زمناً ثم داخلها احد اقرباء حاتم يريدها لنفسه ، فما

زال يزين لها الطلاق ، ويحذرها على مالها من تبذير بعلها ، حتى اقنعها فحولت باب الخباء . فامسى حاتم طالقاً من ليلته فنام خارج البيت . وابت ماوية ان تتزوج ابن عمه لانها رأت ما انكرته من لؤمه وشحه وخساسته ، في حين لم تنكر على حاتم غير الكرم والسخاء .

هذا حاتم في حدود عفته كما يفهمها الجاهلي بعرفه وعادته ، وهي على علاتها لا تنافي الفضيلة ولا يعدوها الثناء . وكان الى ذلك فارساً شجاعاً محمود المشاهد ، عالي الهمة ، مظفراً في الحروب ، اذا قاتل غلب ، واذا غنم انهب ، واذا اسر اطلق ، وكان اقسم بالله لا يقتل واحد امه . وانه وان لم يعدّ من الطبقة المشهورة بين فرسان الجاهلية ، الا ان فروسيته تمتاز بطابع جميل من سمو الاخلاق : وكانت قبيلته تركن اليه في مواقعها فتقلده رئاسة الجيش ، وتخصه من غنائمها بالمرباع . فقد شهدناه في بحثنا السابق يعطي البرجمي مرباعه من غارة رابحة اغارها على بني تميم . والقبيلة لا تسلم برئاسة الجيش الا للفارس المجرب ، والقائد المحنك ، ولا سيما اذا كان ميمون الطالع في غزواته ، ويحمي الذمار متى طلعت عليهم خيول الاعداء . وقد عُرف حاتم بهذه الصفات ، وعرف بغيرته على بني طيء وسعيه لخيرها وجمع شملها . الا انه كان يلقى من حسد بعضهم ما يحمله قسراً على المقاومة للدفاع عن كرامته شأنه مع سعد بن حارثة يوم اعتدى على جواره . وكان حاتم قد اجار الحكم بن ابي العاصي ، وامنه في ارض بني طيء حتى يصير الى الحيرة ، فانكر عليه سعد وبنو لأم هذا الجوار وارادوا فضيحته ولم يكن معه غير رجل واحد من بني ابيه . فلما وثبوا اليه تلقاهم غير وجل فتصدى له سعد بن حارثة فاهوى له حاتم بالسيف فاطار ارنبة انفه ، فوقع الشر بينهم حتى تحاجزوا . ثم دعوه الى المفاخرة في سوق الحيرة ، وانتهى الامر بفوز حاتم كما قدمنا .

وكانت بنو طيء كثيرة العدد منقسمة الى بطون وافخاذ وعشائر مختلفة تنافس بعضها بعضاً وتتزاحم على الماء والكلأ فتقع بينها الحروب والفتن ويستحكم فيها الفساد والشقاق . فيعمد حاتم الى العزلة كارهاً ان يقاتل ابناء قبيلته . حتى كان يوم اليحاميم ، فاجتمعت بطون جديلة على رأسها خالد بن لأم تريد الايقاع بعشائر الغوث ومنها عشيرة حاتم . فاضطر صاحبنا عندئذ ان يخوض المعركة للذود عن قومه ، فاجتمعت بطون الغوث على كل عشيرة رئيسها ومنهم حاتم وزيد الخيل . فكان النصر بجانبها وانهزمت جديلة بعد ان خسرت خيرة رجالها ، فهيضت شوكتها منذ يوم اليحاميم ، فلجأت الى ارض بني كلب ، فحالفتهم واقامت معهم .

على ان حاتماً وقد عرفناه شديد الافراط في السخاء ، لم يأمن شر الفاقة في حياته ، فكان يغتني مرة ويفتقر مراراً ، فاذا هذا الفارس السيد يصبح كأحد الصعاليك ، يتشرد غازياً ناهباً ، يمسك الطرق على القوافل ، ويوقع البلاء في الاحياء الآمنة ، ليعيد مكانته لدى القبيلة ، ويعود الى ما كان عليه من الجود والضيافات . وهو يفاخر بحياة التصعلك والفقر كما يفاخر بحياة الغنى والسيادة ، فيقول :

غَنينا زماناً بالتصعلك والغنى وكلاً سقاناه بكاسيهما العصرُ
فما زادنا بأواً على ذي قرابة غنانا ، ولا ازرى بأحسابنا الفقر

والصعلوك المحمود عند حاتم ، هو ذلك الذي تمثل به حياة الصعاليك الفرسان ، يصفه بشعره كما يصفه السليك وتأبط شراً وعروة بن الورد ، فيرينا اياه وقد لبس الليل الدجوجي ، ومضى مُقدماً على حوادث الدهر بعيد المطالب ، لا يحزن ان جاع ، ولا يغتر بالغنيمة ان شبع . يرمي بوجهه شطر المكارم ، يبتغي كبراها ، ويلتقي صدور الرماح يوم كريهة حتى يختضب

بالدماء . فمثله يكسب الحمد والغنى لا مثل صعلوك ذليل (لحاه الله) يرضى من العيش بلباس وطعام . ينام ليله مطمئناً ، ويتنبه في الضحى بارد الفؤاد مترهل الجسم لقعوده عن السعي ، مقتنعاً بما يجود عليه الاغنياء من طعام ومسكن .

وجدير بحاتم ، وهو الفارس النجيد ، ان يحتقر النكس الجبان . فقد كانت الشجاعة احدى الفضائل التي يتمدح بها ، ويجعل لها في شعره مكاناً رحيباً لا يقل في اتساعه عن المكان الذي يعمره بذكر جوده وضيافاته . فهو شاعر الفخر وشاعر الحماسة معاً . ولدينا من منظوماته طائفة حسنة ، يستوي بها مع طبقة من الشعراء النابهين في عصره . واذا كان شعره يفتقر الى الصور والتخيلات في مواضع كثيرة من وصف حروبه وضيفانه ، فما يلحق بشعر عنترة وطرفة والفرزدق ، فقد اوتي على الاجمال طبيعة اختيار الالفاظ النقية ، واتقان تنزيلها وتركيبها . يخرجها حلوة الاتساق فيها نغم وانسجام ، وان تكن لا تسلم في مجموعها من الصلابة والجفاء . وهو وان لم يتنزل عليه الالهام بقدر يرفعه الى طور امرىء القيس والنابغة والاعشى ، فقد أعطي من البصر الشامل في اخلاق الناس ما يجعله يقترب من زهير . واذا صح ان الانشاء صورة صاحبه ، فحاتم بن عبد الله في شعره مثال ناطق بمكارم الاخلاق .

ضيافته وفروسيته

إذا ما بخيلُ الناس هرّت كلابه — وشقّ على الضيف الضعيف عقورها

فاني جبان الكلب بيتي موطّـأ — أجود اذا ما النفسُ شحّ ضميرُها

وان كلابي قد أُهرّت وعوّدت ، — قليلٌ على من يعتريني هريرُهـا

وماتشتكي قدري اذا الناس امحلت — اؤثفها طورًا وطورًا اميرُهـا [1]

وأبرزُ قدري بالفضـاء قليلُهـا — يُرى غَيْر مضنون به ، وكثيرُها

وابليَ رهنٌ ان يكون كريمهـا — عقيرًا امامَ البيت حين اثيرها [2]

أشاورُ نفس الجود حتى تطيعني — واترك نفس البخل لا استشيرها

وليس على ناري حجاب يكنّها — لمستوبص ليلًا ، ولكن أنيرها [3]

وما تشتكيني جارتي غير أنهـا — اذا غاب عنها بعلها لا ازورها

سيبلغهـا خيري ويرجع بعلهـا — اليها ، ولم يُقصَر عليّ ستورها [4]

وخيل تهادى للطعان شهدتهـا — ولو لم اكن فيها لساء عذيرها [5]

وغمرة موتٍ ليس فيها هوادةٌ — يكونُ صُدورَ المشرفيّ جُسورها

صبرنا لها في نهكها ومصابهـا — باسيافنا حتى يبوخ سعيرهـا [6]

١ اؤثفها : أضعها على الاثافي : حجارة الموقد . اميرها : اضع فيها الميرة اي الطعام .
٢ اثيرها : اخرجها ، اي يخرجها من مراحها لينحر اكرمها للضيف .
٣ المستوبص : المستوضح النار ليهتدي بها الى من يضيفه .
٤ يقصر : يرخى .
٥ عذيرها : نصيرها .
٦ يبوخ : ينطفئ .

حاتم الصعلوك

وليلٍ بهيمٍ قد تسربلتُ هولهُ اذا الليل بالنكس الضعيف تجهما[7]

وان يكسب الصعلوك حمدًا ولا غنى اذا هو لم يركب من الامر معظما

لحى الله صعلوكاً مُناه وهمّه من العيش ان يلقى لبوساً ومطعما

ينامُ الضحى حتى اذا ليلهُ انتهى تنبه مثلوج الفؤاد مُورّما

مقيماً مع المُثرين ليس ببارحٍ اذا نال جدوى من طعامٍ ومجثما[8]

ولله صعلوكٌ يساورُ همّهُ ويمضي على الاحداث والدهر مُقدما[9]

فتى طلباتٍ لا يرى الخَمص ترحةً ولا شبعةً ان نالها عدّ مغنما[10]

اذا ما رأى يوماً مكارمِ أعرضت تيمم كبراهن ثُمّت صمّما[11]

ويغشى اذا ما كان يوم كريهة صدور العوالي فهو مختضبٌ دما

٧ النكس : الرذل .
٨ مجثماً : مكاناً يقعد فيه .
٩ يساور : يواثب . همه : عزمه .
١٠ الخمص : الجوع .
١١ ثمت : حرف عطف

قيس بن الخطيم الاوسي

الاوس والخزرج في الجاهلية ثم انصار النبي في الاسلام قبيلتان يجمعهما النسب المتشابك الى الازد ويجمع معهما بني غسان . هاجرتا من الجنوب الى الشمال في جملة القبائل اليمانية المهاجرة . وسكنتا يثرب مدينة الرسول فيما بعد . وكان اليهود قد سبقوهم اليها ، فاستوطنوها قبلهم ، فانشأوا فيها المزارع والحصون ، ونهضوا بتجارتها وصناعتها ، فخرج منهم قبائل عريقة في الشرف والثروة والعز . فنزلت الاوس والخزرج عليهم تعاني اشد الضيق في معاشها ، لا تملك ابلا ولا شاء وليس لها في يثرب نخل او زرع ، تستخرج اليسير من ارض مواتٍ ، فما ينقع لها غلة ولا يشبعها من جوع . فكان من الطبيعي ان تستقر السيادة في قبائل اليهود فيخضع لهم اولئك المهاجرون من عرب الجنوب وينـاموا على الضيم ردحاً من الزمن حتى نفّس عنهم الغساسنة بجيش بعثوه اليهم من حوران . فاوقع باشراف اليهود ، وخضد شوكتهم ، فاعتزت الاوس والخزرج ، ورفعوا رؤوسهم بعد اطراق ، وصاروا يشاركون بني اسرائيل في الاموال والحصون والشرف والسيادة ، وربما طاولوهم احياناً ، فأصابوهم بمكروه فما يجرؤ هؤلاء على مقاومتهم كفعلهم من قبل . وانما يلجأون الى المصانعة والمسالمة باسم الجوار والولاء . وصار هذا دأبهم حتى نشب الخلاف بين الاوس والخزرج فافضى الى حرب تعرف بحرب سمير تمادى فيهـا العداء ، وترددت المواثبات زهاء عشرين سنة . فاضطر المتقاتلون الى محالفة اليهود ومداراتهم واستمداد معونتهم ،

فاستعاد الاسرائيليون ما خسروه من نفوذهم وسابق عزهم ، مستفيدين من شقاق خصومهم ، وقيام بعضهم على بعض ، وانتهت حرب سُمير بتحكيم ارضى الفريقين دون ان يغسل الاحقاد من القلوب ، فلبثوا يتنافسون ويكيد واحدهم للاخر . فوقعت بينهم حروب عديدة اشهرها يوم بُعاث وما زالوا في عداء وتفرقة حتى جمعهم الاسلام .

في اثناء هذا العداء الطويل نشأ قيس بن الخطيم الاوسي . فنمت معه روح العصبية لقبيلته والحقد على الخزرج اعدائها . وشهد بعض هذه الحروب فشارك فيها مدافعاً عن قومه بسيفه وشعره فأبلى بهما بلاء مجيداً ترك له ذكراً نابهاً بين الشعراء الفرسان . وكان على فصاحته وفروسيته جميل الصورة . قال صاحب الاغاني : « كان قيس بن الخطيم مقرون الحاجبين ادعج العينين احمر الشفتين ، براق الثنايا ، كأن بينهما برقاً ، ما رأته حليلة رجل قط الا ذهب عقلها . » ويروى ان حسان بن ثابت شاعر الخزرج في الجاهلية ، وشاعر النبي في الاسلام ، اتى الخنساء يوماً وطلب اليها ان تهجو قيساً عدوه ومنافسه في الشعر ، فقالت له : « لا اهجو احداً حتى اراه . » ثم جاءت ابن الخطيم فوجدته نائماً ملتفاً في كساء . فنخسته برجلها وقالت : قم . فقام . فأخذت تتعرفه مقبلا مدبراً كأنها تعترض عبداً لتشتريه . فلما انتهت من النظر اليه عاد الى نومه ، فتركته وقد اعجبها جماله ، فقالت لحسان : والله لا اهجو هذا ابداً .

واول ما ظهر من حمية قيس واقدامه سعيه في اخذ ثأر ابيه وجده . والثأر عند العرب شريعة مقدسة كما مر بنا . وربما يرجع اصلها الى عقيدة ظمأ الميت في قبره اذا تُرك دمه يذهب هدراً . الا انها اصبحت بعد ذلك من الطبائع المركبة فيهم ، يستوي بها من يؤمن بعطشة القبر ومن يجحدها . وقد رافقتهم في اسلامهم ، ولا تزال آثارها بادية فيهم وفيمن خالطهم الى يومنا هذا .

والظاهر ان التعيير الذي كان يلحق باهل القتيل من خصومهم ومنافسيهم ، جعل طلب الثأر ملكة اصيلة فيهم يتوارثها الابناء عن الاباء ، ويورثونها لمن يأتي بعدهم . فبات الثأر عندهم لا يموت ، وان مرت عليه الاعوام الطوال ، ما دام وراءه طالب . وكثيراً ما يحرمون على انفسهم احب الاشياء اليهم كالنساء والخمر والعسل والطيب فما تحل لهم الا بعد ان يثأروا لقتيلهم . واشعار العرب تفيض بمفاخر الذين ادركوا ثاراتهم ، وتعيير الذين ذلوا وناموا عن اوتارهم . ولولا التعيير لما عرف قيس بن الخطيم ان جده واباه ماتا مقتولين فجد في طلب الثأر ليغسل العار عنه . فقد كان صبياً يوم قتل ابوه ، فربي يتيماً في حجر امه لا يعرف شيئاً من امر والده وجده ، لان أمه كتمت عنه الخبر خوفاً عليه من المهالك ، وعمدت الى كومة من تراب عند باب الدار فوضعت عليها احجاراً ، وصارت اذا حدثته عنهما دلته على قبرهما . فكبر وهو لا يشك انهما ماتا موتاً طبيعياً كما يموت الناس وكل ذي حياة . وخرج شديد البأس متين الساعدين فنازع يوماً فتى من اقربائه ، فافرط عليه حتى آلمه . فقال له ذلك الفتى : « لو جعلت شدة ساعديك على قاتل ابيك وجدك ، لكان خيراً لك من ان تخرجها علي . » فقال : « ومن قاتل ابي وجدي ؟ » قال : « سل أمك تخبرك . » فذهب الى امه واستل سيفه فوضع قائمه على الارض ، وذُبابه بين ثدييه ، وقال لها : « اخبريني من قتل ابي وجدي ؟ » قالت : « ماتا كما يموت الناس ، وهذان قبراهما بالفناء . » فقال : « والله لتخبرينني من قتلهما او لاتحاملن على هذا السيف حتى يخرج من ظهري . » فارتاعت المسكينة وقد لاح لها في عينيه بريق يدل على صدق العزيمة . فاستوقفته جازعة واختارت اهون الشرين فاخبرته ان جده قتله رجل من بني عمرو بن عامر يقال له مالك . وان اباه قُتل قبل ان يأخذ بثأره ، وقاتله رجل من عبد القيس يسكن هجر . ثم قالت له :

« يا بني ان مالكاً قاتل جدك من قوم خداش بن زهير ، ولابيك عند خداش نعمة هو شاكر لها . فأته فاستشره في امرك . واستعنه يعنك . »

فخرج قيس من ساعته ودعا بني قومه فعهد الى واحد منهم ان يتولى العناية بامه والانفاق عليها مدة غيابه . ووضع رهن تصرفه بستان التمر الذي يملكه ، واشهد عليه الحضور بانه اذا مات في رحلته هذه فان البستان يدخل في ملك الوكيل بعد وفاة والدته . واذا رجع سالماً حفظ لوكيله نصيبه من غلة التمر كل سنة . ثم ودعهم وانطلق يسأل عن خداش بن زهير ، فأخبر انه في واد قرب مكة يقال له مرّ الظهران . فقصد اليه حتى بلغ خباءه ، فنزل تحت شجرة قريبة ينزل عندها الضيوف ، ونادى امرأة خداش : « هل من طعام؟ » فخرجت على الصوت ، فلما رأته بهرها جماله ، فقالت : « والله ما عندنا من قرى نرضاه لك الا تمراً . » فقال : « لا ابالي فأخرجي ما عندك . » فرجعت الى الخباء ، وبعثت اليه بوعاء فيه تمر ، فاخذ منه تمرة فاكل شقها ورد الشق الباقي الى الوعاء . ثم ارجعه الى امرأة خداش ، وذهب في بعض حاجاته مبتعداً عن الخباء . وعاد خداش الى منزله ، فاخبرته امرأته خبر قيس وأرته شق التمرة . فقال : « هذا رجل متحرم . » اي له عندنا حرمة وذمة . ولم يلبث قيس ان اقبل على بعيره ، فنظر اليه خداش متفرساً وقال لامرأته : « هذا ضيفك ؟ » قالت : « نعم . » قال : « كأن قدمه قدم الحطيم صديقي اليثربي . » ودنا قيس من البيت فقرع الطنب بسنان رمحه واستأذن . فاذن له خداش فدخل اليه ، فسأله عن اسمه ونسبه ، وكأنه اراد ان يتبين صدق فراسته فيه . والعرب مشهورون بقيافة الاشكال والآثار . فانتسب له واطلعه على رغبته في اخذ الثأر وسأله ان يعينه وان يشير عليه . فرحب به خداش ، وذكر له نعمة ابيه عنده . وقال : « اني ما زلت اتوقع منك هذا الامر .

فاما قاتل جدك فهو ابن عم لي ، وانا اعينك عليه . ناذا اجتمعنا في نادينا ، جلست الى جنبه ، وتحدثت معه ، فاذا ضربت فخذه ، فثب اليه فاقتله . »
ثم قام ومعه قيس الى ندوة القوم ، فالفى مالكاً بينهم فاقبل اليه فجالسه واخذ يحادثه ويشاغله ، وقيس قائم وراءه ، يده على سيفه . فحين ضرب فخذه استل سيفه واهوى به على رأسه فاطاحه . فثار اليه القوم ليقتلوه ، فحال خداش بينه وبينهم . وقال لهم : « دعوه ، فانه والله ما قتل الا قاتل جـده . » وما زال بهم حتى منعهم عنه . ثم دعا بجمل من ابله فركبه وسار مع قيس يطلب العبدي قاتل والده الخطيم . فلما اقتربا من هجَر قال خداش لقيس : « اذهب وخذك وسل عن الرجل ، فاذا وجدته فقل له : ان لصاً من قومك عارضني في الطريق فاخذ متاعـاً لي . فسألت عن سيد قومه فدللت عليك ، فجئتك مستجيراً لتنطلق معي وترد عليّ متاعي . فانـ تبعك وحده فستنال منه مـا تريد . وان دعا غيره الى مرافقته ، فاضحك وقل له : ان الشريف عندنا لا يصنع كما صنعت اذا دعي الى اللص من قومه ، انما يخرج وحده بسوطه دون سيفه . فاذا رآه اللص اعطاه ما اخذ هيبة له . فقد يؤثر فيه هـذا الكلام فيأمر اصحابه بالرجوع . واما اذا ابى الا انـ يمضوا معه فأتني به ، فاني ارجو ان نقتله ، ونقتل اصحابه معه . » فمضى قيس حتى اتى العبدي فقص عليه الخبر كما علّمه خداش ، واراد العبدي ان يستعين باصحاب له ، فضحك قيس وردد على مسامعه ما تلقن من حليفه . فثارت حمية الرجل من كلام هذا الغريب ، ورأى فيه مـا يجرح عزة نفسه ، ويطعن في صحة سيادته ، فامر اصحابه بالرجوع ومضى مع قيس حتى طلعا على خداش . فقال خداش : « اختر يا قيس ، اما انـ اعينك عليه ، واما ان اكفيك اياه . » قال : « لا اريد واحدة منهما ، ولكن ان قتلني فلا يفلتن منك . » ثم ثار الى

العبدي فطعنه بالحربة في خاصرته فانفذها من الجانب الآخر ، فخر قتيلًا . فلما فرغ منه قال له خداش : « ان فررنا الآن طلبنا قومه . ولكن ادخل بنا مكاناً قريباً نستتر به . فان قومه لا يظنون انك قتلته واقمت قريباً منه . فلا بد ان يفتقدوه بعد قليل فيقتفوا اثاره فاذا وجدوه قتيلًا خرجوا يطلبوننا في كل وجه . حتى اذا يئسوا من ادراكنا رجعوا الى بيوتهم . » ثم دخلا في دارات من الرمل فاختبآ عندها . وخرج قوم العبدي بعد ان افتقدوه يتتبعون اثره ، فوجدوه قتيلًا ، فجدوا في طلب قيس يضربون في كل وجه من الارض ، ولكن على غير جدوى . فيئسوا اخيراً من اللحاق به فرجعوا الى بيوتهم . واقام قيس وخداش مكانهما اياماً حتى انقطع الطلب عنهما فرجعا الى بلديهما سالمين وقد اخذ قيس بثأر ابيه وجده سالكاً اليه طريق الحيلة والغدر ، وهي طريق لا تليق بالفارس الشجاع اذا نظرنا اليها من ناحية الفروسية وشرفها . ولكنها تصبح مرعية مألوفة اذا اتيناها من جانب شريعة الثأر . فان طالب الدم يجوز له عندهم ان يتخذ اي وسيلة كانت للوصول الى غايته . ويستطيع ان يلجأ الى الخدع الخبيثة لكي لا يعرض نفسه للهلاك فيضيف الى الدم المطلوب دماً جديداً يلقيه على عواتق اهله . على اننا نعجب لخداش بن زهير كيف يخون ابن عمه ويساعد الغريب على الفتك به ، وان تكن عليه نعمة من ابيه . فان العصبية القبلية تفرض على الجاهلي ان ينصر اخاه اي ابن عمه ظالماً او مظلوماً الا اذا كانت القبيلة قد خلعت الرجل وطردته عنها تخلصاً من جرائمه . ولم يكن مالك كما يبدو طريداً خليعاً في عشيرته . فتسليمه على هذا الشكل اليهوذي قبيح في العرف القبلي لا تبرره نعمة الخطيم . . وهناك رواية لابن الاعرابي عن المفضل الضبي ، تخالف هذه الرواية التي هي من اخبار ابن الكلبي ، فتجعل مالكاً من الخزرج لا من عامر وتزعم ان خداشاً نهض ببني

قومه لنجدة قيس ، وجاء بهم الى يثرب . وان قيساً رأى قاتل جده في السوق فطعنه بحربة فقتله . فثار اليه رهط القتيل يريدونه . فحالت بنو عامر دونه ومنعوه .

ومهما يكن من امر الروايتين فان قيساً بلغ امنيته ، وثأر لابويه ، الا ان فروسيته ظهرت على شيء من التشويه ، لا تزيله عادتهم في طلب الثأر . فعلينا ان نلتمس حقيقتها في ايام الاوس والخزرج ، فقد ذكر لنا منها في شعره حروباً شهدها وحروباً لم يشهدها . ووصف اقدامه وحسن بلائه في اعداء قومه . بيد ان روايات هذه المواقع لا تشير الى انه كان يوماً رئيساً للجيش وهو نفسه يعطي الآمارة لغيره اذ يقول :

ولما هبطنا السهل قال اميرنا : حرامٌ علينا الخمر ما لم نضارب

ولكنه يخبرنا انه خرج يوم الحديقة الى الخزرج يقاتلهم حاسراً لا مغفر على رأسه :

اجالدُهم يوم الحديقة حاسراً كأن يدي بالسيف مخراقُ لاعبِ

ويخبرنا صاحب الاغاني رافعاً سنده الى انس بن مالك ، ان النبي كان يوماً في مجلس ليس فيه الا خزرجي ، فاستنشدهم قصيدة قيس : « اتعرف رسماً كاطّراد المذاهب » فانشده بعضهم اياها . فلما بلغ الى قوله : « اجالدهم يوم الحديقة حاسراً » التفت الرسول اليهم فقال : « هل كان كما ذكر ؟ » فشهد له ثابت بن شماس الخزرجي وقال : « والذي بعثك بالحق يا رسول الله ، لقد خرج الينا يوم سابع عرسه عليه غِلالة وملحفة مورّسة . فجالدنا كما ذكر . »

فخروجه الى الحرب بثياب العرس فيه اقدام وشجاعة ، فيه قلة احتفال بالعدو ، فيه ما شاءت البطولة ، وليس فيه روية الفارس ، واحتياطه للامور . على ان الرواة لا يجعلون شأناً كبيراً ليوم الحديقة ، ولا لغيره من وقائع الاوس

والخزرج ما خلا يوم بُعاث فقد اجمعوا على انه اشدها وطأة واحماها وطيساً . وكان النصر فيه للاوس فخصه قيس باحسن شعره في قصيدته التي عدها ابو زيد القرشي من المذهبات ، مفتخراً على الخزرج منددا بهم ، وجاء كلامه فيها بصيغة الجمع ، دون ان يبين شيئاً خاصاً من اعماله . فيمكن القول ان قيساً من فرسان عشيرته المعدودين ، وليس بالفارس الذي تعتمد عليه القبيلة في الملمات ، وتلقي اليه قيادها في المعامع . بيد انها اذا حرمته رئاسة الجيش فقد ولته بدلا منها رئاسة الشعر فكان لسانها الناطق بمآثرها ، المدافع عن اعراضها . واليه يعود الفضل في مقارعة حسان بن ثابت شاعر الخزرج لان حروب العرب يختلط فيها هدير الشعراء بغمغمة الابطال . وربما انتهت معركة السلاح ، ولا تنتهي معركة الفخر والهجاء . فبين قيس وحسان من الملاحيات ما لا يقل اثره في نفوس المتحاربين عن ايامهم كلها ، وبها اثبت ابن الخطيم ان شيطانه لم يكن انثى امام خصمٍ شيطانه ذكر . ففي شعره من الطلاوة والرونق والانسجام ما لا يحطه عن قدر حسان ، وان يكن شاعر الخزرج اغزر نهراً وانبه ذكراً . ومذهبة قيس تفوق مذهبة ابن ثابت بنفسها الشعري واطراد ابياتها ، وقد اثبتنا منها نخبة صالحة في مكان آخر . ويروي صاحب الاغاني ان النابغة قدم المدينة فدخل السوق ، فنزل عن راحلته ، ثم جثا على ركبتيه ، فاعتمد على عصاه وانشأ ينشد قصيدته الجميلة التي يقول فيها :

اسائلها وقد سفحت دموعي كأنّ مفيضَهنّ غروبُ شنّ
بكاء حمامة ، تدعو هديلًا ، مُفجّعةٍ ، على فَنَنٍ تُغني

فلما فرغ منها قال : « ألا رجلٌ ينشد ؟ » فتقدم قيس بن الخطيم وانشده المذهبة . فاعجب بها وقال له : « انت اشعر الناس يا ابن اخي . » وكان حسان حاضراً فداخله الغيظ ، فتقدم فجلس بين يدي حكم عكاظ ، وكان

النابغة يعرفه ، ويعلم ما بين الاوس والخزرج من التنافس والعداء . فقال له : « انشد ، فوالله انك لشاعر قبل ان تتكلم . » فانشده حسان ، فزوده النابغة بالحكم الذي قضى به لقيس : « انت اشعر النـاس . » وفي المساواة بين الشاعرين حكمة من النابغة لانه لو فضل واحداً منهما عـلى الآخر ، لانتهى الامر بمعركة بين العشيرتين .

ولعل اطرف شيء في ملاحياتهما اتخاذهما الغزل وسيلة للتعيير . وكان البادىء حسان فانه اخذ يشبب بليلى اخت ابن الخطيم ويصف محاسنها نكاية في اخيها ، فاستاء قيس منه ورد عليه متغزلا بامرأته عمرة :

أجدّ بعمرةَ غنيانهـا فتهجرَ ام شأْننا شأْنها

فاجتمع لهما في المنافسة ما لم يجتمع لغيرهمـا من تشبيب يقصد به الهجاء . ومـا قصر قيس في شيء من الشعر عن حسان ، ولكنه اربى عليه بالفروسية والاقدام . فشاعر الخزرج كان جباناً ضعيف القلب ، يستطيع الحرب بلسانه ، ولا يستطيعها بسيفه ، فاذا التقى قيساً وجهـاً لوجه تضاءل دونه خوفاً ، واستخذى له متصاغراً .

حدّث صاحب الاغاني ان حسان شرب يومـاً مع سلّام بن مشكم احد اشراف اليهود ، ومعهما قيس بن الخطيم ، وكانت الاوس والخزرج يومئذ في موادعة ، وقد وضعت الحرب اوزارها بينهم . فلمـا اخذ منهم الشراب قال قيس لحسان : « تعال اشاربك . » فتشاربا في اناء عظيم حتى بقي منه شيء . فقال قيس لحسان : « اشربه . » فعرف حسان الشر في وجهه . فقال : « أوخيراً من ذلك ، اجعل لك الغلبة علي . » فقال : « لا الا ان تشربه . » بافى حسان خوفاً من عاقبة الامر . فقال سلام بن مشكم : « يا ابا يزيد ، لا تكرهه على ما لا يشتهي ، انمـا دعوته لاكرامه ، ولم تدعه لتستخف به ،

وتسيء مجالسته . » فقال له قيس : « أفتدعوني انت على ان تسيء مجالستي ؟ » فقال سلام : « ما في هذا سوء مجالسة ، وما حملتُ عليك الا لانك مني ، واني حليفك وليست عليك غضاضة في ذلك . وهذا رجل من الخزرج قد اكرمته وادخلته منزلي ، فيجب ان تكرم لي من اكرمته . ولعمري ان في الصحو لما تكتفون به من حروبكم . » فسكت قيس اكراماً لسلام . ونجا حسان من مكروه اوشك ان يصيبه .

هذه حاله مع ابن الخطيم ، يقاومه بالشعر ، ولا يجرؤ على منازلته حين يلتقيان . حتى قتل قيس فاستراح من خصم عنيد مخيف . وكان مقتله غيلة وليس في معركة ، ذلك ان الخزرج لبثت بعد هدوء الحرب ، تتذكره حاقدة عليه لاثخانه فيهم بشعره وحسامه . فتآمروا وتواعدوا قتله . فاتفق ان خرج عشية من منزله يريد مالا له في بستان الشوط فمر بحصن للخزرج واذا بثلاثة اسهم تتساقط عليه من الحصن فيقع احدها في صدره ، فينطرح صريعاً بين الحياة والموت . ثم جاء قومه فحملوه الى منزله ، وقرروا ان يأخذوا بثأره عاجلاً ، فبحثوا عن رجل من الخزرج يكون كفؤاً له ، فلم يروا الا ابا صعصعة يزيد بن عوف . فاندس اليه رجل منهم حتى اتى منزله فاغتاله . ثم احتز رأسه فحمله الى قيس وهو بآخر رمق فقال : « يا قيس قد ادركت بثأرك . » فقال قيس : « ثكلتك امك ان كان غير ابي صعصعة . » فقال : « هو ابو صعصعة . » واراه الرأس فانبسطت اسارير المحتضر ارتياحاً ثم لم يلبث ان اسلم الروح قرير العين لا يخشى عطشة القبر . وكان موته نحو سنة ٦١٢ م .

قيس بن الخطيم الاوسي

حروب الاوس والخزرج

دَعوتُ بَني عَوفٍ لِحَقْنِ دِمائِهم ... فَلَمَّا أَبَوا، سامَحتُ في حَربِ حاطِبِ [1]

وَكُنتُ امرأً لا أَبعَثُ الحربَ ظالِماً ... فَلَمَّا أَبوا، أَشعَلتُ مِن كُلِّ جانِبِ

اذا لَمْ يَكُنْ عن غايةِ الحربِ مَدفَعٌ ... فأَهلاً بها، اذ لم تَزَلْ في المَرَاحِبِ

فَلَمَّا رأَيْتُ الحَرْبَ حَرباً تَجَرَّدَتْ ... لَبِسْتُ مع البُردَينِ ثَوْبَ المُحارِبِ

وَلَمَّا هَبطْنَا السَّهْلَ قَال اميرُنا : ... حَرامٌ عَلَيْنا الخَمْرُ، ما لم نُضارِبِ

فَتَابَعَهُ منَّا رِجالٌ أَعِزَّةٌ ... فَما رَجَعُوا حَتَّى أُحِلَّتْ لِشَارِبِ

أُجالِدُهُمْ يَوْمَ الحَديقَةِ حاسِراً ... كَأَنَّ يدي بِالسَّيْفِ مِخراقُ لاعِبِ [2]

ويومَ بُعاثٍ أَسلَمَتْنا سُيوفُنا ... الى حَسَبٍ في جَذْمِ غسَّانَ ثاقِبِ [3]

يُجَرَّدْن بِيضاً كُلَّ يَوْمِ كَرِيهَةٍ، ... وَيُغْمَدْنَ حُمراً خاضِباتِ المَضارِبِ

رَضِيتُ لِعَوْفٍ أن تَقُولَ نِساؤُهُم، ... وَيَهْزأْنَ مِنْهُمْ : لَيْتَنَا لم نُحارِبِ !

١ بنو عوف من بني النجار ثم من الخزرج . حاطب من سادات الاوس وقعت حرب بسببه بين قبيلته والخزرج

٢ الحديقة : قرية من اعراص يثرب كانت بها وقعة بين الاوس والخزرج . الحاسر : من لا مغفر على رأسه . المخراق : خرقة يفتلها الصبيان ويتضاربون بها لاعبين، او سيف من خشب : يريد انه كان يضرب بالسيف في سرعة غير حافل كما يضرب الصبيان بمخاريقهم، غير حافلين بضاربها .

٣ بعاث : موضع في نواحي يثرب جرت به موقعة بين الاوس والخزرج . الجذم : الاصل . الثاقب : النافذ الممتد : يريد انهم حققوا فخر انتسابهم الى غسان .

صَبَحْنَاكُمُ بَيْضَاءَ يَبْرُقُ بَيْضُهَا ... تُبِينُ خَلَاخِيْلَ ٱلنِّسَاءِ ٱلْهَوارِبِ [٤]

فَلَوْلا ذَرا ٱلآطَامِ، قد تعلَمُونَهُ، وتَرْكُ ٱلفَضَا، شُورِكْتُمُوا في ٱلكَواعِبِ [٥]

أصابَ صَرِيحَ ٱلقَومِ غَرْبُ سُيُوفِنَا، ... وغادَرنَ ابناءَ ٱلإِماءِ ٱلحَواطِبِ [٦]

وأُبْنَا الى ابنائِنَا ونسائِنَا ... وما مَنْ تَرَكْنَا في بُعاثٍ، بآيِبِ

٤ البيضاء : الحرب غلب عليها لون السيوف . البيض : خوذ الحديد او هي البيض اي السيوف . الهوارب : يريد ان النساء تشمر للهرب من ذعرها فتظهر خلاخيلها .

٥ الذرا : ما يستتر به من حائط وسواه . الاطام : الحصون . يقول : لو لم تتركوا الفضاء وتستتروا بالحصون لدخلتم في عداد النساء السبايا .

٦ الصريح : السيد الواضح النسب . غرب السيف : حده . الاماء الحواطب : الخادمات حمالات الحطب ، اي ان سيوفهم تركت هؤلاء فلم تصبهم لحقارة شأنهم .

عامر بن الطفيل العامري

فارس من ابطال العرب المعدودين ، عرفت له الغارات البعيدة ، والوقائع المشهورة في قبائل مَذحِج وخثعم وغطفان وغيرهم . نازل اشد فرسان الجاهلية فعرفوا بلاءه في الحروب حتى روي ان عمرو بن معـدي كرب كان يحسب له حساباً ، ويجعله احد الاربعة الذين يبالي بهم اذا خرج بظعينة الى مياه بني معد اي القبائل العدنانية . وانه لاقاه وخبر شجاعته فقال فيه : عامر سريع الطعن على الصوت .

واضاف الى شجاعته فروسية ضرب بها المثل فكان احذق من امتطى صهوة فرس ، وألبق من ادار عناناً . وفرسه المزنوق من اكرم الخيول العربية ، خصه الشاعر الفارس بنصيب وافر من شعره . واجمله ما جاء في قصيدته التي ذكر بها يوم « فَيف الريح » فقـد عني فيهـا عناية خاصة بالتحدث عن جواده في المعركة ومخاطبته اياه زاجراً محرضاً عندما رآه يَزورّ من وقع الرماح فذكرنا بعنترة وقوله :

فازورّ من وقعِ القنا بلبانِهِ ... فشكا اليّ بعبرة وتحمحُمِ

ولكن عامراً لم يبلغ مبلغ عنترة في جمال التصوير . فأسود بني عبس رفع جواده الى درجة الشعور الانساني في قوله انه شكا اليه ، وكانت شكواه عبرة تترقرق في عينه ، وحمحمة تنبعث من صدره . على حين ان جواد ابن الطفيل لا تظهر له نفسية عندما يقول فيه :

اذا ازورّ من وقع الرماح زجرتُه وقلت له: ارجع مقبلاً غير مدبر

وانما يكلمه كشخص جامد يستمع دون ان تبدوَ منه اشارة رضى او نفور ، فيُفهمه ان الفرار عار ومذلة ، ولا عذر للمرء ما لم يحسن البلاء . ويحثه على الثبات ذاكراً له ان رماح الاعداء ممتدة الى صدر فارسه ، وانه جواد كريم الاصل لا يجمل به الا الصبر .

بيد ان هذه الابيات تعطينا صورة بينة عن شجاعة الفارس واعتماده في الحرب على فرسه الكريم . وعامر بن الطفيل جاهد خير جهاد يوم فيف الريح ، ولم يبرح المعركة حتى بلّ الدم نحره وصدر جواده فجرى خطوطاً طويلة « كهُدّاب الدمقس المسيّر . » ويوم فيف الريح من ايام العرب المشهورة تجمعت فيه القبائل اليمانية من مَذحِج ومُراد وجُعفى وزُبيد وخثعم ، واكلُب طراً كما يقول الشاعر . واغارت على بني عامر في مكان يقال له فيف الريح ، فقاتل العامريون وعلى رأسهم ابو بَراء ملاعب الاسنة عم عامر بن الطفيل . فتكاثرت الجموع اليمانية عليهم ، واحاطت بهم تعضهم بانياب رماحها ، فتقهقرت بنو عامر وتبعثرت ، وكادت تولي الادبار لو لم يقبل عليها عامر بن الطفيل ، فيشددها ، ويكر على القوم في مقدمتها ، رامياً بنفسه في اشد المواقف واخطرها . حتى صار الفارس من قبيلته اذا طعن طعنة ، او ضرب ضربة ، نادى ابا علي (كنية عامر) . ولكن التوفيق لم يكن حليف الشاعر الفارس في هذا اليوم ، فالاعداء جماهير عديدة لا تذكر عندها بنو عامر :

فلو كان جمعٌ مثلنا لم نُبالهم ولكن اتتنا اسرةٌ ذاتُ مَفخرِ
اتونا بفرسان العريضة كلّها واكلُبَ طرّاً في لباس السّنوّرِ

وفيهم من الفرسان المعروفين امثال أنس بن مُدركة ، ومُسهر بن يزيد الحارثي . فبينا عامر يقاتل مستأسداً يكرّ من جانب الى آخر اتاه مسهر من ورائه حتى

داناه ، فمد الرمح الى اذنه وصاح به : « عندك يا عامر ! » ثم طعنه طعنة فأصاب عينه ، فوثب عامر عن ظهر جواده ونجا على رجليه يتصبب الدم منه ، ولم يبق له الا عين واحدة ، وفي ذلك يقول :

لعَمري ، وما عُمري عليّ بهيّنٍ ، لقد شان حُرّ الوجه طعنةُ مُسهرِ

فأضيف عيب العوَر الى عيب آخر فيه وهو العقم ، فقد كان عاقراً ميت الجرثومة ، لا يأتي باولاد . الا انه يعزي نفسه بان عيب الجبن بعيد عنه ، والاعداء تعلم كيف كان يكر عليهم عشية فيف الريح :

فبئس الفتى ان كنت أعور عاقراً جباناً ، فما عُذري لدى كل مَحضرِ

وقد علموا اني اكرّ عليهمُ عشيّةَ فَيْفِ الريحِ كرّ المُدوَّرِ

وطارت لعامر شهرة جابت الصحراء بطولها وعرضها ، فكانت فرسان الجاهلية تتحدث ببأسه ونجدته ، وتلقبه بفارس قيس لا بفارس عامر وحدها . ويقول ابن الانباري في شرح المفضليات ان شهرته بلغت قيصر الروم فكان اذا قدم عليه قادم من العرب ، سأله : ما بينك وبين عامر بن الطفيل ؟ فان ذكر له نسباً يجمع بينهما ، عظمت مكانته عند الملك ، وارتفع شأنه . ومهما يكن لهذه الرواية نصيب من الشك ، فان فيها دليلاً قوياً على شهرة ابن الطفيل ، وانتشار اسمه بين معاصريه . ولكنه كان يسيء الى هذه الشهرة التي اغتذت من بسالته واقدامه ، بخصال مذمومة لا تحمد عند سيد القبيلة وفارسها ، فقد كانت فيه عنجهية البدوي الغليظ : جفاء طبع ، وكبرياء ، وحب للظلم ، وقلة في العطاء ، وكلها من عيوب السيادة عندهم ، بيد ان بني عامر تغافلت عنها جميعاً وارتضت به سيداً لها بعد ان شاخ وخرف عمه ملاعب الاسنة . فأبى عامر ان تُرى سيادته وراثة ، ومجده من مجد آبائه ، لما فيه من عتوٍّ وغطرسة ، مع انه كان من اشرف بيت في قيس عيلان :

وانّي وان كنت ابن سيّد عامر ، وفارسها المشهورَ في كل موكب ِ
فما سودتني عامرٌ عن وراثة ٍ ، أبى اللهُ ان اسمو بأمّ ٍ ولا اب ِ
ولكنني أحمي حِماهـا ، وأتقي أذاها ، وارمي من رماها ، بمنكبي

هذا الجفاء في طبع عامر كانت تلقي عليه الشجاعة غشاء يستره في مواقف الاهوال ، ثم لا يلبث ان ينكشف الغطاء عنه في مصاحبته للناس ، وكثرة اعتداده بنفسه ، فيحيطه بجرأة غريبة واباء عال يدعوان الى الاعجاب . ويقول الرواة انه كان في جملة الوفد الذي ارسله الملك النعمان الى كسرى ليريه فضل العرب بعدما سمع منه طعناً عليهم . وقد تكلم عامر بين يدي ملك الفرس ، فظهرت عليه غلظة ، وبدا منه تهديد يتناول مصير العرش الفارسي . فقال له كسرى : « متى تكاهنت يا ابن الطفيل ؟ » قال : « لست بكاهن ، ولكني بالرمح طاعن . » قال كسرى : « فان اتاك آت ٍ من جهة عينك العوراء ، ما انت صانع ؟ » قال : « ما هيبتي في قفاي بدون هيبتي في وجهي . » ومع ما يحيط خبر الوفد باجمعه من شك فان الكلام الذي اضيف الى عامر لا ينافي جرأته وجفاء طبعه .

وبلغت به عنجهيته ان اعتدى على جوار عمه ابي براء ملاعب الاسنة . وعمه يومئذ سيد بني عامر ، فلم يرع له حرمة عهده للنبي محمد . وكان ابو براء قد وفد على الرسول في المدينة سنة ٤ هـ (٦٢٥ م) وقدّم اليه هدية ، فقال له الرسول : « يا ابا براء ، لا اقبل هدية مشرك ، فأسلم ان اردت ان اقبل هديتك . » ثم عرض عليه الاسلام ، وبيّن له ما وعد الله المؤمنين من الثواب ، وقرأ عليه القرآن . فأبى ملاعب الاسنة ان يترك دينه القديم ، ولكنه قال للنبي : « يا محمد ، لو بعثت رجالا من اصحابك الى اهل نجد ، فدعوهم الى امرك رجوت ان يستجيبوا لك . » فقال الرسول : « اني اخشى عليهم اهل

نجد . » قال ابو براء : « انا جار لهم ، فابعثهم ، فليدعوا الناس الى امرك . »
فوجه الرسول المنذر بن عمرو في اربعين رجلاً من اصحابه ، من خيار المسلمين .
فساروا حتى نزلوا بئر معونة ، وهي ارض بين بني عامر وحرّة بني سُليم .
ثم بعثوا احدهم حرام بن ملحان بكتاب الرسول الى عامر بن الطفيل . فما ان
قدم عليه وابلغه اياه حتى استشاط عامر غيظاً . وكأن كبرياءه تألمت من هذه
الدعوة التي يدعوه اليها النبي ، فوثب على الصحابي فقتله . ثم استصرخ بني عامر
على المسلمين النازلين في بئر معونة ، فأبوا ان يجيبوه ، وقالوا : ان ابا براء عقد
لهم جواراً ، ونحن لا ننقض عهده . فلما يئس منهم راح يستصرخ بني سُليم
وسواهم من قيس عيلان ، فاجابوا نداءه ، وهبّوا معه الى بئر معونة ، فاحاطوا
بالمسلمين ، فدافع هؤلاء عن نفوسهم حتى قتلوا عن آخرهم ، الا اثنين احدهما
كعب بن زيد تُرك بين القتلى جريحاً فنجا . والآخر عمرو بن أميّة أخذ اسيراً .
فلما علم عامر انه من مضر اطلقه وجزّ ناصيته . وقيل بل اعتقه وفاء عن امه ،
وكانت قد نذرت ان تعتق رقبة . فلما قدم عمرو على النبي فأخبره الخبر ، قال :
« هذا عمل ابي براء ، قد كنت لهذا كارهاً متخوفاً . » فبلغ ذلك ابا براء ،
فشق عليه ما فعل عامر . ثم طفق حسان بن ثابت وكعب بن مالك شاعرا
الرسول يحرضان ابناء ابي براء واخوته باشعارهما ، ويستفزانهم على عامر مقبحين
غدره ، ونقضه لجوار ابيهم واخيهم ، حتى ثارت الحمية في رأس ربيعة بن ابي براء ،
فشدّ على عامر برمحه فطعنه طعنة وقعت في فخذه ولم تصب منه مقتلاً ، فخرّ
عامر عن فرسه جريحاً . فادركه قومه وحملوه ، فقال لهم : « هذا عمل ابي
براء . ان متّ فدمي لعمي ، فلا يُتبَعنّ به . وان اعش فسأرى رأيي فيما
اتى اليّ . »

ويظهر ان الخلاف بين عامر وابناء عمه وقف عند هذا الحد ، فهم اكتفوا

عما اصابه من ربيعة ، وهو سكت عنهم فلم يشأ ان يتسع الخرق بينه وبين عمه بعد ان اعتدى ظلماً على جواره . ثم انه كان يتوقع ان تصير السيادة اليه حين يمسي ابو براء عاجزاً عن القيام باعبائها . فليس من مصلحته ان يبقي في عشيرته من يعاكسه ، او يضمر له العداء ، ولا سيما اعمامه وابناء اعمامه . وما طال به الامر حتى تم له ما كان يتوقع ، فان ابا براء كبر واهتّر ولم يبق صالحاً لمهام السيادة ، فاجتمعت بنو عامر وتشاورت في الامر ثم انتخبت فارسها عامر بن الطفيل سيداً لها على ما فيه من نقائص السيد : الظلم وجفاء الطبع والحرص على المال . ومع ذلك لم تشأ عنجهية عامر ان تعتبر سيادته ارثاً عن آبائه لانه لا يريد ان يسمو الا بنفسه :

فما سودتني عامرٌ عن وراثةٍ ، ابى الله ان اسمو بأمٍ ولا ابِ

وكأن هذا الفارس المتغطرس لم ينس الدعوة التي دعاه اليها نبي المسلمين ، فلبثت تتكأ حزازات صدره وتغمز من كبريائه حتى بلغه ما كان من انتصار الرسول على اعداء دينه ، وفتحه مكة والطائف ، وخضوع قريش وثقيف له بعد استكبارهم . وجاءت على اثر ذلك السنة التاسعة للهجرة ، سنة الوفود ، فضربت اليه قبائل العرب من كل صوب تبايعه على الاسلام وتدخل فيه افواجاً . فساء عامراً ان يصير هذا الامر لغيره وفي نفسه من الجرأة والشجاعة والكبر ، ما يزين له ابعد المطامع اقربها اليه . فحدثته نفسه ان يقدم على النبي في وفد من بني عامر ، لعله يشاطره السلطة او يجعله ولياً لعهده . فخرج في السنة العاشرة (٦٣١ م) على رأس جماعة من قومه ، ومعه ابن عمه اربد اخو لبيد الشاعر . ويخبرنا ابن هشام والطبري ان قومه قالوا له : « يا عامر ، ان الناس قد اسلموا فأسلم . » فأجابهم : « والله لقد كنت آليت ان لا انتهي حتى تتبع العرب عقبي ، أفأنا اتبع عقب هذا الفتى من قريش ! » ثم قال لاربد :

« اذا قدمنا على الرجل فاني سأشغل عنك وجهه ، فاذا فعلت ذلك ، فاعْلُه بالسيف . » فلما قدموا على الرسول ومثلوا في حضرته ، قال عامر : يا محمد ، خالّني (اي اتخذني خليلا) . فقال له النبي : « لا والله حتى تؤمن بالله وحده . » فرضي عامر ان يؤمن على ان يكون له الوبَر (اي سكان الخيام) وللنبي المدَر (اي سكان الطين والابنية) ، وان يجعل له نصف ثمار المدينة ، ويكون له الامر من بعده . فرفض النبي بطبيعة الحال هذه المساومة الطفيلية . ثم طفق عامر يشاغله بالكلام منتظراً من اربد ان يقوم بما اتفقا عليه ، حتى طال الامر ولم يفعل اربد شيئاً ، فخرج عامر مغضباً وهو يقول : « والله لاملأنها عليك خيلاً جُرداً ، ورجالا مُرداً ، ولأربطنّ بكل نخلة فرساً ! » فقال الرسول : « اللهم اكفني عامراً واهدِ بني عامر . »

ولما ابتعد جعل يؤنب ابن عمه ويقول : « ويلك يا اربد ! اين ما كنت امرتك بـه ؟ والله ما كان على ظهر الارض رجل هو اخوف عنـدي على نفسي منك ، وأيم الله ، لا اخافك بعـد اليوم ابداً . » فقال اربد : « لا أبا لك ! لا تعجَل عليّ ، والله ما هممتُ بالذي امرتني به مرة الا دخلتَ بيني وبين الرجل حتى ما ارى غيرك ، أفأضربك بالسيف ؟ » ثم انطلقوا الى بلادهم قافلين ، فمات عامر في الطريق ولم يسمح له الاجل ان يبرّ بقسمه فيملأ الارض على النبي خيلاً ورجالاً . قيل اصابه الطاعون في عنقه فحبسه في بيت امرأة من بني سلول ، قبيلة قيسية مستضعفة ، فبات يتمزق من الم وغيظه ، يؤلمه الطاعون باوجاعه ، ويؤلمه مرأى الغدّة في عنقه تشوه شكله ، ويؤلمه فوق ذلك ان تجرح كبرياؤه فيلجأ الى بيت امرأة من سلول . فجعل يثب الى السماء ويصيح : « يا موت ابرز لي ، اغدّة كغدّة البعير ، وموت في بيت سلولية ! » وقضى هذا الفارس المتجبر نحبه في مكانه وهو على اشد ما يكون من الآلام .

عامر بن الطفيل العامري

يوم فيف الريح

لقد علمت عُليا هوازن أنني — أنا الفارس الحامي حقيقة جعفر [1]

وقد علم المزنوق أني أكره — على جمعهم كرّ المنيح المشهر [2]

اذا ازورّ من وقع الرماح زجرته — وقلت له: ارجع مقبلاً غير مدبر

وأنبأته أن الفرار خزاية — على المرء ما لم يبل جهداً ويعذر [3]

ألست ترى أرماحهم فيّ شرّعاً — وأنت حصان ماجد العرق فاصبر

لعمري، وما عمري عليّ بهيّن، — لقد شان حرّ الوجه طعنة مسهر [4]

فبئس الفتى إن كنت أعور عاقراً — جباناً، فما عذري لدى كل محضر

وقد علموا أني أكرّ عليهم — عشية فيف الريح كرّ المدوّر [5]

وما رمت حتى بلّ نحري وصدره — نجيع كهدّاب الدمقس المسيّر [6]

أقول لنفس لا يجاد بمثلها — أقلّي المزاح إنني غير مقصر

١ هوازن : قبيلة جامعة من قيس عيلان يتحدر منها بنو عامر قبيلة الشاعر . جعفر : احد اجداده ..

٢ المزنوق : فرس الشاعر . المنيح : من قداح الميسر لا حظ معه لمن يخرج له .

٣ يعذر : يصير معذوراً . ٤ مسهر الحارثي فقأ عين عامر برمحه يوم فيف الريح . ٥ المدور : يريد به الاسد لاستدارة وجهه . ٦ رمت : برحت . النجيع : الدم . الهداب : ما استرسل من اطراف الثوب وغيره . الدمقس : الحرير . المسير : المخطط طولا .

فلو كان جَمْعٌ مِثْلَنا لم نُبالِهِمْ ... ولكِنْ أتَتْنا أسرةٌ ذات مَفْخَرِ [٧]

أتَوْنا بفُرسان العَرِيضَةِ كُلِّها ... وأكْلُبَ طُرًّا في لِبَاس السَّنَوَّرِ [٨]

٧ اسرة ذات مفخر : اي عددها كثير ، والعرب يفتخرون بكثرة العدد .

٨ العريضة : يريد بها اليمن .. وفرسانها : اي قبائل مذحج ومراد وخثعم وزبيد وجعفى ، واكلب جميعها . السنور : الدروع .

زيد الخيل الطائي

بين المياه الجارية ، والمراعي الخصيبة ، وتحت الشجر والنخيل ، على جبلي اجأ وسلمى ، منازل طيّء الاجبال ، نشأ هذا الشاعر الفارس من قبيلة يمانية هاجرت الى ديار العدنانية فيمن هاجر من قبائل اليمن ، فنزلت أمنع ارض فيها وامرعها ، لا ينفذ الغزاة في شعابها ولا ينفد ماؤها وكلاؤها . فنمت وتكاثرت وعظم شأنها ، واشتهر فيها سادات واجواد وفرسان وشعراء . فمن ذوائبها إياس بن قبيصة ، جليس كسرى ابرويز ، وعامله على الحيرة وعين التمر . ومن اجوادها اسخى العرب حاتم الطائي . ومن فرسانها واحد الابطال المقدمين في الجاهلية زيد الخيل . وكلهم شعراء . واضيفت الخيل الى زيد لشغفه بها ، وكثرة ما اجتمع لديه منها . مع انها كانت غالية الاثمان لا يقتنيها الا فارس شجاع يغنمها في غاراته ، او كريم موسر يجود في شرائها بماله . ولم يكن لاحد من قومه ، ولا لكثير من العرب الا الفرس والفرسان ، كما يقول صاحب الاغاني . وقد عُرفت له ستة افراس باسمائها وهي : الهطّال والكميت والورد وكامل ودؤول ولاحق .

وكان زيد طُوالاً عملاقاً يركب الفرس العظيم فتخطّ رجلاه في الارض كأنه راكب على حمار . ولهيكله هيبة وجمال يؤخذ بهما من يراه . فعامر بن الطفيل على شجاعته راعه منظره عندما نزل اليه يبارزه . فحين عرفه فضل ان يستأسر له على ان يحاربه ويخاطر بنفسه . وقدم على النبي في وفد بني طي سنة

تسع للهجرة ، فلما ابصره النبي أعجب به فقال : « ما وُصف لي احد في الجاهلية فرأيته في الاسلام ، الا رأيته دون الصفة غيرك . »

واسلم زيد الخيل على يده ، فسماه زيد الخير وأقطعه ارضاً يستغلها . وكانت المدينة يومئذ وبئة ترعى في مناهلها الحمّى ، فانصرف شاعرنا الى بلده يحمل في امعائه جرثومتها القاتلة ، يلفحه حرها فتقضي عليه .

وزيد من الشعراء المقلين ، يقصر شعره على مفاخره وغزواته ، ويخص جانباً منه بذكر جياده في ميادين القتال شأن امثاله من الفرسان . وشعره يميل الى الجودة في جملته ، متين السبك على غير خشونة ، تحتفل به الوقائع والغزوات ، فيستفزه الفخر ، وتستحرّ به الحماسة ، وليس فيه غلو ، وليس فيه تكثّر . ولنا مثال منه قطعتان ، تعرض الاولى صورة لماحة للشاعر الفارس وهو يكر على الاعداء ليدافع عن قبيلته ، وقد استغاثت به . وصورة عن فرسه الورد يرمي به في نحور الفرسان حتى كلّ وبان عليه الفتور ، وتتناوله اطراف الرماح ، فيدفعه فارسه الى الامام ليريه الموت الاسود :

اذا شك اطرافُ العوالي لبانه اقدّمه حتى يرى الموت اسودا

ويشير هنا الى وقعة جرت بينه وبين بني فزارة القبيلة العدنانية . وكان قد اغار عليها في بني نبهان من طيّ ، ومعه منهم بنو نصر وبنو مالك ، فانهزمت فزارة ، واستاقت نبهان الغنائم . فلما انتهوا الى العلم ، وهو جبل هناك ، نزلوا يقتسمون النهاب ، فطلب زيد المرباع حق الرئاسة ، اي ربع الغنيمة ، فأعطاه بنو نصر ، ولم يعطه بنو مالك . فغضب عليهم وتركهم لاحقاً ببني نصر . فبينا بنو مالك يقتسمون غنائمهم اذ غشيتهم فزارة وغطفان ، فأحاطت بهم ، واستنقذت ما بايديهم من النعم . فنفر بنو مالك يصيحون : يا زيداهُ اغثنا ! فما ان سمع الصوت يناديه حتى غاب عن ذهنه ما لقي من عنت

اقربائه واهتضامهم لحقه ، ولم يبق نصب عينيه سوى بني طي ولا في عروقه يغلي الا عصبية القبيلة ، وقحطانية تنازل العدنانية . فشد على القوم يضرب فيهم فقتل رئيسهم ابا ضبّ ، واخذ ما بايديهم فدفعه الى بني مالك .

والقطعة الثانية يذكر فيها مبارزته لعامر بن الطفيل وكيف استسلم عامر عندما رآه مقبلاً على فرسه ، ولو انه صبر لقتاله لما نجا بحياته :

ولو تصبّر لي حتى اخالطه أسعرُته طعنة كالنار بالزنَد

وكان عامر قد اغار على بني فزارة فسبى امرأة يقال لها هند ، واستاق نعماً لهم . فاتفق ان خرج زيد يومذاك الى بني بدر وهم بطن من فزارة يطلب نعماً له عندهم . فقالوا : « ما كنا قط الى نعمك احوج منا اليوم . » واخبروه بما فعل عامر . فركب زيد جواده وانطلق في اثر ابن الطفيل ، فأدركه وهو يسوق الظعينة والنعم مطمئناً . فنظر اليه عامر فأدهشه عظمه وامتداده ، فبرز اليه زيد وقال : « خلّ عن الظعينة والنعم . » فقال عامر : « من انت ؟ » قال : « فزاري انا . » قال عامر : « والله ما انت من القُلْح افواهاً » (اي صفر الاسنان) ويريد بهم بني فزارة . فقال زيد : « خل عنها . » قال : « لا او تخبرني من انت . » قال : « اسدي . » قال : « لا والله ما انت من المتكورين على ظهور الخيل . » يريد بني اسد . قال : « خل سبيلها . » قال : « لا والله او تخبرني ، فاصدقني . » قال : « انا زيد الخيل . » قال : « صدقت ، فما تريد من قتالي ؟ فوالله لئن قتلتني لتطلبنّك بنو عامر ، ولتذهبن بنو فزارة بالذكر . » ثم استأسر له ، فجز زيد ناصيته ، واخذ رمحه ، ورد هند والنعم الى بني بدر .

فرجع عامر الى قومه مجزوزاً ، واخبرهم ما حدث له ، فغضبوا لذلك وقالوا : « لا ترأسنا ابداً . » ثم تجهزوا ليغيروا على بني طي ، ورأسوا عليهم علقمة

ابن علاثة . فاستاء عامر وآلمه ان يفوز بالرئاسة منافسه علقمة ، فبعث الى زيد الخيل دسيساً ينذره ، فجمع زيد قومه ، وتربص لهم في مضيق الجبلين حتى اقبلوا فقاتلهم فأسر منهم جماعة وهزم الباقين ، وبين المأسورين الشاعران الحطيئة العبسي ، وكعب بن زهير المزني . فمدحه الحطيئة بشعر ، واعطاه كعب فرسه الكميت فخلى سبيلهما ، واستبقى العامريين في الاسر . فلما طال عليهم الحبس سألوه ان يقبل الفداء ويفرج عنهم . فقال لهم : الامر الى عامر بن الطفيل . يريد بذلك ان يعيد اليه مكانته عندهم . فأبوا ان يجعلوا امرهم لعامر بعد ان استخذى وجزت ناصيته . فاصر زيد على ابقائهم في الاعتقال او يهبهم لعامر . فاضطروا اخيراً الى القبول فوهبهم له واطلق سراحهم . وقد ذكر هذه الواقعة بشعره ، فاخبر كيف فرّ علقمة من امامه على فرس سابق لا يُلحق لسرعته . وتناول الفرس بالوصف اكثر بما تناول صاحبه الهارب بالتعيير ، مندفعاً بحبه لكرام الجياد ، او واجداً لنفسه عذراً لانه لم يستطع ادراكه :

أعلْقمُ لا تكفُرْ جوادك بعـدما نجا بك من بين المنايا الخواضرِ
ونجّاك يوم الروع اذ حضر الوغى مِسحّ كفتخاء الجناحين كاسرِ
اذا قلتُ : اطراف الرماح ينلنه ، يَجمّ كسرحـان بفيفاء ضامرِ

وكان زيد شديد الالحاح بغزواته على العرب العدنانية لعصبيته في قحطان . وخص بني اسد باكثر غاراته واعنفها . ولطالما تلذذ في شعره بترداد اسماء القبائل النزارية التي يفرط في محاربتها :

إنا لنكثر في قيسٍ وقائعنـا وفي تميمٍ وهذا الحي من أسد

وتبلغ به عصبيته الى ان ينتصر لعمرو بن الاطنابة الخزرجي عندما بلغه هجاء الحارث بن ظالم له ومحاولته الايقاع به . وقبيلة الخزرج يمانية يجمعها ببني طي نسب قديم الى كهلان . والحارث بن ظـالم عدناني من بني مرة ، وهو الى

ذلك فارس مشهور ، فاذلاله كاذلال عامر بن الطفيل يرضي كبرياء زيد ويدغدغ نعرته القحطانيـة . فأغار على بني مرة فأسر الحارث وامرأته ثم قبل الفـداء ومنّ عليهما . وذكر هذه الواقعة بقوله :

وسُقنا نساء الحي مُرة بالقنـا ، وبالخيل تردي قد حوينا ابن ظالم

يقول : اقبلوا مني الفداء وأنعموا علي وجزّوني مكان القوادم .

فمن مبلغٌ عـني الخزارج غـارة على حيّ عوف موجفاً غير نائم .

وحالفـه التوفيق في معظم مواقعـه فقلما عادت قبيلته خـاسرة وهي في صحبته ، وانما يغلب عليها ان تعود معه ظافرة غانمة . ولكنه كان عارفاً قدر نفسه ، ويعلم ان قبيلته تنتصر بحزمه وبسالته ، فما يغفل عن طلب حق الرئاسة واخذ ربع الغنيمة . فاذا أبت تركها غاضباً كما ترك بني مالك ، غير انه لا يخذلها في الشدة وان اساءت اليه . فعندما استغاثته بنو مالك كرّ الى نجدتها ودافع الاعداء عنها . وقد يساوم على الرئاسة ان كانت لغيره فيعد قبيلته بكسب الموقعة ان جعلت له المرباع فترضى القبيلة لما تعلم من شجاعته وبطشه وحسن طالعه . قال ابو عمرو الشيباني : « غزت بنو نبهان فزارة وهم متساندون ومعهـم زيد الخيل فاقتتلوا قتالا شديداً ، فانهزمت فزارة وسـاقت بنو نبهان الغنائم من النساء والصبيان . ثم ان فزارة حشدت واستعانت باحياء من قيس وفيهم رجل من سُليم شديد البأس يقال له عباس بن أنس ، كان نازلا في بني فزارة ، فاغاروا على بني نبهان ، ولم تكن الرئاسة حينئذ لزيد الخيل ، فامتنع عن القتال ووقف ينظر الى المعركة . فثقلت الوطأة على بني نبهـان واثخنت فيهم فزارة . فلما رأى زيد ما حل بقومـه نادى : « يا بني نبهان ، أأحمل ولي المرباع ؟ » قالوا : « نعم . » فشدّ على بني سُليم فهزمهم واخذ ام الاسود امرأة عباس بن أنس ، ثم شد على فزارة والاخلاط فهزمهم

جميعاً ، وفي ذاك يقول :

ألا ودّعتْ جيرانها امّ اسودا وضنّت على ذي حاجة ان يُزوّدا

وسائلْ بني نبهان عنا وعنـدهم بلاء كحد السيف اذ قطع اليدا

هذه حاله في قبيلته يتعصب لها ويدافع عنها ، ولا يتخلى الا مكرهاً عن رئاسة الجيش وحظ الرئيس من المغنم . ويسوؤه كثيراً ان يقع الشقاق بينها فيفقدها روح الالفة ، ويدفعها الى الخصام والتناحر . فاذا اشتد الخلاف وصار بها الى العداء والحرب آثر الاعتزال وحرص على ان يوصي ابناءه بان لا يعنوا في تقتيل اقربائهم كما حدث له في يوم اليحاميم حيث التقت جديلة والغوث وكلاهما من طي ، وكان الامر قد عادَ فيهما الى الخلف بعـد ان اصلح بينهما الحارث الغساني ، لان الغوث قتلت قائداً من بني جديلة ، وقطع رجل منهـا اذنيه فرقع بهما نعله . فعظم الامر على اوس بن خالد وعزم على لقاء الحرب بنفسه مع انـه لم يشهد الحروب المتقدمـة ، ولا شهدها احد من رؤسـاء طي كحاتم وزيد الخيل . فلما تجهز اوس واخذ في جمـع جديلة ، تجهزت قبائل الغوث ، كل قبيلة وعليها رئيسها ومنهم زيد وحاتم ، واقبلت جديلة مجتمعـة على اوس فالتقوا عند ماء اليحاميم فتزاحفوا وتقاتلوا . قال عدي بن حاتم : « اني لواقف يوم اليحاميم والناس يقتتلون اذ نظرت الى زيد الخيل قد احضر ابنيه مكنفاً ومُحرِيثاً في شعب لا منفذ له وهو يقول : « أي ابنيّ ، أبقيا على قوميكما ، فان اليوم يوم التفاني ، فان يكن هؤلاء اعماماً فهؤلاء اخوال . » فقلت له : « كأنك كرهت قتال اخوالك . » فاحمرت عيناه غضباً ، وتطاول اليّ حتى نظرت الى ما تحته من سرجه . فخفته ، فضربت فرسي ، وتنحيت عنه ، واشتغل بنظره الي عن ابنيه . فخرجـا كالصقرين . ثم انهزمت جديلة وقُتل فيها قتل ذريع . »

واضطر يوماً الى الابتعاد عن بني قومه حين يئس من الاصلاح بينهم ، وابى بعضهم ان ينتهي عن محاربة بعض . فرحل الى بني تميم ونزل على قيس بن عاصم فبقي عنده مدة ثم انه لم يحمد جواره فتركه وعاد الى قبيلته وهو يهجوه لانه هضم حقه فلم يعطه نصيبه من الغنيمة بعد ان حارب معه ونصره على اعدائه بني بكر . وذلك ان بني تميم غزت البكريين وعلى رأسها قيس ومعه زيد الخيل . فاقتتلوا ملياً حتى رجحت كفة بني بكر ، وبان الاعياء على تميم وزيد الخيل واقف ينظر ولا يقاتل مع الناس كأنه لا يريد ان يجعل دماً بينه وبين البكريين . فلما رأى ما لقيت تميم وهو جار لها ، عزّ عليه ان لا ينجدها في ضيقها فحمل على القوم يضربهم بسيفه ، ولا يتكنى بكنيته لئلا يعرفوه ، وهو لا يريد ان يُعرف . فكان يدعو : يا لتميم ! اذا قتل رجلًا او اذراه عن فرسه ، او هزم ناحية ، حتى تضعضعت بنو بكر فانهزمت ، وظفرت تميم بعد خسران . فصارت لها هذه الوقعة فخراً في العرب ، وافتخر بها قيس بن عاصم لانه كان رئيس الجيش يومئذ . الا ان زيداً لم يسمح بنصيبه من الغنيمة ، فجاء قيساً فقال له : « اقسم لي يا قيس نصيبي . » قال : « وأي نصيب ؟ فوالله ما ولي القتال غيري وغير اصحابي . » وأبى ان يعطيه شيئاً لكي لا يظهر له فضل عليه او على بني تميم . فغضب زيد الخيل وخرج وهو يقول :

فلست بوقاف اذا الخيل احجمت ولست بكذاب كقيس بن عاصم
بل الفارس الطائي فضّ جموعهم ومكة والبيت الذي عند هاشم
اذا ما دعوا عِجلاً عَجِلنا عليهم بمأثورة تشفي صُداع الجماجم

فانتقم زيد بهذه الابيات من قيس ، ولكنه شهر نفسه من حيث لا يريد ، فانها انتهت الى المكشّر بن حنظلة العجلي ، وبنو عجل بطن من بكر ، فخرج في ناس من قومه يغير على بني نبهان ويأخذ من نعمهم . فبلغ ذلك زيد الخيل

فانطلق في فوارس من بني نبهـان حتى اعترض القوم فقال : « ما لي ولك يا مكثر ؟ » قـال : « قولك : اذا ما دعوا عجلاً عجلنا عليهـم . » فقاتلهم زيد حتى استنقذ بعض ما كان بايديهم ، ورجع المكثر ببقية الغنائم الى قومه ، فصعب على زيد ان يعود الى قبيلته وليس معه من نعمهم الا اقلها . فرأى ان يعدل كفة الميزان بغزوة يغزوها ، فأغار على بني تيم الله بن ثعلبة وهي قبيـلة من النمر بن قاسط اقرباء البكريين ، فغنم وسبى ، وارتد الى قومه وهو يقول :

اذا عركت عجلٌ بنا ذنب غيرنا عركنا بتَيْم الله ذنب بني عجل

وبقي زيد الخيل طوال حياته بعيد الصوت ، رهيب الجانب ، لا تنكسر له شوكة حتى مات .

زيد الخيل الطائي

دفاعه عن القبيلة

كَرَرْتُ على ابطالِ سعْدٍ ومَالكٍ ... ومَنْ يَدعُ الداعي اذا هو ندّدا [1]

فلَأْياً كَرَرْتُ الوردَ حتى رأيتُهم ... يكبُّون في الصَّحراء مثنى وموحدا [2]

فما زلتُ أرميْهِم بغُرة وجهِهِ ... وبالسَّيف، حتَّى كَلّ تحتي وبلَّدا [3]

اذا شكّ أَطرافُ العوالي لَبانهُ ... أُقدّمهُ حتَّى يرى المَوتَ اسودا [4]

لقَد علِمت نبهَانُ اني حَميْتُها ... واني مَنَعْتُ السَّبيَ ان يتَبَدّدا [5]

عشيَّة غادرتُ ابنَ ضبٍّ كأنَّما ... هَوى عن عُقابٍ من شماريخَ صِنْددا [6]

اسر عامر بن الطفيل

إنا لنُكثِرُ في قيس وقائِعَنا ... وفي تميمٍ، وهذا الحيّ من أسدِ

وعامرُ بن طفَيلٍ قد نَحوتُ له ... صدر القَناة بماضي الحدّ مُطَّرد [7]

لما أحسّ بان الورد مُدرِكهُ ... وصارماً، وربيط الجأش ذا لِبَد [8]

نادى اليّ بسِلْمٍ بعْدما أَخذت ... منْهُ المَنيَّة بالحيزوم واللُّغُد [9]

ولو تصَبّر لي حتَّى أُخالطَهُ ... أَسعَرْتُهُ طعْنةً كالنَّار بالزَند

---

١ الداعي هنا : المستغيث . ندّدا : يريد صرح باسم من يستغيث به .

٢ اللاءي : الشدة والجهد . الورد : اسم فرسه . ٣ بلد : فتر نشاطه .

٤ العوالي : الرماح . لبانه : صدره . ٥ نبهان : قبيلة من بني طيء . ٦ ابن ضب : هو ابو ضب كان في تلك الموقعة رئيساً للجيش على بني فزارة وغطفان . عقاب : الصخرة الناتئة في عرض الجبل . الشماريخ : رؤوس الجبال . صندد : سيد شجاع .

٧ نحوت : صرفت وابعدت عنه . مطرد : متسق . ٨ اللبد : جمع لبدة : الشعر المجتمع على كتف الاسد يشبه نفسه بالاسد . ٩ الحيزوم : الصدر . اللغد : يريد به الحلق .

قيس بن عاصم المنقري

اجتمعت فيه فضائل الجاهلية وعيوبها . فمن فضائله انه شاعر خطيب، وفارس شجاع ، سيد قبيلته ، كريم مضياف ، حليم وقور . ومن عيوبه كبرياء بدوية حملته على وأد بناته صوناً لشرفه . وشهوة تغلب عليه فتصدر عنه اعمال غير محمودة .

هذا الشاعر لم يخلص الينا من شعره الا شيء قليل ولكنه على قلته ظاهر الجودة ، فيه سلاسة وانسجام ، يصور فضائل صاحبه ابلغ تصوير ، ويدور في معظمه على الفخر بنفسه وقبيلته . وقد اثبتنا مثالين عنه في مكان آخر . احدهما يفتخر فيه بكرم اخلاقه ويشيد بمناقب قومه . فأخلاقه لا يعتريها دنس ولا ضعف ، وقومه في بيت مكرمة ، خطباء فصحاء بيض الوجوه ، لا ينظرون لعيب جارهم ، وانما يحافظون على جواره :

لا يفَطنون لعيبِ جارِهمْ وهمْ لحفظ جواره فُطُنُ

والثاني يخاطب فيه زوجته ، امرأة حرة صريحة النسب ، ابوها سيد فارس : « ويا ابنة ذي البُردين والفرس الوَرد . » فيوصيها اذا صنعت له الطعام ان تطلب ضيفاً يشاركه فيه لانه لا يريد ان يأكل وحده ، مخافة ان تتحدث الناس عنه بالبخل بعد موته ، وهو يضنّ بسمعته :

أخافُ ملاماتِ الاحاديث من بعدي

وبحسبك البيت الاخير فانه نموذج اعلى في معاملة الضيف :

واني لعبد الضيف من غير ذلةٍ وما بيَ الا تلك من شيمة العبد

ولم تكن خطبه اكثر حظاً من شعره في قطع الاجيال الينا ، فما بلغنا الا نتف من اقواله ، ووصيته لابنائه عند موته . وكان قد ادرك الاسلام واسلم . فلما مرض مرضته الاخيرة جمع ابناءه حول فراشه ، وخطب فيهم واعظاً ، فاوصاهم ان يجعلوا اكبرهم سيداً فيهم ، وان يتجنبوا معصية الله وقطيعة الرحم ، وان يتمسكوا بطاعة امرائهم . الى ان يقول :

ولا يَعلمْ بكر بن وائل بمدفني ، فقد كانت بيني وبينهم مشاحنات في الجاهلية والاسلام ، واخاف ان يُدخلوا عليكم بي عاراً . وخذوا عني ثلاث خصال : اياكم وكلّ عرق لئيم ان تلابسوه ، فانه ان يسرركم اليوم ، يسؤكم غداً . واكظموا الغيظ ، واحذروا بني اعداء آبائكم ، فانهم على منهاج آبائهم :

أحيا الضغائنَ آباءٌ لنا سلفوا فلن تَبيدَ وللاباء ابناءُ

ويلفت النظر في هذه الوصية امران تتمثل فيهما الروح الجاهلية ، احدهما خوفه من بني بكر اعدائه ان يعرفوا مكان قبره ، فيعبثوا به . وكان من عاداتهم التمثيل بالاموات تحقيراً لهم ولابنائهم . والثاني تحذير بنيه من ابناء اعدائه لانهم على منهاج آبائهم . فالضغائن عند العرب متوارثة يحييها الآباء في الابناء ، ولن تبيد ما دام للاباء ابناء . فقد بقيت الاحقاد بين بكر وتغلب اربعين سنة من جراء حرب البسوس ولم يستطع الاسلام ان يمحوها من قلوبهم . وهكذا كان شأن عبس وذبيان بسبب حرب داحس والغبراء . فالثأر لا يموت عند البدوي مهما يطل عهده . وهو في الجاهلية شرع مقدس ، لان المقتول اذا لم يؤخذ بثأره يظمأ ظمأ شديداً في قبره . وبقي العرب في اسلامهم يحافظون على هذا الشرع بالارث والعادة ، وان ابطل الدين الجديد عقيدة الظمأ في القبر .

فقيس بن عاصم يخشى ان تدفع الاحقاد بني بكر الى نبش لحده وتحقير جثته مع ان الاسلام نهاهم عن المُثلة ، ولكن الاعراب قلما ينتهون . ويحذر ابناءه من ابناء اعدائه ، لان الضغائن لا تبيد عند العرب « وتبقى حزازات الصدور كما هيا . »

وغير عجيب ان يخشى قيس مثلة القبر وضغائن الاعداء . فقد كان فارساً شجاعاً كثير الغارات ، مظفر الغزوات . وله في قبائل العرب ايام مشهورة حُمدت فيها مشاهده ، فاكثرت اعاديه واورثت ابناءه الاحقاد والحزازات .

فقد اوقع بالقبائل اليمانية يوم الصفقة ، او يوم الكُلاب الثاني ، وكانت قد اغارت على بني تميم في جيش يعد ثمانية آلاف . ولا يعلم جيش في الجاهلية اكبر منه ومن يوم ذي قار ويوم شعب جبلة . فخرجت بنو تميم للقائهم ، وعلى رأسها قيس بن عاصم المنقري ، لان بني مِنقر من بني سعد ، وبنو سعد من تميم ، فحمل قيس على القوم وحملت وراءه سعد والرِباب ، فناداهم قيس : يا آل تميم ، لا تقتلوا الا فارساً فان الرجّالة لكم . فاحاطوا باليمانية والحبوها طعناً فانهزمت امامهم . فتبع قيس المنهزمة يضرب في عراقيبها ، وهو يرتجز :

لما تولّوا عُصَباً هواربا .
أقسمتُ لا اطعنُ الا راكبا
اني وجدتُ الطعنَ فيهم صائبا

وحدثت بين بني تميم وبني بكر وقائع عديدة اطالت بينها العداء ، وتتبع الثارات . وكان منها لتميم ايام ميمونة عاد منها قيس بن عاصم مرفوع اللواء موفور الغنائم كيوم النباج ونبتل وفيه اغار قيس على بني بكر فاصاب منهم ابلا كثيرة . ثم يوم جُدود وفيه اغار الحوفزان البكري على جماعة منفردة من بني سعد فاستاق نعماً كثيرة ، وسبى فتاة يقال لها الزرقاء ، فنال منها ، ثم

اردفها على جواده وانطلق حتى انتهى بمن معه من بكر الى مكان اسمه جدود . فالتقاهم بنو يربوع وهم بطن من تميم ورئيسهم عتيبة بن الحارث بن شهاب . فمنعوهم ان يردوا الماء فقاتلوهم عليه ، فلم يكن لبني بكر قِبل بهم ، وعتيبة ابن الحارث احد ابطال الجاهلية المعدودين من الطبقة الاولى ، فاضطروا الى مصالحتهم على ان يتخلوا لهم عن بعض الغنائم ، فارتضى بنو يربوع بالمصالحة ، وتركوهم يردون الماء ، غير حافلين بما اصاب اقرباءهم بني سعد ، لان تميم عشائر كثيرة متعددة البطون والافخاذ ، وكل عشيرة منها تؤلف قبيلة قائمة بنفسها ، وقلما اجتمعت عشائرها لامر واحد وفي مكان واحد .

وكان الصريخ قد بلغ ديار بني سعد فركب قيس بن عاصم في قومه ، وخرج في اثر الغزاة حتى ادركهم ، فالح في طلب الحوفزان ، فلما عرفه الحوفزان تهيبه ، فطلب النجاة على فرسه الزَبد وكان جواداً كريماً . فدفع قيس فرسه وراءه ، فلم يدركه . فخاف ان يفوته ، فصاح بالزرقاء : ميلي به يا جَعار . وكانت مردفة خلفه . فخشي الحوفزان ان تتشبث به ، فتعوقه او تميل به عن فرسه ، فدفعها بمرفقه ، ثم قبض على يديها ، وجزّ ذوائبها بسيفه ، ثم قذفها عن عجز الجواد ، وارخى له العنان ، فمرق كالسهم متمطراً . فلما يئس قيس من لحاقه رماه بالرمح وهو يطارده فاصاب وركه فسالت دماه ، ونجا بنفسه ، ولكنه حمل اثر هذه الطعنة بعرَج دائم . ورجع قيس باسلاب البكريين وغنائمهم . واعاد الزرقاء الى اهلها ، ورد النعم الى اصحابها .

هذه الايام وامثالها شهدت لقيس بالفروسية والاقدام ، وتركت له في قلوب اعدائه مكامن للاحقاد يترقب شرها ولا سيما قلوب البكريين . فاذا حذّر اولاده منهم فلأنه عزيز النفس يأبى ان تلحقه مهانة بعد الموت ، فيتحدث الناس عنه بعار عليه وعلى اولاده . وهو الذي جمع في شخصه اعم صفات السيادة عند

العرب ، حتى ان النبي بسط له رداءه عندما وفد عليه ، وكان قد اسلم ، فاجلسه بجانبه وقال : « هذا سيد اهل الوَبر . » وسئل قيس : بم سُدت قومك ؟ فقال : « ببذل الندى ، وكف الاذى ، ونصرة المولى (الحليف) ، وتعجيل القرى . » فقد اضاف ابن عاصم الى شجاعته ونجدته الكرم والحلم ، وهما من الصفات الرئيسة في السيد ، لان البدوي قلما يرضى بسيادة البخيل كما انه لا يرضى بسيادة ظالم يؤذيه . واحاديث الكرم عن ابن عاصم مأثورة كأحاديث الشجاعة والنجدة ، ولا تقل عنها احاديث الحلم . ويكفي ان الاحنف ابن قيس الذي يضرب المثل بحلمه قال مرة : « ما تعلمت الحلم الا من قيس ابن عاصم . » فقيل له : « وكيف ذلك يا ابا بحر ؟ » فقال : « بينا هو قاعد بفنائه محتبٍ بكسائه ، اتته جماعة فيهم مقتول ومكتوف . وقيل له : « هذا ابنك قتله ابن اخيك . » فوالله ما حل حبوته ، ولا تغير وجهه ، ولا قطع حديثه حتى فرغ من كلامه . فاقبل على القاتل فقال : « يا بني ، نقّصت عددكَ . واوهنت ركنك . وفتتّ في عضدك . واشمتّ عدوك . واسأت الى قومك . » ثم التفت الى ابن له في المجلس فقال له : « قم فاطلق عن ابن عمك ، ووارِ اخاك ، واحمل الى امه ديته مائة من الابل فانها غريبة . »

فهذه الحادثة تعطينا وحدها صورة فريدة عن حلم قيس وسعة صدره ، وان كانت لا تخلو في نظرنا من كبر وقسوة عندما نعلم انه ظل يتابع حديثه لا يقطعه بعدما رأى جثة ولده القتيل . فقد حافظ على وقار السيادة بصبر عجيب حتى انه لم يحلّ حبوته ولا وجهه تغير . بل اكتفى بتأنيب رصين للقاتل . ثم امر ابنه بكل سكينة ورباطة جأش ان يطلق سبيله ، ويدفن اخاه ويحمل الدية لوالدته . وبقي هو في مجلسه مجللاً بوقار السيد ، وحلم السيادة وكبريائها .

فالحلم عند قيس لا يعود الى رقة الطبع ولين الفؤاد ، وانما يعود الى

التمسك بتقاليد السيادة وفضائلها . فقد كان عظيما بما بدا من صبره وهدوئه وسعة صدره . كان سيداً في مجلسه ، ولم يكن اباً في اسرته . ولطالما حملت التقاليد قيساً على الاتيان باعمال وحشية لا تأنس بها الا قلوب متحجرة ، نشأت في صلابة الجاهلية وخشونتها ، فما تأثم من اقتراف الفظائع المنكرة ، انتقاماً للشرف المهان حتى من الابرياء . فقد كان العرب في جاهليتهم يئدون بناتهم . والوأد ان يهال التراب على البنت فتدفن حية . فمنهم من كان يئد لمزيد الغيرة ومخافة لحوق العار من اجلهن كبني تميم قبيلة قيس بن عاصم . ومنهم من كان يئد كل زرقاء العين او سوداء الوجه ، او برشاء او كسحاء تشاؤماً بها . ومنهم من كان يقتل اولاده خشية الانفاق وخوف الفقر ، وهم الفقراء من قبائل العرب . الا ان الوأد لم يكن عاماً لحسن الحظ ، وان شمل جميع القبائل ، فقد كان يستعمله واحد ويتركه عشرة كما قال الميداني ، والا لانقطع النسل في الصحراء وانقرضت النساء . واذا اراد احدهم وأد ابنته تركها تكبر حتى تصبح سداسية (طولها ستة اشبار) فيقول لامها : طيبيها وزينيها حتى اذهب بها الى احمائها . فتجلوها امها كالعروس ويخرج بها والدها الى الصحراء وهي لا تعلم من امرها شيئاً حتى يوصلها الى مكان حفر فيه بئراً فيقول لها : انظري في البئر ، فما تكاد تقترب من فوهتها حتى يدفعها من خلفها فتقع في الحفرة ويهيل عليها التراب حتى تستوي البئر بالارض .

وقيس بن عاصم هو الذي اجرى سنّة الوأد في بني تميم بعامل الغيرة المتكبرة العمياء . وسبب ذلك ان بني تميم امتنعوا عن تأدية الاتاوة التي كانت عليهم للملك النعمان ابي قابوس ، فجرد النعمان اليهم اخاه الريّان على رأس كتيبته دوسر ، وكان اكثر رجالها من اعدائهم بني بكر ، فاستاقوا نعمهم وسبوا نساءهم ، فجاءت وفود بني تميم الى النعمان تسأله اعادة النساء ، فحكم النعمان بان

يجعل الخيار في ذلك للنساء فاية امرأة اختارت زوجها رُدّت عليه . وكانت فيهن بنت لقيس بن عاصم فاختارت سابيها على زوجها ، فغضب قيس واقسم ان يدس كل بنت تولد له في التراب ، فوأد بضع عشرة بنتاً دون ان يتحرك قلبه لاصوات الاستغاثة صارخة اليه : يا ابي ، وهو يهيل عليهن التراب . وجرى على سنته جماعة من بني تميم حتى جاء الاسلام فابطل الوأد . فاذا كان قيس في قبيلته سيداً حليما فانه في اهله والد قاسي الفؤاد ، متصلب العاطفة ، لا يقرع احساسه غير حرمة السيادة وشرف الرئاسة . ولكن هذا السيد الحليم المتكبر كان عبداً لشهوته تسطو عليه ، فيلطخ بها فروسيته ونجدته ، ويلطخ بها سيادته وشرفه . فقد انقذ الزرقاء من الحوفزان البكري ، كما مر بنا ، الا انه لم يمنع نفسه عنها عندما رأى جمالها ، فاستسلم الى شهوته معها ثم ردها الى اهلها . فكان عمله مجيداً ومذموماً في وقت واحد . وشرب يوماً حتى غلب عليه السكر ، وبقربه ابنته فتناول ثوبها وجذبها اليه وهو يغمغم ولا يفصح ، وقد ساورته الحيوانية . فلما صحا اخبرته ابنته بما صنع ، فاغتاظ من نفسه ، وساءه ان يمزق شرفه بيده فاقسم ان لا يذوق الخمر طوال حياته . وبرّ قيس بقسمه فما شرب الخمر بعدها . وفي ذلك يقول :

رأيت الخمر صالحة وفيها ... خصالٌ تفسدُ الرجلَ الحليما
فلا ، والله ، اشربها صحيحاً ، ... ولا أشفي بها ابداً سقيما
ولا أُعطي بها ثمناً حياتي ، ... ولا ادعو لها ابداً نديما

كان قيس فيه من فضائل السيادة اجمعها وانبلها ، وكان فيه من معايب الجاهلية افظعها واخسها ، على ان ابناء عصره لم ينكروا عليه هذه الهنات لان بعضها مألوف عندهم قبل الاسلام ، كالوأد ومواقعة السبيّة المنقذة . وبعضها الآخر يتأولون له عذراً فيه بسكره وضياع عقله ، ثم بتحريمه الخمر على نفسه .

فبقي قيس في التاريخ العربي مثلًا اعلى للسيد الكريم ، وللفارس النجيد ، يتشبهون به ، ويمجدون ذكره ، وقد نطق عبدة بن الطبيب بلسان عصره عندما رثاه بقوله :

عليك سلام الله قيسَ بن عاصمٍ ورحمته ما شاء ان يترحّما
وما كان قيسٌ هلكه هلكَ واحد ولكنّه بنيانُ قوم تهدّما

قيس بن عاصم المنقري

كرم المحتد

إنّي ٱمروٌ لا يعتري خُلُقي ... دَنَسٌ يفنّده ولا أَفَنُ [1]

مِن منقرٍ في بيت مكرُمةٍ ... والغُصن ينبُت حوله الغُصُنُ

خُطَباءُ حينَ يقومُ قائلُهم ... بِيضُ ٱلوجوه، مصاقعٌ لُسُنُ

لا يفطنون لعَيبِ جارهمُ ... وهمُ لحفظِ جوارهِ فُطُنُ

حسن الضيافة

أيا ٱبنةَ عبدِ ٱللهِ، وٱبنةَ مالكٍ، ... ويا ٱبنةَ ذي ٱلبُردَينِ، وٱلفرسِ الوردِ

اذا ما صنعتِ الزادَ فٱلتمسي لهُ ... أكيلًا فإني لستُ آكِلَه وحدي

أخاً طارقاً، أو جارَ بيتٍ فإنّني ... أخافُ ملاماتِ الأحاديثِ من بعدي

وإني لعبدُ ٱلضَّيفِ من غيرِ ذلّةٍ ... ومَا بيَ إلّا تلكَ من شيمةِ ٱلعبدِ

[1] الأفن: ضعف العقل.

عمرو بن معدي كرب الزبيدي

اذا كنت تجهل ابا ثور (كنية عمرو) فقد جهلت امتع شخصية في شعراء الجاهلية وفرسانها . لا لانه شاعر فارس بل لانه ابو ثور عمرو بن معدي كرب ، وان يكن شعره محموداً لا يعدوه الجمال ، وان تكن شجاعته معترفاً بها ويعده بعضهم بالف فارس . ففي اخلاق هذا البدوي وصفاته ، في حياته وديانته ، في شعره وفروسيته ، طرافة يجد فيها من يجلس اليه متعة وسروراً . فلن يضيع علينا وقت نقضيه مع ابي ثور ، مرافقين اياه في سلمه وحربه ، في جاهليته واسلامه .

كان عمرو من اولئك الشعراء الفرسان الذين اشتهروا في النصف الثاني من المائة السادسة قبل الاسلام ، وعرفت لهم المواقع والغارات ، امثال عنترة ، وعامر بن الطفيل ، وعتيبة بن الحارث بن شهاب ، والسليك بن السلكة ، وزيد الخيل ، ودريد بن الصمة وسواهم . وقد بارز عمرو الاربعة الاول فشهد لهم بالشجاعة ، فكان يقول : « ما ابالي من لقيت من فرسان العرب ما لم يلقني حرّاها او هجيناها . » يعني بالحرين عامراً وعتيبة ، وبالهجينين عنترة والسليك . وقد تكون هذه الشهادة منحولة وضعتها العدنانية تعصباً لفرسانها الاربعة لان عمراً كان قحطانياً يمانياً ، والتنافس قديم بين المعدّية والقحطانية . تلك رواية ينقلها الينا صاحب الاغاني عن محمد بن سلاّم وكلاهما مضري عدناني . على انه مهما يكن من امرها فان ابا ثور معدود في الطبقة الاولى من ابطال الجاهلية ،

وقد يفضل على كثير منهم . وكان ابوه معدي كرب من سادات بني زُبيد ومن الفرسان المعروفين عند العرب ، وكان لا يتوسم خيراً في ولده ، فقد رأى فيه شاباً لاهياً كثير الاكل منصرفاً الى الشراب ، فلقبه بالمائق اي الاحمق الذي لا يصلح للسيادة ولا يرجى خيره . ولم يبدل رأيه فيه الا يوم هوجمت بنو زبيد في عقر دارها ، فجمع معدي كرب قومه للقاء بني خثعم ، وكان ميعاد غارتهم في الغد . فجاء ابو ثور الى اخته وقال لها : « اشبعيني اني غداً آتي الكتيبة . » فأخبرت اباها بامره ، فقال لها : « هذا المائق يقول ذلك ؟ سليه ما يشبعه . » فسألته ، فطلب فرقاً من ذرة ، وعنزاً رباعية (الفرق يومئذ ثلاثة اصواع والصاع اربعة امداد) ، فقدمت له ما طلب فذبح العنز وهيأ الطعام وجلس يأكل حتى أتى عليه جميعاً ، ثم وضع رأسه فنام ، فلما طلع الصبح اتتهم بنو خثعم مغيرة فالتقتها زبيد ، واستحرّ القتال بينهم ، فاستيقظ عمرو ، فرفع رأسه ونظر من خيمته فرأى لواء ابيه مرفوعاً ، فعاد وانبطح في مرقده ، ثم رفع رأسه ثانية ونظر الى المعركة فاذا لواء ابيه قد زال ، فهب من فراشه وخرج كالنار المحرقة فلقي والده منهزماً فقال له : « انزل عن فرسك . » فنهره معدي كرب وقال : « اليك عني يا مائق . » فلم ينصرف عنه حتى اخذ فرسه وسلاحه . فركب ورمى خثعم بصدره حتى خرج من بين اظهرهم . ثم كرّ عليهم وفعل ذلك مراراً ، فتقوت زبيد وانبعثت فيها الحمية ، فحملت على الاعداء وراء عمرو ، فانهزمت خثعم تاركة ما بايديها من الغنائم . وصار ابو ثور يومئذ فارس بني زبيد ، اكولا شروباً ويبلي أحسن البلاء . فقد أحب الحرب ، وأحب الطعام ، واحب الخمر ، فصدق في حبه الثلاثي وجاهد خير جهاد في القتال والاكل والشراب . كان ابو ثور لا يشبعه الطعام الذي يشبع غيره من الناس ، فاذا اراد ان يشفي نهمه فعنز رباعية كما

رأيت ، وثلاثة اصواع من ذرة . او جلسة طويلة الى مأدبة يتعاقب عليها الآكلون . فقد خرج الى المدينة مرة فقدم على عمر بن الخطاب وهو يغدّي الناس عشرة بعد عشرة . فأقعده عمر مع عشرة ، فأكلوا ونهضوا ، ولم يقم ابو ثور . فاقعده مع عشرة آخرين ، ثم مع عشرة غيرهم ، فأكل مع ثلاثين حتى شبع فقام . ثم جاء الى الخليفة فقال : « يا امير المؤمنين ، كانت لي مآكل في الجاهلية منعني عنها الاسلام ، وقد صررت في بطني صرتين وتركت بينهما هواء فسدّه لي . » فقال عمر : « عليك بحجارة من حجارة الجرة فسده بها يا عمرو . »

واذا كان ابو ثور قد امتنع كما يزعم عن المآكل التي حرمها الاسلام كلحم الميتة ولحم الخنزير فما كان ليمتنع عن الخمرة التي احبها ، وان نهى عنها القرآن ، بل كان يفتي بشربها عابثاً مدعياً معرفة الشرع مع انه كان رقيق الدين لا يحفظ شيئاً من آي الكتاب . قيل جاءه صديقه عيينة بن حصن زائراً وهو في الكوفة ، وكانا رفيقي شراب في الجاهلية ، فلما رآه ابو ثور رحب به وقال : « انعم صباحاً ابا مالك . » فقال عيينة : « اوليس قد ابدلنا الله بهذا ، السلام عليكم ؟ » قال عمرو : « دعنا مما لا نعرف . انزل فان عندي كبشاً مسمناً . » فنزل عنده فذبح له الكبش وطبخه ، حتى اذا نضج قعدا فأكلاه . ثم قال عمرو : « أي الشراب احب اليك ، اللبن ام ما كنا نتنادم عليه في الجاهلية ؟ » قال عيينة : « اوليس قد حرمها الله عز وجل في الاسلام ؟ » فقال عمرو : « انت اكبر سناً ام انا ؟ » قال : « انت . » قال : « فانت اقدم اسلاماً ام انا ؟ » قال : « انت . » قال عمرو : « فاني قد قرأت ما بين دفتي المصحف فوالله ما وجدت لها تحريماً الا أنه قال : فهل انتم منتهون ؟ فقلنا : لا . فسكت وسكتنا . » قال عيينة : « انت اكبر

سناً واقدم اسلاماً . » فجلسا يتنادمان ويشربان ويذكران ايام الجاهلية حتى امسيا . فلما اراد عيينة الانصراف قال عمرو : « لئن انصرف ابو مالك بغير عطاء انها لوصمة علي . » وقدم له ناقة عظيمة واربعة آلاف درهم ، فقبل الناقة ورد المال ، وانصرف يتغنى بفقه ابي ثور وفضله :

وأنت لنا والله ذي العرش قدوة اذا صدّنا عن شربها المتكلّف
نقول : ابو ثور احلّ حرامها وقول ابي ثور أسدّ وأعرف

هذه فتوى ابي ثور بالخمر ، وادعاؤه معرفة القرآن وهو يجهله . وقد ظهر هذا الجهل منه غب معركة القادسية اي بعد اسلامه بنحو ست سنوات . وكان المسلمون قد اصابوا مالا عظيماً في انتصارهم على الفرس . فاخذ سعد بن ابي وقاص الخمُس نصيب رئيس الجيش في الاسلام ووزع البقية على المجاهدين فاصاب الفارس ستة آلاف درهم والراجل الفان . وطبعاً اخذ ابو ثور حصة الفارس ، الا انه بقي مال كثير لم يجر عليه التوزيع . فكتب سعد الى عمر يسأله عما يفعل به . فارسل اليه عمر بان يفرقه على حملة القرآن في الجيش ، فدعاهم سعد اليه فجاؤوه جماعات ، في جملتهم ابو ثور . فعجب سعد من وجوده بينهم وكان يعلم جهله واميته . فدعاه وقال له : ما معك من كتاب الله ؟ فقال عمرو : اني اسلمت باليمن ثم غزوت فشُغلت عن حفظ القرآن . قال سعد : ما لك في هذا المال نصيب . فخرج ابو ثور غاضباً وهو يقول :

اذا قُتلنا ، ولا يبكي لنا احدٌ ، قالت قريش : الا تلك المقاديرُ
نُعطى السويّة من طعن له نفذٌ ولا سويّة اذ تُعطى الدنانير

فكتب سعد الى عمر بن الخطاب يخبره بذلك . فاذن له عمر بان يعطيه على بلائه في القتال فاعطاه الفي درهم . فارتضى ابو ثور وطابت نفسه . وكان الخليفة يعامل عمراً بالرفق واللين كما يعامل امثاله من فرسان الجاهلية الذين

اسلموا ولم يتمكن الدين من نفوسهم ، لتغلب الجهل عليهم ، فيستفيد الاسلام من بأسهم ، وان هم جاهدوا في سبيل الغنيمة لا في سبيله . وقد اسلم ابو ثور في السنة التاسعة للهجرة على رواية المدائني ، وفي السّنة العاشرة على رواية الطبري . ولكن ما كاد يتوفى النبي وتصير الخلافة الى ابي بكر حتى ارتد كثير من الاعراب عن الاسلام وارتد ابو ثور في جملة المرتدين من اهل اليمن وعاد الى جاهليته الحرة سنة ١١ ﻫ (٦٣٢ م) يناصر الاسود العنسي الخارج على الاسلام . فنشط ابو بكر الى مجاهدة المرتدين ليرجعهم الى الدين اما بالسيف واما باللسان . فلما اخفقت ثورة العنسي سلم ابو ثور نفسه للمهاجر بن ابي اميّة ، وكان قد بعثه الخليفة الاول لقتال اهل الردة ، فأوقفه المهاجر (١١ ﻫ) وغفل ابو ثور ان يأخذ الامان لنفسه قبل استسلامه لحمقه وقلة رويته . فقدم به الى ابي بكر ، فلم يشأ الخليفة قتله بل احب ان يعيده الى الاسلام فقال له مؤنباً : « اما تخزى يا عمرو ! انك في كل يوم مهزوم او مأسور ، لو ناصرت هذا الدين لرفعك الله . » ثم خلّى سبيله فعاد عمرو الى الاسلام ولكن لكي يعيش على هامش الدين .

ولم يظلم معدي كرب ولده حين لقبه بالمائق ، فان ابا ثور كان قصير الرأي في الامور ، فقد رأيناه يستسلم لقائد ابي بكر دون ان يحتاط بالامان لنفسه . واذا صُحت رواية الوفد الذي ارسله النعمان ابو قابوس الى كسرى ليريه فصاحة العرب وفضائلهم ، فقد ذهب عمرو مع الوفد لانه فارس من فرسان العرب ، وشاعر من شعرائهم ، وله مهابة ومنظر . ولاجل مهابته ومنظره بعثه سعد بن ابي وقاص في الوفد الذي وجهه الى يزدجرد ملك الفرس قبل القادسية . وكان عمر بن الخطاب يعدّه بألف فارس لشجاعته وقوته ، ولكنه لا يثق بحسن تصرفه في قيادة الجيش . فلما بعثه الى سعد كتب اليه

يقول : « أمددتك بألفي رجل : عمرو بن معدي كرب ، وطليحة الاسدي ، فشاورهما في الحرب ولا تولّهما شيئاً . » فكان ابو ثور يحارب مع سعد ويبلي احسن البلاء ، غير انه لم يؤخذ مرة رئيساً لجهة من جهات الجيش ، ولا عهد اليه في القيادة حين يقتل الرئيس . وشهد ابو ثور حصار نهاوند سنة ٢١ هـ (٦٤١ م) والقيادة يومئذ للنعمان بن مقرن ، فامتنع الفرس في حصونهم فخاف المسلمون من التطويل ، فدعا النعمان ذوي السن ليأخذ آراءهم وفي جملتهم ابو ثور . فقال للنعمان : « ناهدهم وكاثرهم ولا تخفهم . » فرفضوا كلهم رأيه وقالوا : « انما تناطح بنا الجدران ، والجدران لهم اعوان علينا . »

وكان يؤذي ابا ثور ان يرى عليه رئيساً من قبائل معد العدنانيـة ، وهو يماني متعصب لقحطانيته ، فاتفق مرة انه خرج بمائة فارس ليهاجم بهم الفاً من الفرس في النجف ، فخاف عليه سعد بن ابي وقاص فارسل وراءه قيس بن هبيرة ليمنعه ويرده ، وقيس مضري عدناني . فقال لعمرو : ان سعداً أمّرني عليك . وطلب منه ان يرجع بفرسانه ولا يتقدم . فاغتاظ ابو ثور وساءه ان يتلقى الامر من معدّي فقال : « والله يا قيس ان زماناً تكون علي فيه اميراً لزمان سوء . لأن ارجع عن دينكم هذا الى ديني الذي كنت عليه واقاتل عليه حتى اموت احب الي من ان تتأمر علي ثانية . والله لئن عـاد صاحبك الذي بعثك لمثله ، لنفارقنه . » ورجع ابو ثور غير راض .

وعُرف عمرو بالكذب وكثرة الادعاء والتبجح ولا سيما امام تلك المعدية التي تنافسه وينافسها . قال المبرّد : كان الاشراف بالكوفة يخرجون الى ظهرها يتناشدون الاشعار ويتذاكرون ايام العرب وحروبها ، فوقف عمرو يومـاً الى جانب خالد بن الصقعب النهدي وهو لا يعرفه ، فاقبل عليه يحـدثه ويقول : « اغرت على بني نهد ، فخرجوا الي يتقدمهم خالد بن الصقعب ، فطعنته طعنة ،

وضربته بالصمصامة حتى فاضت نفسه . » فقال خالد : « يا ابا ثور ، ان مقتولك الذي تذكره ، هو الذي تحدثه . » فقال عمرو : « اللهم غفراً ، انما انت مُحدَّث فاستمع . وانما نحن نتحدث بمثل هذا واشباهه لنرهب هذه المعدية . » وكان الراوية خلف الاحمر يتعصب لليمانية لولائه فيها . فاذا سئل عن كذب عمرو قال : « كان يكذب باللسان ويصدق بالفعال . » ولم يبتعد خلف عن الحقيقة في قوله هذا ، وان تعصب لمواليه . فليس من ينكر شجاعة عمرو وصدق فعاله في الحروب وله المآتي المشهورة في الجاهلية والاسلام ، فقد حارب حقاً بني نهد واوقع بهم ، الا انه لم يقتل فارسهم خالداً كما زعم . وبارز اشهر ابطال الجاهلية ، ونازلهم في الحروب ، فعرفوا قدره وعرف قدرهم . وحمدت مشاهده في القادسية ، فكان يهاجم الافيال ويقطع خراطيمها بسيفه المعروف بالصمصامة وهو من اشهر سيوف العرب . ويغير على اساورة الفرس فيبطش بهم . وفي اليوم الرابع من موقعة القادسية هاجم قلب الجيش الفارسي في جملة من هاجمه من فرسان العرب فما زالوا يقتحمونه مستبسلين حتى صدعوه ، فاخترقوه حاملين على رستم قائد القواد فاحاطوا به ومزقوه بشفار سيوفهم . وجاهد ابو ثور في حصار نهاوند خير جهاد فقتل وهو يعارك بعد ان اسن وشاخ (سنة ٢١ هـ) .

واوتي عمرو على شجاعته قوة بدنية هائلة رافقته في شبابه وشيخوخته . قيل انه كان ابن مائة وست سنين او مائة وعشر حين شهد القادسية (١٦ هـ ٦٣٧ م) . ومهما يكن في هذا الحساب من شطط فان عمراً قد حارب في القادسية وهو شيخ كبير ، ومع ذلك بقيت له همة الشباب وقوته . ذكر الطبري انه مر في اليوم الاول من المعركة بين الصفين يحض العساكر ويقول : « ان الرجل من هذه الاعاجم اذا القى مزراقه فانما هو تيس . » فبينا هو كذلك اذ خرج اليه فارس منهم فوقف بين الصفين ورماه بنشابة فما اخطأت قوسه وهو

متنكبها . فالتفت اليه عمرو ثم حمل عليه فاعتنقه ثم اخذ بمنطقته فاحتمله ، فوضعه بين يديه ، فجاء به حتى اذا دنا من الجيش العربي كسر رقبته بيده ، ثم وضع سيفه على حلقه فذبحه ، ثم القاه ، وقال : هكذا فاصنعوا بهم . فقال له بعضهم : يا ابا ثور ، من يستطيع ان يصنع كما تصنع ؟

واراد ان يعبر نهر القادسية وتحته فرس ضعيفة ، فطلب غيرها ، فجاؤوه بفرس ذكر فأخذ بذنبه فشدّ به الى الارض فأقعى الفرس ، فرده . فأتوه بآخر ففعل به مثلما فعل بالاول فتحلحل الفرس ولم يقع ، فقال : هذا على كل حال اقوى من ذلك . وحمل على العجم مغيراً ، فرمي جواده بنشابة فشب عن الارض فصرعه وغار . فقام ابو ثور يجمع نفسه ولحق بفارس من الاعاجم حتى ادركه ، فقبض على رجل فرسه ، فحركه الاعجمي وساطه ، فأخذ يضطرب تحته ولا يجري ، ثم وصلت بنو زبيد منجدة فارسها فرمى الاعجمي بنفسه تاركاً فرسه ، فركبه عمرو .

وجاء رجل اليه وهو على جواده فحدثته نفسه ان يمتحن قوة ابي ثور فادخل يده بين ساقه والسرج ، ففطن عمرو فضم ساقه على السرج وحرك الجواد فجرى به ، فجعل الرجل يعدو مع الفرس لا يقدر ان ينزع يده . حتى اذا بلغ منه قال : يا ابن اخي ما لك ؟ قال : يدي تحت ساقك . فخلى عنه وقال : ان في عمرك لبقية بعد.

على ان أبا ثور مع شجاعته وقوته كان لا يورط نفسه في المهالك اذا استصعب النجاة منها بل يفضل ان يركن الى الفرار . فمذهبه في القتال :

اذا لم تستطع امراً فدعه ، وجاوزه الى ما تستطيعُ

وهذا البيت من قصيدة قالها بعدما سبيت اخته ريحانة ، سباها الصمة فارس بني هوازن ، وفات ابا ثور انقاذها فقال :

أمن ريحانة الداعي السميعُ يورّقني واصحابي هجوع

الا ان سبيها لم يلبسه عاراً ، فقد تزوجها الصمة وولدت له دريداً وعبد الله من فرسان العرب المعدودين .

وكان عمرو يتحدث عن فراره كما يتحدث عن اقدامه ، لا يجد في ذلك عيباً ومذمة . فقد لقي مرة بني عبس وفيهم ملكهم زهير واولاده ، وكلهم من الابطال الاشاوس . فجاشت نفسه ، كما يخبرنا ، وفر عنهم هارباً . وفي ذلك يقول :

لقيت ابا شاس وشاساً ومالكاً وقيساً فجاشت من لقائهم نفسي

لقونا فضمّوا جانبينا بصادقٍ من الطعن مثل النار في الحطب اليبس

ولما دخلنا تحت فيء رماحهم خبطتُ بكفي اطلب الارض باللمس

وليس يعاب المرء من جبن يومه اذا عُرفت منه الشجاعة بالامس

ويظهر ان عمراً كان يقيس المخاطر بمقياس نفسه وشعورها بالخطر ، فهو في اضطراب مستمر بين الاقدام والاحجام . وهذا الاضطراب خلق مطبوع فيه كما يخبرنا بشعره ، والضمير عائد الى فرسه في الحرب :

ولقد اجمع رجليّ بها حذرَ الموت واني لفرورُ

ولقد اعطفها كارهة حين للنفس من الموت هرير

كلّ ما ذلك مني خُلُقٌ وبكلٍ انا في الروع جدير

وقد يكون اضطرابه هذا من الاسباب التي جعلته غير صالح لقيادة الجيوش في فتوح الاسلام ، على ما له من قوة وشجاعة وخبرة بانواع السلاح وضروب القتال . وقصيدته المثبتة هنا تعطينا صورة مصغرة عن موقفه الباسل في مواقعته لبني كعب ونهد . وقد احدق الخطر بقبيلته حتى اخذت النساء تتأهب للفرار . والنساء ترافق الرجال في الحروب . وبدت صاحبته لميس الحسناء

مشمرة عن ساقيها تطلب الهرب ، فظهرت محاسنها الخفيـة ، فثبت يومئذ ابو ثور ونازل رئيس الجيش مدافعاً خير دفاع ولم يحـدّث نفسه بالهرب . وهي ايضاً لم تحدثه به كما حدثته عند لقاء بني عبس . فعمرو كما رأيت شخصية عجيبـة في اقدامها واحجامها ، في قوتها وشجاعتها ، في اكلها وشرابهـا ، في جاهليتها واسلامها .

عمرو بن معدي كرب

موقفه في القتال

لَيس ٱلجَمَالُ بِمِئْزَرٍ فَٱعْلَمْ وَإِن رُدِّيتَ بُرْدا

إِن الجَمَال مَعَادِن وَمَنَاقِبٌ اورَثْن مجدا

أَعْدَدْتُ لِلْحَدَثان سابِغَةً وَعَدَّاءً عَلَنْدى [1]

نَهْدًا وَذا شُطَب يقُدُّ ٱلبَيْضَ وَالأَبْدان قَدّا [2]

وَعَلِمْتُ أَنّي يَوْمَ ذا كَ منَازِلٌ كَعْباً وَنَهْدا

قَومٌ اذا لبِسُوا الحَدِيدَ تنَمَّروا حَلَقاً وَقِدّا [3]

كُلُّ امْرِئٍ يَجْرِي الى يومِ الهِيَاج بِمَا استَعَدَّا

لمَّا رَأَيْت نِسَاءَنا يَفْحَصْنَ بالمَعْزاء شدَّا [4]

وَبَدَت لميس كَأَنَّهَا بَدْرُ ٱلسَّمَاء اذا تَبدَّا

وَبَدَت محاسِنُهَا ٱلتي تَخْفَى، وَكَان الأَمْرُ جِدَّا

نَازَلت كَبْشَهُم وَلَم ارَ من نِزَال ٱلكَبْشِ بُدَّا

١ سابغة : درعاً طويلة . عداء علندى : فرساً كثير الجري غليظاً شديداً .

٢ نهدا : فرساً طويلا ضخماً . ذا شطب : اي سيفاً . البيض : جمع بيضة الخوذة من حديد .

٣ تنمروا حلقاً وقدا : اي كانوا كالنمور بين دروع الزرد والجلد .

٤ المعزاء : الارض الصلبة . يفحصن : اي يوءثرن في الارض لشدة جريهن طلباً للهرب .

هم ينْذرون دمي وانْذر إن لقِيْت بان اشدّا
كَم من اخٍ لي صالح بَوَّأْتُهُ بيَدَيّ لحدا [٥]
ما ان جَزِعْت ولا هلَعْت ولا يردُّ بكَاي زنْدا [٦]
أَلبَسْتُهُ أثوابَــهُ وَخُلِقْتُ يوم خلِقْت جَلْدا
أُغْني غَنَاءَ الذاهِبِينَ أُعِدُّ للاعْداء عَدّا
ذَهَب الذين أُحِبُّهُم وبَقِيْت مثل السَّيْفِ فرْدا

٥ بوأته : اي انزلته القبر .
٦ الزند : الشيء اليسير ، اي لا يرد البكاء شيئًا .



العبيدُ والصّعاليك

عنترة بن شداد العبسي

١

كان عنترة ولا يزال اشهر الشعراء الفرسان ، واحبهم شخصية الى قلوب العامة ، تروي اخباره ومواقعه ، وتحفظ اشعاره صحيحها ومنحولها ، وتأبى ان يفضل عليه شاعر او فارس . فالرمح والسيف خلقا لكفه كما يقول شعره في القصة . وانه دون شك اشعر الشعراء حتى في نظر الشيخ ناصيف اليازجي .

وقصة هذا الشاعر الفارس التي يسميها بعض المستشرقين ملحمة العرب ، كان لها فضل كبير في نشر ذكر صاحبها بين الناس ، وتقريبه الى قلوبهم . فقد جعلت منه بطلاً اسطورياً محبباً بما اضافت اليه من خوارق الفعال ، وشاعراً غزلا حماسياً رقيقاً بما نسب اليه من الشعر الموضوع . ولا اذكر هذه القصة الا ذكرت ما كان لها من فضل عليّ في توجيهي الى الادب العربي وانا صبي بعد . فشعرها اول شعر حفظته ورويته . واخبارها كانت نواة اطلاعي على حياة البادية في العصر الجاهلي . فلاحت لي اطلال عبلة وخيامها بين الشرّبة والعلم السعدي كأنها بيوت احلامي في ذلك الحين .

وكانت معرفتي لعنترة في ليالي الشتاء الطويلة ، حيث كان يجتمع الساهرون من الاقرباء والاصحاب كل ليلة في دار جدي حسن بدير القمر ، جدي لأبي . فتضمهم عليّة كبيرة تكاد تضيق بهم على رحبها . وفي وسطها موقد لاعج لا تخبو ناره طوال السمر . وهم بين محتبٍ وجالس ، يترشفون شراباً سخيناً او يصعدون سحباً من دخان اللفائف والنارجيلات . فتمتصها كوى فاغرة

الافواه في اعالي الجدران . وعنترة على ايدي القراء يتنقل من واحد الى واحد ، فتتلى اخباره واشعاره بصوت مرتفع . والحاضرون في سكرة صوفية يصغون خاشعين . واذا بدرت بادرة منهم ، فهتاف لعنترة حين يقتحم جيشاً فيبدده ذات اليمين وذات اليسار . او حين يبارز بطلًا صنديداً فيتركه صريعاً على الرمال . وترنم طويل النفَس لقصيدة تجمع الحماسة والشكوى والحكم .

وكنت يومئذ في بدء قراءتي ، ألحن ولا ابالي بسيبويه والكسائي . واقتضب الاوزان على كره من الخليل . ولكنني لم اكن اسوأهم اعراباً ، فعددت من القراء الطيبين ، وصرت اجلس في الحلقة الوسطى من الساهرين ، فيدفع لي جدي الكتاب عندما يجيء دوري . فاشرع في القراءة بصوت صياح . حتى اذا بلغت قصيدة لعنترة أكاد اتغنى بها تغنياً . وكانت ذاكرتي تساعدني على الحفظ فاتلوها غيباً . وتظل الايدي تتداول الفارس الاسود الى منتصف الليل . فينقضي السمر . وربما امتد احياناً اذا كان ابو الفوارس اسيراً . لان السمار لا يطيب لهم النوم اذا بقي عنترة في الاسر . واذكر ان جدتي كانت تصنع اشياء من الحلوى تقدم للزائرين ليلة عرس عنترة .

اربع سنوات مرّت بي في صباي ، وانا اشهد هذه السهرات الشتوية ، واشارك في قراءة الشاعر الفارس حتى توفي جدي ، رحمه الله ، فتعطل السمر ، وهُجرت قصة عنترة . ولكنني لم أجفها ، بل كنت أعيد قراءتها وحدي حتى استظهرت حوادثها واكثر شعرها . فصرت اليوم اخشى اذا حاولت الكتابة في حياة عنترة وشعره ، ان يختلط لدي التاريخ بالاسطورة ، والصحيح بالمنحول ، لشدة ما بقي لها من الاثر في نفسي .

على ان قصة عنترة لا تبتعد عن حقيقة التاريخ في تصوير نفسية الشاعر الفارس ، ونشأته واضطرابه بين العبودية والفروسية . فقد استوحى مؤلفها الحوادث التاريخية

واعتمد عليها ، ولكنه خرج بها وبالاشخاص الى الخوارق الاسطورية فمسحها بخيال رائع أبعدها عن جفاف التاريخ وقرّبها الى طراوة القصص . فقد نشأ عنترة في التاريخ كما نشأ في القصة اسود اللون . ابوه شداد سيد من سادات بني عبس ، وأمه زبيبة أمة حبشية سباها شداد في احدى غزواته ، فأولدها عنترة . وكان لها اولاد من غيره ، يسمي التاريخ واحداً منهم وهو حنبل ، وتثبت القصة اثنين ، وهما جرير وشيبوب . على ان شداداً لم يعترف بابنه في اول الامر بل انكره جرياً على عادة العرب لانهم كانوا يستعبدون اولاد الاماء ولا يعترفون بهم الا اذا ظهرت عليهم النجابة . فجُعل عنترة في طبقة الرعيان كما يجعل غيره من العبيد . وقد ذكرت القصة رعايته للابل واوردت عنها اخباراً ، ونسبت اليه شعراً فيها كقوله :

قد كنت فيما مضى ارعى جمالهم والیوم احمي حماهم كلما نُكبوا

وانه ، وان لم يكن لدينا في شعره الصحيح ما يدل على حياته الرعائية فان الرواة والمؤرخين اشاروا اليها في قول عنترة لابيه عندما دعاه الى محاربة الاعداء فاجابه : « العبد لا يحسن الكرّ وانما يحسن الحلاب والصرّ . » ويخبرنا السيوطي في حديث له عن نشأة عنترة ان شداداً قال لاولاده : إن هذا الغلام ولدي . فكذبوه وقالوا : انت شيخ قد خرفت تدّعي اولاد الناس . فلما شب عنترة قالوا له : اذهب فارع الابل والغنم واحلب وصرّ . فانطلق يرعى .

ولكن نفس هذا الفارس الشجاع لا تحتمل العبودية وفيها من الشمم والاباء والجرأة شيء كثير . فكانت تتألم اشد الالم لما تلقى من الاحتقار والازدراء ، فتحاول جهدها ان تخرج من طبقة العبيد في اظهار نجابتها ولديها سلاحان ماضيان : الشجاعة والشعر . وكلاهما كفيل بان يجعل لصاحبه مكانة

عالية في القبيلة ، فالفارس يدافع عنها بسيفه والشاعر يدافع عنها بلسانه . فلماذا لا يتحرر عنترة وتدّعيه بنو عبس وهي تحتاج اليه حاجة مزدوجة ؟ وقد قال صاحبنا الشعر في صباه ، وشهد المعارك وهو لا يزال يحلب ويصرّ ، ولكن اباه كان حريصاً على التقاليد البدوية فابى استلحاقه وتحريره ، ولم يكن يحجم عن ضربه مع ما رأى من فصاحته واقدامه . فقد روى صاحب الاغاني ان سُميّة او سُهيّة امرأة شداد حرّشت زوجها على عنترة ، وادعت انه يراودها عن نفسها . ولم يكن عنترة قد تحرر بعد . فضربه والده بالعصا ضرباً مبرحاً حتى سالت جراحه وهو صابر على حكم ابيه . فلما رأت سمية ما اصابه من الاذى بكت جزعاً والقت بنفسها عليه حتى كفّت زوجها عنه . فقال عنترة في ذلك شعراً . والقصة تورد هذه الحادثة متفقة مع التاريخ ، ولكن تجعل سببها غيظ سمية من عنترة لانه كان يسقي عبلة اللبن قبل ان يسقيها . على ان لعنترة شعراً اثبته الرواة ، يتغزل فيه بامرأة اسمها سهية حيث يقول :

طربتَ وهاجتك الظباء السوارح ... غداةَ غدا منها سنيح وبارح
تعزيتَ عن ذكرى سُهية حقبةً ... فبحْ الان منها بالذي انت بائح

فاذا كانت سهية هذه هي سمية امرأة ابيه ، وقد اختلف في حقيقة اسمها ، فتكون رواية التاريخ أصح من رواية القصة . حتى ان الابيات التي قالها عنترة بعد ضربه ، لا تخلو من الغزل والتشبيب بتلك الزوجة الحسناء .

يستهل الشاعر ابياته بذكر سمية وبكائها عليه ، وكيف كانت تصد عنه لا تكلمه ، ويصف جمال عينيها فيقول :

كأنها يوم صدّت لا تكلمني ... ظبيٌ بعُسفان ساجي الطرف مطروف

ثم يخبرنا انها اكبت عليه لترد العصا عنه ، ويشبهها بصنم معبود يعكف عليه الطائفون . ثم يعترف بعبوديته لها ولابيه ، ويلومها ان تنسى بلاءه في

الحروب ، الى ان يختم مفتخراً بطعنته النجلاء :

قد اطعنُ الطعنة النجلاء عن عُرُض   تصفر كف اخيها وهو منزوف

على ان مثل هذا الشاعر الفارس لا يمكن ان يبقى في طبقة الرعيان والعبيد ، معرّضاً للضرب والاهانة ، مهما يكن والده ضنيناً بعادات البدو وتقاليدهم . فان نجابته ظاهرة امام عيني ابيه وعيون القبيلة جمعاء . فاذا كان لدى بني عبس شعراء كالحطيئة وعروة بن الورد والربيع بن زياد يغنونها عن عنترة ، فليس لديها فارس يقوم مقامه على كثرة ما فيها من الفرسان . فان عنترة معدود من الطبقة الاولى بين فرسان الجاهلية ، يقدمه الرواة عليهم جميعاً ، ولا يذكرون قبله او معه الا ربيعة بن مكدم . وتشهد ابطال العرب بشجاعته ولا تخجل ان تظهر خشيتها منه ، فقد قال عمرو بن معدي كرب فارس بني زبيد واحد الابطال المقدمين : « لو سرت بظعينة وحدي على مياه معد كلها ، ما خفت ان أُغلب عليها ، ما لم يلقني حرّاها او عبداها . فاما الحران فعامر بن الطفيل ، وعتيبة بن الحارث بن شهاب . واما العبدان فاسود بني عبس ، والسليك بن السلكة . »

وما كان عنترة ليجهل قدر نفسه فينام على الضيم والخمول ، راضياً بالذل والعبودية ، فقد كان يعلم حق العلم ان قومه يحتاجون اليه اذا اغاروا او أُغير عليهم . فاخذ يلح على ابيه طالباً اليه ان يعترف به . وابوه يعرض عنه مخافة التعيير ، وهو صابر ينتظر يوماً عصيباً تنكب فيه بنو عبس فيلتجئون اليه ، فيغتنم الفرصة لتحقيق امانيه . وليس هذا اليوم ببعيد الوقوع ، وغزوات العرب متواصلة طمعاً في الغنائم ، او طلباً للماء والكلأ . فما طال به الامر حتى سنحت له الفرصة التي يتوقعها . وقد اختلف الرواة في ذكر خبرها ، فقال ابن الكلبي : « وكان سبب ادعاء ابيه اياه ، ان بعض احياء العرب

أغاروا على بني عبس ، فاصابوا منهم واستاقوا ابلًا ، فتبعهم العبسيون ، فلحقوهم فقاتلوا عما معهم . وعنترة يومئذ فيهم ، فقال له ابوه : كرّ يا عنترة . فقال عنترة : العبد لا يحسن الكرّ انما يحسن الحلاب والصر . فقال : كرّ وانت حرّ . فكرّ وقاتل يومئذ قتالا حسناً ، فادعاه ابوه بعد ذلك وألحقه بنسبه . »

وحكى غير ابن الكلبي : « ان السبب في هذا ان عبساً اغاروا على طيء ، فاصابوا نعَماً ، فلما ارادوا القسمة قالوا لعنترة : لا نقسم لك نصيباً مثل انصبائنا لانك عبد . فلما طال بينهم الخطب ، كرّت عليهم طيء ، فاعتزلهم عنترة وقال : دونكم القوم فانكم عددُهم . واستنقذت طيء الابل ، فقال له ابوه : كر يا عنترة . فقال : أويحسن العبد الكر ؟ فقال له ابوه : العبد غيرك . فاعترف به ، فكر واستنقذ النعم . »

ويذكر السيوطي رواية هي اقرب الى روح القصة منها الى التاريخ ، قال : « جاء عنترة ذات يوم الى الماء ، فلم يجد احداً من الحي ، فبهت وتحير ، ثم عمد الى سلاحه فاخرجه ، والى مهره فاسرجه ، واتبع القوم الذين سبوا اهله . فكرّ عليهم ففرق جمعهم ، وقتل منهم ثمانية نفر . فقالوا له : ما تريد ؟ قال : اريد العجوز السوداء والشيخ الذي معها ، يعني امه واباه . فردوهما عليه . فقال له عمه : يا بني كرّ . فقال : العبد لا يُحسن الكر لكن يحلب ويصر . فاعاد عليه القول ثلاثاً ، وهو يجيبه كذلك . فقال له : انك ابن اخي وقد زوجتك ابنتي عبلة . فكر عليهم فصرع منهم عشرة . فقالوا له : ما تريد ؟ قال : الشيخ والجارية ، يعني عمه وابنته . فردوهما عليه . ثم قال : انه لقبيح ان ارجع عنكم وجيراني في ايديكم . فابوا ان يردوا عليه جيرانه . فكرّ عليهم حتى صرع منهم اربعين رجلًا قتلى وجرحى .

فردوا عليه جيزانه . »

ومهما يكن من اختلاف الروايات في سبب تحريره فجوهرها واحد . فان عنترة خلع نير العبودية بحد سيفه ، واحتياج بني عبس اليه . ولكنه لم يقف عند هذا الحد في طلب التحرر ، بل اراد ان يحرر اخوته لامه ، وهم عبيد مثله . فاستدعى يوماً اخاه حنبلا ، وكان افضل اخوته عنده ، فقال له : ارو مهرك من اللبن ثم مرّ به عليّ عشاء . فاذا قلت لكم : ما شأن مهركم متخدداً مهزولا ضامراً ؟ فاضرب بطنه بالسيف ، كأنك غضبت من قولي . فمر عليهم . فقال له : يا حنبل ما شأن مهرك متخدداً ؟ فاهوى اخوه بالسيف الى بطن مهره ، فضربه فظهر اللبن . وعمله هذا له تأثير في نفوس الاعراب لانه يدل على كرم النفس . وليس كرم النفس من طباع العبيد اللئام . فمهره لم يكن جائعاً كما ادعى اخوه ، وقد تدفق اللبن من بطنه . ثم ان الخيول لا يقتنيها ويسقيها اللبن الا الفرسان والسادات ! وحنبل لكرمه وعزة نفسه ، لم يضن بمهره ان يقتله على غلاء ثمنه ، لينفي التهمة عنه ، ويدحض مزاعم اخيه . فلا غرو ان يكبر بنو عبس عمله ، ويروا فيه اريحية ، وهزّة للكرم ، فيلحقه بعضهم بنسبه وينال عنترة بغيته . وفي ذلك يقول من قصيدة :

أبني زبيبة ما لمهركمُ متخدداً وبطونكم عُجرُ

تحرر عنترة وحرر معه اخاه او اخوته ، ولكن بقي لونه الاسود شاهداً على عبوديته واعتلال نسبه . وبقيت أُمه زبيبة أَمة لا حرة ، أُم ولد لا ام بنين ، سوداء لا بيضاء ، حبشية لا عربية ، حُجّة للناس على انه هجين ، اخواله الزنوج . فمن اين له ان يمحو سواد لونه ، او يجعل امه من ربات الحجال ، ولونه لا ينصل ، وامه لا تتحرر ، والعرب لا يتسامحون في النسب وكرم الامومة والخؤولة . فقد جعلوا له القاباً تذكّره ابداً بسواده وأمه ،

فهو الغراب واسود بني عبس ، وابن السوداء ، وابن زبيبة ، فما عليه الا ان يقبل هذه الالقاب ، ويدافع عن لونه وأمه ليخرس ألسنة المعيرين . فكان له كفاح بسيفه ، وكفاح بلسانه ، فجاء شعره صورة ناطقة بهما . مثال ذلك قوله :

وانا المُجرّب في المواقف كلها ، من آل عبس منصبي وفعالي
منهم ابي حقاً ، فهم لي والد ، والام من حام فهم اخوالي

فهو مفاخر باصله من جهة ابيه ، معترف باصله من جهة أمه ، وان يكن لا يجد فيه فخراً ، ولكنه يحميه بحد سيفه من المعيّرين :

اني امرؤ من خير عبس منصباً شطري ، واحمي سائري بالمنصلِ

وقد اضطر عنترة مراراً ان يدافع عن شطره الحبشي بسلاحه كما دافع عنه بشعره ليرد تحامل المعيرين ولا سيما ابناء قومه الذين يأبون الاعتراف بتقدمه عليهم لأنه ابن السوداء . روي انه وقف مرة ينشد قوله :

إذ يتقون بي الأسنة لم أخِمْ عنها ولكني تضايَق مُقدمي

فمد له عمارة بن زياد العبسي سنان رمحه وقال : نحن نتقي بك الاسنة يا ابن السوداء ! وكان عنترة أعزل لا سلاح عليه فقال له : اغفرها . ثم ذهب ولبس درعه وتقلد سيفه وركب فرسه ، واقبل حتى وقف امام عمارة ونشد البيت : « اذ يتقون بي الأسنة . . . » فتغافل عنه عمارة حين رآه في سلاحه . فقال عنترة يعيره ويفتخر عليه :

أحوليَ تنفض استُك مِذْرَوَيها لتقتلني ، فها انا ذا ، عُمارا
متى ما نلتقِ فردين ترجُفْ روانف إليتيك وتُستطارا
وسيفي صارم قبضت عليه أشاجعُ لا ترى فيها انتشارا
استعلم أيّنا للموت أدنى اذا دانيتَ بي الأسل الحرارا

وخيــلٍ قــد دلفتُ لهــا بخيــل عليها الاسد تهتصر اهتصارا

وقد ينقذ بني عبس ببسالته من وطأة العدو المغير فيأبى ساداتها الا ان يذكروا عمله المجيد مقروناً بسواده وأصله تحقيراً له ، وتعصباً منهم للنسب العربي الصحيح . قال ابو عمرو الشيباني : غزت بنو عبس بني تميم يقودهم قيس ابن زهير ، فانهزمت بنو عبس وانهزم قيس معهم . وطلبتهـم بنو تميم فوقف عنترة وحده يحمي المنهزمين من ابناء قومه فلم يُصب واحد منهم . وكان قيس سيدهم فساءه ما صنع عنترة يومئذ ، ورأى فيه ما يمس زعامته في القبيلة . فقال حين رجع : « والله ما حمى الناس الا ابن السوداء . » فنظم عنترة قصيدة يفتخر بها ويعرّض بقيس بن زهير ، يستهلها مفتخراً باصله العبسي مدافعاً عن اصله الحبشي بسيفه ، قائلًا انه يفضل الجوع على انّ يأكل طعامه بذل . ويعرّض هنا بقيس لانه كان اكولاً وانهزم من المعركة ذليلًا . ثم يتابع التعريض فيقول : اذا تأخرت الكتيبة والتفت بعضها الى بعض خوفاً من الحرب ، كنت افضل من سيد كريم الاعمام والاخوال لانني لا اسبق فوارسي الى الهرب في المأزق الضيق ، ولكنني اوكّل برد السابقين اليهم من الاعداء . ويتمادى في الفخر حتى يجعل الموت صورة عنه ، لو وضعت للموت صورة :

ان المنية لو تُمثّل مُثلت مثلي اذا نزلوا بضنك المنزلِ

ولكن قيس بن زهير قد اعترف بفضل عنترة على الرغم منه ، وان سماه ابن السوداء تحقيراً له . فعنترة وحده حمى بني عبس ورد عنها كوكبة اللاحقين . فحق له ان يفتخر ويعرّض بالذي عيره أمه وسواده ، وان كان معيره قيس بن زهير سيد بني عبس . فلطالما رأى قومه يحتمون به في الحرب ويقدمونه عليهم في مواقف الاخطار فتشتفي نفسه المتألمة من تعييرهم :

ولقد شفى نفسي وابرأ سقمها قيلُ الفوارس : ويك عنترَ اقدمِ

ولكنه لا يلبث ان يسمع التعيير بعد زوال الخطر ، فتعود الى نفسه آلامها فيثور ساخطاً عليهم منددا بهم لانهم يعرفونه في الحرب ، وينكرونه في السلم . فهو مضطرب ابداً بين العبودية والفروسية ، هو ابن شداد في المعارك وابن زبيبة ، ابن السوداء ، في الامن والدعة . وقد عبّرت قصته بشعرها عن حالته إصدق تعبير حين تقول بلسانه :

ينادونني في السلم يا ابن زبيبة وعند اصطدام الخيل يا ابن الاطايب

عنترة بن شداد العبسي

العبد والعصا

أَمِن سُمَيَّة دمع ٱلعَين مذروفُ ... لو ان ذا منكِ قبل ٱليَوم معروفُ

كَأَنَّهَا يوْم صدَّت ما تكَلِّمُني ... ظَبْيٌ بعُسْفَانَ ساجي ٱلطَّرف مطْروفُ

تَجَلَّلتنيَ إِذْ أهوى ٱلعَصَا قِبَلي ... كَأَنَّهَا صنَمٌ يُعْتَاد ، معكُوفُ [1]

أَلعَبْدُ عبْدكمُ وٱلْمَال مالكُم ... فَهَل عذابُكِ عني ٱليَوم مصروفُ

تَنْسَى بلَائي اذا ما غارَةٌ لحِقَتْ ... تَخْرج منهَا ٱلطِّوالات ٱلسَّراعِيفُ [2]

قد أطعَن ٱلطَّعْنَة ٱلنَّجْلَاءَ عن عُرُضٍ ... تَصْفَرُّ كَفُّ أَخيهَا وهوَ منْزوف

ابن السوداء والسيف

إني ٱمروٌ من خَيْر عبس منصِباً ... شَطْري ، وَأَحمِي سائري بٱلْمُنصُل

وَلَقَد أَبيْتُ علَى ٱلطَّوى وأَظلُّهُ ... حَتَّى أنالَ بهِ كَرِيمَ ٱلْمَأْكَل

واذا ٱلكَتِيْبَة احجَمَت وتَلَاحظَت ... أُلفِيتُ خَيْراً من مُعَمٍّ مُخوِلِ

اذ لا أُبادر في ٱلْمَضِيْق فوارسي ... أَوَلا أُوَكَّلُ بٱلرَّعيْلِ ٱلاوَّل

وٱلخَيْل تعْلَم وٱلفَوارس انني ... فَرَّقْتُ جمعَهُمُ بضَربَةِ فَيْصَلِ

بكَرَت تخوِّفُني ٱلحُتوف كَأَنني ... اصْبَحْتُ عن غَرَضِ ٱلحُتوف بمَعْزل

فأَجَبْتُهَا إِن ٱلمنِيَّة منْهَل ... لا بدَّ ان أُسْقَى بكَأْسِ ٱلْمَنْهَل

١ تجللتني : ألقت نفسها علي . ٢ الطوالات : الخيل . السراعيف : السراع .

فأقني حياءكِ لا ابا لكِ واعلمي   أني امرؤ سأموتُ ان لم أقتل

ان المنيّة لو تُمثَّل مثّلت   مثلي اذا نزلوا بضنك المنزل

والخيل ساهمةُ الوجوهِ كأنما   تُسقى فوارسُها نقيعَ الحنظل

واذا حُملتُ على الكريهة لم اقلْ   بعد الكريهة ليتني لم أفعل

عنترة بن شداد العبسي

٢

يتلازم عنترة وعبلة على ألسن العامة كما تتلازم اسماء مجنون ليلى وجميل بثينة وكثير عزّة وغيرهم في افواه الرواة والادباء . والفضل في تلازم عنترة وعبلة يعود الى القصة لا الى التاريخ . لان الرواة والمؤرخين لا يخصون عبلة بجانب كبير من اخبارهم عن شاعر بني عبس وفارسهم . وانما هم يبذلون اهتمامهم بالتحدث عن حروبه وعبوديته وتحرره . واذا ذكروا عبلة اتوا بها عرضاً خلال هذه الروايات .

بيد ان القصة جعلت عبلة اساساً ترتكز عليه حياة عنترة باحداثها ومغامراتها . فوضعته في مصاف العشاق المتيمين الذين ابتلوا بالهوى العذري وعانوا اشد التباريح والآلام . وعبلة هي التي انطقته بالشعر العاطفي الرقيق ، ودفعته الى اقتحام المكاره والاهوال ليمحو ببيض فعاله سواد لونه ، ويبلغ منزلة من المجد تؤهله لان يخطبها من ابيها ويتزوجها . وقد تسنى له ان يتحرر من عبوديته ، ويصيب بشجاعته وفصاحته شهرة يحسد عليها . الا ان عمه مالكاً والد عبلة كان من المستمسكين بتقاليد الاعراب في تعصبهم لصراحة النسب ، واحتقارهم للعبد الهجين وان اعترف به ابوه . فهو عندهم ابداً ابن الامة وابن السوداء .

فابى العم ان تكون ابنته زوجة لابن اخيه ، وامه سبية حبشية . وما

يعنيه ان يعتقه ابوه ، ويناديه الناس ابا الفوارس ، وفارس بني عبس . فابنته حرة بيضاء من حرة بيضاء ، فكيف يزوجها لعبد اسود من امة سوداء ، ام ولد لا ام بنين ؟ وهنا تبدأ المأساة الغرامية في قصة عنترة ، فان العم كان يخشى سطوة ابن اخيه اذا صارحه بالرفض ، ورده خائباً ، فاخذ يسعى للخلاص منه بالقائه في تهلكة لا يعود منها سالماً . فطلب منه مهراً لابنته الف ناقة من عصافير الملك النعمان . فسار عنترة في طلبها لا رفيق له غير اخيه شيبوب ، فلاقى اشد الاهوال والاسر حتى عاد بها ظافراً . على ان العم لم يكن ينتظر هذه النتيجة بل كان يتوقع هلاك عنترة في ارض العراق . فلما رآه يرجع سالماً يحمل اليه المهر طالباً تحقيق امنيته ، عمد الى وسيلة اخرى ينقذ بها ابنته من زواج ممقوت يلحقه العار بسببه . فترك حي بني عبس ولجأ الى القبائل العربية يستجير بها ، ويعرض ابنته على فرسانها وساداتها مشترطاً عليهم رأس عنترة صداقاً لها . فحيناً نراه في بني شيبان يعد بسطام بن قيس بن مسعود باعطائه عبلة اذا اجاره من عنترة . وحيناً نجده في بني كندة يحتفل بزفاف ابنته الى فارسها مسحل بن طراق .

ولكن عنترة كان يفسد عليه كل مرة خطته قبل تمامها . فيأتي الى بني شيبان ويبارز بسطاماً فيقهره فيصادقه بسطام . ثم ينقض على بني كندة ليلة العرس فيلقي الذعر في الحي ويقتل مسحل بن طراق . حتى اذا اعيت الحيل والد عبلة اضطر الى ان يزوجه بها مكرهاً او راضياً . فحظي عنترة بمحبوبته بعدما عانى لاجلها ابرح الآلام . وقد تركت لنا القصة شعراً اضافته الى عنترة يدون هذه الاحداث . منها قصيدته التي قالها في العراق عندما أسر وهو يطلب النوق العصافير :

ترى علمت عبيلة ما الاقي من الاهوال في ارض العراق

وقصيدته التي خاطب بها ابا اليقظان بسطام بن قيس الشيباني حينما خرج الى مبارزته :

يا ابا اليقظان اغواك الطمع   سوف تلقى فارساً لا يُندفع

ثم قصيدته التي هدد بها مسحل بن طراق :

أمسحلُ دون ضمك والعناقِ   طعانٌ بالمثقفة الدقاق

ولسنا نزعم باطلًا اذا قلنا ان اجمل شيء في قصة عنترة هي مأساته الغرامية التي يجتمع فيها الحب والحرب سواءٍ في الحوادث او في الاشعار . وغريب ان يسكت الرواة عنها ، ولا يعيروها جانباً من اهتمامهم ، مع ان شعر عنترة الصحيح لا يخلو من الاشارة اليها . فهذه المعلقة ، وهي اثبت شعر له ، تدلنا على ان والد عبلة كان يتنكر لعنترة ، ويهرب بابنته الى ديار الاعداء ليبعدها عنه . فيشكو الشاعر الفارس خصومة قومها ، ومشقة الوصول اليها ، او يبعث جاريته تتجسس له اخبارها ، فتعود اليه تقول انها رأت غفلة من الاعداء تسهل طريق اصطياد الفتاة :

حلّت بارض الزائرين فاصبحت   عسِراً علي طلابُك ابنة مَخرَمِ

عُلّقتها عَرَضاً واقتل قومها   زعماً لعمرُ ابيكِ ليس بمزعَم

فبعثت جاريتي وقلت لها اذهبي   وتجسسي اخبارها لي واعلمي

قالت رأيت من الاعادي غِرةً   والشاة ممكنة لمن هو مرتم

يا شاة ما قنصٍ لمن حلّت له   حَرمت علي وليتها لم تَحرُم

فهذه الابيات من المعلقة صورة ناطقة بالمأساة الغرامية التي تتحدث عنها القصة . فعبلة في ارض الزائرين ، اي الاعداء ، وقومها هم الذين ذهبوا بها اليهم ، فاضطر عنترة الى مقاتلة الاعداء ومقاتلة اهلها معهم . فأصبح طلبها عسيراً عليه . كيف يطلبها وهو يقتل قومها ؟ ان في ذلك لطمعاً منه

في غير مطمع : « زعماً لعمر ابيك ليس بمزعم » . ولماذا ارسل جاريته الى ارض الاعداء تتجسس اخبار حبيبته ؟ أليس لكي يأخذهم على حين غرة كما اخذ بني كندة وهم في غفلة العرس ، فقتل مسحلاً وانقذ عبلة ؟ « قالت رأيت من الاعادي غرة » . واخيراً هذه الشكوى يرسلها قلبه الجريح : « حَرُمت علي وليتها لم تحرُم » . أفما تنطق كفاية بلسان القصة وما لقي فيها عنترة العاشق من اليأس والحرمان ؟

على ان اليأس والحرمان لم يرافقا عنترة طوال حياته في القصة ، فقد رق له قلب عمه وصفا بعد قسوة وضغينة ، فأزوجه عبلة فاقيمت الافراح والولائم اياماً وليالي كما تقام في اعراس الملوك . ونال عنترة امنيته واشتفى قلبه الكليم ، فألقي الستار على مأساته الغرامية ليرتفع على مشاهد جديدة تتمثل فيها الابوة والفروسية وحوادث اخرى يشترك فيها الانس والجان . اما التاريخ فلا يُقطع بزواج عنترة من عبلة ولا ينفيه . فالسيوطي مثلاً يخبرنا بان والد عبلة اعترف بابن اخيه ووعده ان يزوجه ابنته اذا انقذه من الاسر . وقد انقذ عنترة عمه وانقذ عبلة معه . فهل برّ مالك بوعده فأعطاه ابنته ، او انه كان مخادعاً له حتى اذا انطلق سراحه عاد الى دفعه ومماطلته ، فقضى الفارس الاسود حياته بين وعد ورد ، ويأس وامل ؟ ثم هل بقيت عبلة عزبة لا تتزوج اذا كان الحظ لم يسمح لعنترة بقضاء لبانته منها ؟ تلك اسئلة ربما لا نعدم ان نجد جواباً عليها في شعره الثابت ، وان كان الرواة يسكتون عنها او لا يردون رداً صريحاً . وشعر عنترة الذي وصل الينا ، واثبته الادباء ، لا يقتصر في غزله على عبلة وحدها ، بل يتناول احياناً سمية او سهية امرأة ابيه . وكان يهواها في صباه وقد ضربه والده من اجلها . ويتناول ايضاً امرأة اسمها رقاش :

نأتك رَقاشِ الا عن لمامِ وامسى حبلها خَلَقَ الرِمامِ

ولا نعلم عن هذه المحبوبة شيئاً ، فهي نكرة لا تُعرف الا باسمها . ولكن الرواة يخبروننا بانه كان لعنترة زوجة من بني بجيلة . فقد تكون هي رقاش ، او ان رقاش غيرها . ومهما يكن الامر فغزل عنترة في عبلة خير شعره من هذا النوع ، وان كان لا يقاس بحماسياته . فقد ذهب في شعره بعامة ذكر الحرب ، على حد تعبير الاصمعي ، كما ذهب امية بن ابي الصلت بعامة ذكر الآخرة ، وعمر بن ابي ربيعة بعامة ذكر الشباب . واذا كان عنترة قد اصاب بغزله شهرة بين العامة ، فيعود الفضل في ذلك الى شعره المصنوع في القصة ، فقد حُمل عليه غزل كثير ليس له يد فيه البتة . ونحن يهمنا غزله الصحيح ، وغزله في عبلة خصوصاً ، لعلنا نلقى جواباً على الاسئلة التي مر ذكرها . واشهر ما وصل الينا من غزله في عبلة ما جاء في المعلقة ، فقد خص عنترة طويلته الحسناء بابنة عمه ثم بذكر معاركه ومبارزاته . ويزعم بعض الرواة ان المعلقة اول قصيدة قالها ، وكان لا ينظم من الشعر الا البيت والبيتين في الحرب ، مع انهم يعترفون بانه انشد معلقته بعدما كان قد ابلى وحسنت وقائعه ، واعترف به ابوه واعتقه . وهم في الوقت نفسه يروون له قصائد قبل تحرره . منها قصيدته التي قالها في سمية امرأة ابيه .

وليس من المعقول ان تكون المعلقة اولى قصائده وقد ذكر فيها حرب داحس والغبراء . وهذه الحرب انتهت حوالى سنة ٦٠٩ م اي قبل وفاة الشاعر بنحو تسع سنوات ، فسواء نظمت بعد الحرب او في اثنائها ، فان عنترة كان متقدماً في السن عندما انشأها ، الا اذا كان قد نظمها في اوقات مختلفة وازمنة متقطعة . ومهما يكن من شيء فليست المعلقة اولى قصائده ، وان كانت خير شعره . بيد اننا نستدل منها على حرمان عنترة ، وتظلمه من قوم عبلة لانهم بعدوا بها ونزلوا في ارض الاعداء فمنعوها منه : « حرُمت علي

وليتها لم تحرم » . فعنترة في المعلقة لم يتزوج عبلة بعد وانما يشكو فراقها ، وجور اهلها عليه ، فاذا كانت المعلقة نظمت دفعة واحدة في زمن واحد فيكون الشاعر قد بقي طوال حياته محروماً ابنة عمه . وله قصيدة اخرى قالها فيها (راجع صفحة الشعر) يتبين منها ان عبلة تزوجت رجلاً غير عنترة ، يصفه شاعرنا بانه بادن كثير اللحم . وهذه القصيدة معروفة له يثبتها الرواة ولا يدفعونها . وليس في سائر شعره الصحيح ما يدلنا على انه حظي بابنة عمه كما تقول القصة . وانما هو يشبب بها ، ويؤثرها على جميع النساء ، وان كان لا يقصر غزله عليها :

ولئن سألت بذاك عبلة اخبرت ان لا اريد من النساء سواها

وغزل الشاعر في عبلة ، لا مشاحة ، افضل غزل قاله لانه يمثل حرمانه ولوعته وتظلمه ، ويبدو فيه اثر العراك العنيف بين حبه وسواد لونه وضعة نسبه ، هذا العراك الذي شهدنا مواقعه في الفصل السابق بين العبودية والفروسية . فعبلة لم ترافق عنترة في شعره الغزلي وحده بل رافقته ايضاً في فخره وحماسته وذكر حروبه . فانما هو يفتخر ويغامر من اجلها ، واذا لم يكن لديه من جمال الصورة وكرم المحتد ما يشفع به اليها أفلا يسعى لارضائها بوصف شجاعته ، وسخائه وعفته ، وذكر وقائعه ومشاهده ، حتى اذا قُرن اسمها باسمه في المجالس تستطيع ان ترفع رأسها به :

اثني عليّ بما علمت فانني سَمْحٌ مخالقتي اذا لم أُظلم
فاذا ظُلمتُ ، فان ظلمي باسل مرٌّ مذاقته كطعم العلقم
ولقد شربت من المدامة بعدما ركد الهواجرُ بالمشوف المعلم
فاذا شربت فانني مستهلك مالي ، وعرضي وافرٌ لم يكلم
واذا صحوت فما اقصر عن ندى وكما علمت شمائلي وتكرّمي

بمثل هذا الشعر يبدع عنترة لانه يصور نفسيته ابلغ تصوير ، ويعطينا طرازاً فاخراً عن غزل الفرسان ، وكيف تجتمع فيه الفاظ الحب بالفاظ الحرب . فتراه يعرض معاركه على عبلة لتشهد مآتيه في مبارزة الابطال او مزاحفة الجيوش :

هلاّ سألت الخيل يا ابنة مالك ان كنت جاهلة ، بما لم تعلمي

يخبرك من شهد الوقيعة انني اغشى الوغى ، واعف عند المغنم

ويصف لها الفارس الذي يبارزه ، فاذا هو بطل تتحاماه الابطال خشية لقائه ، وكريم طيب المحتد من اولئك البيض الاحرار الذين يفاخرونه باصلهم ونسبهم ، فيظهر بذلك فضله في التغلب عليه ، وهو العبد الاسود المغموز النسب :

ومدجج كره الكماة نزاله لا ممعن هرباً ولا مستسلم

جادت له كفي بعاجل طعنة بمثقف صدق الكعوب مقوّم

فشككت بالرمح الاصمّ ثيابه ليس الكريم على القنا بمحرّم

فتركته جزر السباع ينشنه يقضمن حسن بنانه والمعصم

ففي قوله : الكريم ، وحسن بنانه والمعصم دلالة على محتد الفارس ونعمته وبياض لونه .

ويصف معاركه ، فاذا هي ملاحم تتشابك فيها الابطال ، شاكية هولها بغماغم لا تفهم . وبنو عبس يتقون به رماح الاعداء فما يرتد عنها وان ضاقت عليه فسحة الاقدام . والاعداء تلهج باسمه مشرعة رماحها الى صدر جواده . فاذا هو ركن المعمعة وقوامها ، وحجر رحاها وثفالها . وفي المعلقة وصف جميل لهذه المعارك التي يعرضها عنترة امام عبلة صوراً سريعة تبدو فيها بطولته بارزة الخطوط والالوان . وكذلك القصيدة المثبتة في مكان آخر تشتمل على تلك

الخصائص التي يتميز بها شعر عنترة في الغزل المقترن بالحماسة ، غزل الفرسان .

نظرت عبلة الى عنترة ذات يوم فرأته قليل اللحم ، شاحب اللون كالسيف ، متشعث الشعر ، بالي القميص . لم يتطيب منذ سنة ، ولم يمشط شعره . لا يرتدي كسوة غير درعه ، فظهر صدأ الحديد عـلى جلده لانه لم يغتسل ، فتضاحكت عجباً وقالت :

لا خير فيك كأنهـا لم تحفل

فعجب عنترة منها كيف مالت بعينها عن ماجد مثله طلق اليدين ، طويل القامة . والعرب تتمدح بالطول . فقال لها : لا تقاطعيني يا عبلة ، بل راجعي فيّ بصيرتك متأملة ، فكم من فتاة املح منك دلالا واشهى منظراً جاءت اليّ تطلب مواصلتي لانني اهل لمحبتها فوصلت حبلي بحبلها . يا عبل كم من حرب تغمر الفرسان بشدائدها ، باشرتها بنفسي ، فكشفت غمتها ، وما كادت وحقك تنكشف . فيها من السيوف والرماح اللوامع ما لو رأيتِ كثرته لسلوت التبرج بعد حبك للخضاب والتكحل . ولئن تريني نحيلًا قليل اللحم ، فمن يكن مثلي هدفاً لاسنة الرماح فلا بد له من ان يهزل . ورب فارس ابيض اللون بادن مثل زوجك ، كثير اللحم ، ضخم على ظهر جواده ، تركته على التراب معفراً ، والاعداء بين جريح وقتيل . حقاً انه بطل شجاع لقيت الموت يوم لقيته لابساً درعه . ولكن سيفي كان عارياً . هو سيف صلب اشق به الجماجم في الحرب ، واقول سلمت يد صانعه .

فهذه القصيدة وحدة مترابطة الاجزاء بما فيها من غزل يمازجه العتاب ، وفخر تتخلله الحماسة . فعنترة بين الحب والحرب ، شأنه بـين العبودية والفروسية ، يدافع عن نفسه مظهراً شجاعته وحسن خصاله ، وتفوقه على الاحرار لئلا تغتر عبلة بزوجها البادن الذي لم تنهك جسمه الاسفار لمـا هو عليه من نعمة تغنيه

عن الغزو وركوب المصاعب طلباً للكسب والحياة . فتحسبه افضل من فارسها الاسود القليل اللحم الشاحب اللون . فكم بطش عنترة بفارس مثله من البيض البادنين ، وتركه صريعاً متعفر الاوصال . ولا يغفل ان يذكر لها تصدي النساء الجميلات له خاطبة وده على سواد جلده وهزال جسمه : فالكفاح الذي شاهدناه قوياً عنده بين العبودية والفروسية صورة للدفاع عن لونه ونسبه ، نشاهده الآن على قوته بين الحب والحرب ، صورة اخرى لمأساته الغرامية .

عنترة بن شداد العبسي

غزل الفرسان

عجِبَت عبَيْـلَةُ من فتًى متبـذِّلٍ ... عاري ٱلاشاجع، شاحبٍ كالمُنْصُل [1]

شعِثِ المَفـارِقِ مُنهَجٍ سرباله ... لم يدّهِنْ حَـولاً، ولم يترجَّل [2]

لا يكتَسِي الا الحديد اذا ٱكتسى ... وكذاكَ كُل مُغَـاورٍ مستَبسِل

قد طالما لبس ٱلحديد فانما ... صـدأ ٱلحديد بجـلْده لم يُغسَل

فتضاحكَت عَجَباً وقالت قولَةً: ... لا خَيْر فيكَ، كأنّهـا لم تَحْفَل

فعجِبتُ منْهَا كيْف زلت عيْنُهَـا ... عن ماجِدٍ طلْقِ ٱليدَيْن شمرْدَل [3]

لا تصْرميْـني يا عبَيْـلَ وراجِعي ... فيَّ ٱلبصِـيرةَ نظْرةَ المتـأَمِّل

فلربَّ أملحَ منْكِ دَلاًّ، فاْعلَمِي، ... واقرَّ في الدنيَـا لعَيْن المجتَـلي [4]

وصلَت حبَالي بالذي انا اهـله ... من ودّها، وانا رخيُّ المِطْوَل [5]

يا عبْلَ كم من غمْرةٍ باشرتهَـا ... بالنّفْس ما كادَت، لعمْركِ، تنْجَلي

فيْهَا لوامعُ لو رأَيت زَهاءَهاَ ... لسَلَوتِ بعْد تخضُّبٍ وتكَحُّل [6]

إما تريْني قد نَحَلْتُ ومن يكُنْ ... غرَضاً لاطراف الأَسنَّةِ ينْحَل

فلربَّ أبلَجَ مثْـل بعْلِك بادنٍ ... ضخْم عـلى ظهْر الجواد مهبَّل [7]

١ متبذل: باذل نفسه في الحروب والاسفار. عاري الاشاجع: قليل اللحم.

٢ شعث المفارق: متداخل الشعر. منهج سرباله: بال قميصه. يترجل: يمشط شعره.

٣ شمردل: طويل، والعرب تتمدح بالطول. ٤ المجتلي: الناظر.

٥ المطول: الحبل. ٦ زهاءها: كثرتها. ٧ ابلج: ابيض. مهبل: كثير اللحم.

غادرتُهُ متعَفّراً أَوصالُهُ والقَوْمُ بَيْنَ مجرَّحٍ ومقتَّلِ
ولقَد لقِيتُ الموْتَ يَوْمَ لقِيتُهُ متَسَربلًا ، والسَّيْفُ لم يتَسَربلِ [8]
ذَكَرٌ أَشقُّ بهِ الجمَاجمَ في الوغى واقول : لا تُقْطَعْ يمينُ الصَيْقَلِ [9]

٨ متسربلا : مدرعا . لم تسربل : لم يكن في غمده . ٩ الصيقل : صانع السيف .

عروة بن الورد العبسي

تلك الصحراء المتمردة على الفاتحين ما ألانت عنقها يوماً لنير غريب ، ولا ذاقت مرارة العبودية حتى في ما تعارفت عليه قبائلها من شرائع وقوانين . كانت هي والحرية توأمين لا ينفصل واحدهما عن الآخر . فالتلال العارية ، والفجاج الممدود لا يطوف منها اليه الا كل طلق الجناح .

وابناء تلك الصحراء على ما فيهم من تفاوت في النسب العريق ، ودرجات الشرف والسيادة ، وعلى ما في ساداتهم واشرافهم من انانية واعتداد ، كانوا لا يخضعون في قبائلهم لنظام الطبقات خضوع العبد للمولى والمرؤوس للرئيس . وانما هم يسوّدون واحداً منهم اذا آنسوا به فضائل السيد : ثروة وسخاء ، وحلماً وشجاعة وفصاحة . فتلقى على عاتقه هموم القبيلة ليفرجها بماله ورأيه وشدة بأسه . فسيد القبيلة خادمها الاكبر ، يتحملون اليه بدياتهم وجرائمهم وفقرائهم ، فيبذل عن يد ماله ومواقده . يعصبون مشاكلهم بعمامته ، فيكون مسؤولا عن حلها بحكمته وسداد رأيه . واذا ثاروا الى الحرب تعرض في المقدمة لشفار السيوف وأسنة الرماح .

وليست السيادة وراثة عندهم ، وانما هي انتخاب لتنافسهم في طلبها ، فقلّ ان يسلّم احد منهم الامر لغيره ولو كان اباه او اخاه او كبير عشيرته الا على كره وحياء . لذلك كانت تنتقل في القبيلة من بيت الى آخر ، فقلما تعددت في بيت واحد . واشرف البيوت عندهم ما تتابعت فيه رئاسة آباء

ثلاثة ثم اتصلت بالرابع فيسمى الكامل كبيت حذيفة بن بدر في بني ذبيان ، وبيت ذي الجدّين في بني شيبان . بيد ان هذه السيادة مع ما فيها من شرف لاصحابها لا تجعل في المجتمع القبلي طبقات متباعدة لانها خاضعة لنظام الانتخاب من جهة ، ثم لان كل فرد في القبيلة يطمع فيها ، ويعدّ نفسه صالحاً لها . فاذا رضي لغيره بالرئاسة فلا يرضى ان يفقد معها شيئاً من حريته وكرامته وعزة جانبه . وتأبى عليه فطرته ان يدعوه بسيدي ومولاي مع اعترافه له بالسيادة ، وانما يدعوه باسمه او يكنيه بأبي فلان . وخبر البدوي مع عمر بن الخطاب مشهور حين قال له وهو خليفة على المسلمين : « والله يا عمر لو رأينا بك اعوجاجاً لقومناه بشفار سيوفنا . » ولم يجد سيد المسلمين في صراحة هذا الاعرابي ما يسيء اليه ، لانها مألوفة عندهم طبيعية فيهم ، وقد نشأ عليها عمر كما نشأ عليها مخاطبه فكيف ينكرها عليه ؟

والبدوي لا يخشى ان يقرّع السيد ويغلظ له القول اذا مس كرامته او ناله بسوء ، فيذكّره بماضيه ، ويقول له : « نحن رفعناك ونحن سودناك ، ولم تكن من قبل شيئاً . » وربما افتخر عليه ببأسه وكرمه كما افتخر عنترة على قيس بن زهير سيد بني عبس عندما دعاه بابن السوداء :

واذا الكتيبة أحجمت وتلاحظت ألفيتُ خيراً من مُعمّ مُخول

فحرية الافراد اقدس رمز في حرم القبيلة ، تؤلف منهم مجتمعاً اشتراكياً صغيراً ، تشدّ بعضه الى بعض ، عصبية تعاونية نازلة من الاشراف الى الصعاليك صاعدة من الفقراء الى الاغنياء . يرى كل واحد منهم خير القبيلة من خيره ، وخيره من خير قبيلته . المجموع للفرد والفرد للمجموع . فالموسر يساعد المعوز بماله ، والفارس يدافع عن الحمى بسيفه ، ويغزو ليعود بالاسلاب والغنائم ، والشاعر يشيد بمناقب قومه ، ويهجو اعداءهم ، ويرد على من يهجوهم ، والحكيم العاقل

يرشد القبيلة ، ويفض مشاكلها ، ويفصل في امورها [١] .

هـذه الحياة الحرة في تعاونها المشترك مزجت الطبقات في المجتمـع القبلي حافظة حقوق الاشراف ، لا هاضمـة حقوق الصعاليك . فالسيادة لها حدود ، والفقراء من ابناء القبيلة غير مستعبدين .

واولئك الفقراء الصعاليك اولى من غيرهم بان تتمثل فيهم الحياة الاشتراكية الحرة ، في تعاونهم ، وسعيهم الى الرزق ، وشعورهم بالبؤس شعوراً مشتركاً ، ثم في نقمتهم على البخل واصحابه ، ودعوتهم الى اقتسام الاموال ، وان لا يستأثر الاغنياء بثرواتهم . فالكسب حر مشاع ان لم يكن بالرضى فبالكره والاغتصاب . وقد نبغ منهم فرسان وشعراء وعدّاؤون لا تلحقهم الجياد ، يغزون على الخيول وعلى الاقدام ، ويهاجمون القوافل السائرة في عرض القفار فيفتكون ويغنمون ، وملء نفوسهم فخر واعتداد . يتباهون بشجاعتهم وكرمهم ، فهم يبذلون ما بايديهم من الغنـائم للفقراء والجائعين ، واذا جاعوا لا يجدون غضاضة في التحدث عن فراغ بطونهم ، فالمـال قليل ، والكسب مبذول . هكذا كان الشنفرى ، وتأبط شراً ، والسليك بن السلكة ، وهكذا كان الاشتراكي الكبير ، ابو الصعاليك عروة بن الورد العبسي .

شاعر من شعراء الجاهلية ، وفارس من فرسانها وصعلوك من صعاليكها المعدودين المقدمين الاجواد ... بهذه النعوت الطيبة يقدّمه ابو الفرج لقرائه في اغانيه ، ويضيف الى ذلك ان معاوية كان يقول : « لو كان لعروة بن الورد ولد لاحببت ان اتزوج اليهم . » وان عبد الملك بن مروان قال : « ما يسرني ان احداً من العرب ولدني ، ممن لم يلدني ، الا عروة بن الورد . » فحسب هذا الصعلوك فخراً ان ملكين من ملوك بني امية ، بل من اعظم ملوك العرب ، يتمدحان بالقربى اليه مصاهرة وانتساباً . وكان ابو جعفر المنصور يروي اخباره

معجبا بها ، ويسأل عنها من يفد عليه من بني عبس ، لما فيها من ظرف وطرافة .
فقد كان عروة صعلوكاً من لصوص العرب ولكنه لص شريف ، عالي الاخلاق
يجود بما تكسب يداه على الفقراء والمرضى . ويتعهد الصعاليك بعنايته فيقوم
بامرهم اذا اخفقوا في غزواتهم ولم يكن لهم معاش . وقد قال عبد الملك بن
مروان : « من زعم ان حاتماً اسمح الناس فقد ظلم عروة بن الورد . » ما
اكتسب عروة مالا ليجمعه وينتفع به ، ولا غزا غزوة ليستمتع بغنائمها ، وانما
كان يجهد ويتعب ليجعل اناءه مشتركاً بينه وبين غيره ، وجسمه مقسماً في
اجسام كثيرة . يكتفي بشربة ماء ، ويقدم طعامه للجائع ، في ليلة البرد ،
ليلة النحس كما ينعتها الشنفرى ، حين تصاب البادية بالقحط لانقطاع المطر
واشتداد الصقيع ، فيسطو الجوع على الفقراء الضعاف ، فيهرعون الى ابواب
الكرام . وباب عروة ليلتئذ مفتوح وكفّ الصعلوك مبسوطة تجود عليهم ببقية
ما ترك جوده لديه . أفلا يحق له ان يخاطب حاسده بقوله :

واني امرؤٌ عافي انائي شركةٌ ، وانت امرؤٌ عافي انائك واحد
أتهزأ مني ان سمنتَ وان ترى بجسمي مسّ الحق ، والحق جاهد
اقسّم جسمي في جسوم كثيرة واحسو قراح الماء ، والماء باردٌ

بلى ، فان هذه الابيات لتسمو باخلاق صاحبها الى انبل نفس انسانية
حملها جسم صعلوك . نفس ترى فرضاً عليها ان توزع قواها في قوى اخوانها
الضعفاء ، وتؤثر الموت على ان لا يجد صاحب الحاجة عندها ما يطمئن اليه
في الملمات :

دعيني اطوفْ في البلاد لعلني أفيدُ غنى فيه لذي الحق محملُ
أليس عظيماً ان تلم ملمةٌ ، وليس علينا في الحقوق معوّل
فان نحن لم نملك دفاعاً بحادث تلمّ به الايام ، فالموت اجملُ

فهي تسعى وتطوّف في البلاد لعلها تفيد ثروة تستطيع بها ان تؤدي واجبها نحو اولئك الذين اثقلتهم الخطوب ، فان لهم حقوق الاخوة عليها ، ومن العار ان لا تحمل هذه الحقوق .

وقد شغل السعي والتطواف شعر عروة كما شغل حياته ، فكان اكبر همه ان يقع على ثروة يسدّ بها فاقته وفاقة صعاليكه . لانه رأى الناس يزدرون الفقير ولا يجعلون له وزناً في مجتمعهم ولو كان عاقلًا فاضلًا . ورآهم يعظمون الغني ، مبالغين في اطراء فضائله ، متناسين عيوبه وما يقترف من ذنوب . فصاح صيحة الجريح عندما لامته امرأته على كثرة اسفاره ، على حياته المشرّدة المضطربة :

دعيني للغنى اسعى فاني ... رأيت الناس شرّهم الفقيرُ
وابعدَهم واهونَهم عليهم ... وان امسى له حسبٌ وخير
ويقصيه النديّ وتزدريه ... حليلتُه ، وينهرُه الصغيرُ
ويَلقى ذا الغنى ، وله جَلالٌ ... يكادُ فؤادُ صاحبه يطيرُ
قليلٌ ذنبه والذنب جمٌّ ، ... ولكن للغنى ربٌّ غفورُ

فسعي عروة كثيراً ، وتشرّد غازياً يسلب الاحياء ويقطع الطرق على القوافل ، ما يستقرّ في مكان ، ولا يدري اين يؤدي به الطواف ، فليله في موضع ونهاره في آخر . فاذا سألوه الى اين انت راحل قال :

وسائلةٍ اين الرحيلُ وسائلٍ ، ... ومن يسأل الصعلوك اين مذاهبه ؟

واكره شيء عليه ان يرى صعلوكاً خاملًا لا يسعى في طلب رزقه وهو قادر على السعي لا يمنعه غير الكسل . وقصيدته المثبتة في مكان آخر فيها صورة للصعلوك الخامل الذي يكرهه ، وصورة ثانية للصعلوك النشيط الذي يحبه ، وتتمثل فيه شخصيته . فالاول (لحاه الله) ينتظر مجيء الليل ليقصد

الاماكن التي تنحر بها الابل في الحي ، فيجمع العظام ويا كلها . ويعدّ نفسه غنياً ليلة يضيفه صديق ويحسن قراه . ينام لكسله من العِشاء الى الصباح ، ويقوم ناعساً لم يشبع من النوم . يرقد على التراب لانه لا يسعى ليملك فراشاً يرقد عليه . فاذا استيقظ اخذ يفرك الحصى ليزيلها « عن جنبه المتعفر » . يخدم نساء الحي كلما دعونه للخدمة مكتفياً بهذا العمل الدنيء . ولكن هذا العمل يتعبه على خساسته ، فلا يأتي المساء الا رأيته برك متعباً كالبعير الذي برّح به الاعياء .

واما الثاني فصعلوك يضيء وجهه كالشهاب ، يطل على اعدائه في ساحتهم ، فيدفعونه عنهم كما يدفع المقامر القِدْح الذي يخسر معه . لا يجدون الامن اذا ابتعدوا عنه ، فهم يترقبون دائماً عودته لخوفهم منه كما يترقب الاهل عودة الغائب كل حين . فان لقي المنية هذا الصعلوك مات مشكوراً ، وان لقي الغنى ، فهو بالغنى جدير .

من هذه الصورة المزدوجة نعلم ان عروة بن الورد كان يفرق بين صعلوك وصعلوك . يمقت الخامل القاعد ، ولا يعذر الا المرضى والعاجزين . قال صاحب الاغاني : كان عروة يجمع الصعاليك في السنة المجدبة ، سنة القحط والجوع ، وفيهم المريض والكبير والضعيف ، فيحفر لهم الاسراب ويجعلها حظائر مسقوفة بالاشجار ، فيؤويهم اليها ويطعمهم من ماله وكسبه ، فمن قوي منهم بعد مرض او ضعف خرج به الى الغزو ، وجعل لاصحابه الباقين نصيباً من الغنائم . حتى اذا اخصب الناس وألبنوا ، وذهب القحط ، ألحق كل صعلوك باهله ، وقسم له نصيبه من غنيمة ان كانوا غنموها ، فربما اتى الانسان منهم اهله ، وقد استغنى ، فلذلك سمي عروة الصعاليك .

وروى ابن الاعرابي ان قوماً من بني عبس اجدبوا واصابهم جوع شديد

وبؤس ، فاتوا عروة فجلسوا امام بيته . فلما بصروا به صرخوا وقالوا : يا ابا الصعاليك ، أغثنا ! فرقّ لهم وخرج ليغزو بهم ، فنهته امرأته خوفاً عليه ، فعصاها . ثم لقيه مالك بن حمار الفزاري فسأله اين يريد ، فاخبره ، فاهدى اليه ناقة ، فنحرها واطعم صعاليكه . واشار عليه مالك ان يرجع ، فعصاه ومضى حتى انتهى الى بلاد بني القين فاغار عليهم واستاق قطعة من الابل تبلغ الاربعين او تزيد ، وعاد بها ، فاقتسمها بينه وبين اصحابه .

وأحب شيء اليه ان يسطو على اموال الموسرين البخلاء . قيل بلغه عن رجل من كنانة انه ابخل الناس واكثرهم مالا ، فما زال يبث عليه العيون حتى صادف منه غرة ، فشدّ على ابله ودفعها امامه الى قومه ، فقسمها فيهم .

كان يكره البخلاء ، وينكر الحرص على المال ، ويحب الكرام ويمدحهم كما مدح مالك بن حمار لسخائه . وقد بلغ به تعبده للجود ان اتخذ شرائع للضيافة لا يتم حسن القرى بدونها ، فما اطعام الضيف بكافٍ ، ولا يكفي ان يبيت عند مضيفه مستريحاً ، اذا لم تقترن بالضيافة آداب مخصوصة تدل على رقة الشعور وكرم الاخلاق . فعروة الصعاليك يرى ان البشاشة للضيف اول اكرامه ، ولا ينبغي ان يُسأل عن نسبه وبلده لئلا يلحقه الحياء . وعلى المضيف ان يقدم فراشه لضيفه ويجلس اليه محدثاً مؤانساً لينام مطمئناً . والحديث من القرى :

فراشي فراش الضيف ، والبيت بيته ، ولم يُلهني عنه غزالٌ مقنَّعُ
أحدّثهُ انّ الحديثَ من القِرى لهُ وتعلمُ نفسي أنه سوف يَهجعُ

بهذه الآدابِ العالية يتميز عروة في ضيافته وجوده . كان اناؤه مشتركاً ، وجسمه مقسماً في اجسام كثيرة . كان شاعراً مجيداً ، يأتمّ بنو عبس بشعره ، كما قال الحطيئة . كان فارساً شجاعاً بعيد الغارات كالليث الضاري ، وكان صعلوكاً شريفاً وابا للصعاليك ...

عروة بن الورد العبسي

الصعلوك

لحا الله صعلوكاً اذا جن ليله ... مُصافي المُشاشِ ، آلفاً كُلَّ مَجزِرِ [1]

يَعُدُّ الغِنَى ، من نفسِهِ ، كُلَّ ليلة ... أصاب قِراها من صديقٍ مُيَسَّرِ

ينام عِشاءً ثم يُصبِح ناعساً ... يحُتُّ الحصَى عن جنبِهِ المُتَعَفِّرِ [2]

يُعِين نساءَ الحي ما يستَعِنَّهُ ... ويُمسي طَليحاً كالبَعِير المُحَسَّرِ [3]

ولكن صُعلوكاً صفيحَةُ وجهِهِ ... كَضَوْءِ شهابِ القَابِس المتَنَوِّرِ [4]

مُطِلًّا على اعدائِهِ يزجُرونَهُ ... بسَاحتِهِم زجرَ المَنِيحِ المُشَهَّرِ [5]

اذا بعُدوا لا يأمَنون اقترابَهُ ... تَشَوُّفَ اهل الغَائِبِ المُتَنَظَّرِ [6]

فذلك إن يلقَ المنيَّةَ يلقَها ... حميداً ، وإن يستَغنِ يوماً فأَجدِرِ [7]

١ مصافي : مختار . المشاش : العظام . المجزر : موضع نحر الابل .

٢ يحت الحصى : يفركها ليزيلها .

٣ الطليح والمحسر معناهما واحد ، وهو الذي برح به الاعياء .

٤ القابس : الذي يأخذ من النار جذوة . المتنور : طالب النار .

٥ المنيح : من اقداح الميسر ينفر منه المقامرون لان لا ربح معه .

٦ اي يترقبون عودته لخوفهم منه ترقب اهل الغائب .

٧ فأجدر : اي ما اجدره بان يستغني .

تلك البادية التي تتمثل بها الفطرة في شتى معانيها : طفولية الطبيعة ، طفولية العمران ، طفولية الشعب باخلاقه ومعارفه وآدابه . فالطبيعة ما زالت في اوائل تكوينها لم تتعدد مشاهدها ، ولا تنوعت خلائقها : رمال ملتوية ممتدة ، وكثبان هرمية متقابلة ، وجبال جرد صغيرة ، وحرّات بركانية لافحة . ماؤها بقايا المطر في الآبار والغدران . وعشبها قليل السماح مرهون بسقوط الغيث . ليس فيها من الشجر الا كل ظمآن العروق ، دقيق الورق ، شائك الرؤوس . ولا يأوي اليها سوى ما استطاع ان يعيش فيها من حيوان طويل الساقين مديد الخطوات ، بوسعه ان يقطع مسافاتها الشاسعة دون ان ينقطع في عرض الطريق . ما هي بالطبيعة التي اكتمل نشوؤها ، فاختلفت مناظرها والوانها ، واخرجت ما في بواطنها من كنوز الارض وخير السماء ، فكانت جبالها جناناً معلقة ، وحرّاتها نهوراً دافقة ، ورمالها رياضاً مزهرة مَريعة ، وكثبانها خمائل اشجار تهدلت اغصانها ، تغني عليها اصناف الطيور ، وتستظل فيأها اصناف الحيوان .

وعمرانها ايّ عمران الا ما مسح الله به وجهها مسحة اولى . لم تمتد اليها يد انسان فتخط مدنها وامصارها ، وتشق طرقها وشوارعها ، وترفع بناياتها وجدرانها ، وتجر المياه الى دورها وبساتينها . ليس فيها من البنيان الا خباء من شعر يُنصب ثم يُقتلع ، يدور به نؤى يحول دون تألب المطر عليه . أمامه موقد نار وركيّة ماء . تطلع الشمس فتنشر أشعتها في كل مكان

لا يعترض طريقها حائط يحيط ، ولا بناء مبني . ويهطل المطر فتستقبله الارض باجمعها تبتلع منه ما تشاء ، وتستبقي ما تشاء ، لا يستوقفه حاجز ، ولا يجرّيه انبوب ، ولا تصرّفه قناة . وما وجود بعض القرى التي تشبه ان تكون عامرة بخليق ان ينفي فطرية الفضاء الاوسع من اللاعمران .

والشعب الجاهلي ، يكاد يمثل الانسان الاول في بدء نشوئه ، لا يتسع مجتمعه الى ابعد من القبيلة ، يتعصب لها ما دام يرى في ذلك خيراً ونفعاً له ، ويتخلى عنها وينكرها اذا ألحقت به أذيّة وضيماً . لا يفهم معنى للوحدة القومية ، ولا يحسن ان يجتمع أمة واحدة . مترّحل لا يستقر في موضع ، يحمل وطنه على ظهره ، نكل مكان له منزل ، وفي كل منزل حنين وذكريات . غريب عن القوانين والشرائع الا ما قضى به الناموس الطبيعي عُرفاً وعادة . يقبل سيادة القوي من عشيرته ما بقيت حقوقه مضمونة ، ويخلعها عنه اذا أحس الظلم والحيف . متمرد كصحرائه لا تباع حريته لفاتح او مستبد ، ولا يستهان جانبه . اناني يستأثر بالخير والفضائل دون غيره لتأصل الفردية في نفسه ، وتغلب الشخصية على ذاتيته ، فاذا وهب واعطى فما يرضاها حسنة خفية بل لكي تذاع على الملأ فيفتخر بها ويمتدحه الناس . يعيش من السلب والنهب ورعاية الابل ، اقدم الوسائل النافعة عند الانسان الفطري . وينفر من التجارة والصناعة واجداً فيها دناءة ومذلة . وما آتته الارض فيكون حارثاً زارعاً الا في مواطن قليلة محدودة . نشّأته الطبيعة على هواها خشن الجسم ، جافي الطباع ، حراً صريحاً لا يعرف التكلف والممالقة ، صادقاً ما طاب له الصدق ، واكذب الناس اذا وجد الكذب مفيداً . يصدق ويكذب دون ان يتكلف الامر ، وانما هو يُصدر عن دافع غريزي يتصل بنفسه ، ويكاد لا يعدو غريزة الطفل في صدقه واكاذيبه . عبادته خليط اديان

غير منظمة ، علومه اولية ، فلسفته بديهية . ادبه شفهي شخصي ، بسيط الاغراض ، مألوف المعاني . لغته بين الشعر والنثر شأن غيره من الشعوب الفطرية ، فيها شيء من انانيته ، تبدأ ابداً بنفسك اذا تحدثت عنها وعن غيرك فتقول : انا وانت ، وانا وهو . ولا تقول العكس : انت وانا ، وهو وانا . صورة طافية دانية القطوف ، يتصل معها بالطبيعة التي يعيش فيها ولا يأنف ان يتشبه باشتات نباتها وحيوانها ، حتى احقر حشراتها ، بيد انه اذا وصفها يعجز عن احيائها ، وربط شواعره بشواعرها ، لما هو عليه من صلابة النفس وجفاء الشعور وضعف الخيال . فان الفطرة التي بُرِئ عليها في صحرائه القاسية غلّفت روحانيته بالمادة الكثيفة فمنعتها او كادت تمنعها من الظهور ، فجاء الشعر الجاهلي مادياً في كثرته ، ولكنه مثال صادق عن طبيعة البادية وطبيعة شعبها ، يستوي في ذلك الاغنياء والفقراء ، السادات والصعاليك ، لا يختلف واحدهم عن الآخر في فطرته وفرديته وتمرد نفسه الا بقدر يسير .

والصعاليك اولى من غيرهم بان تتجلى هذه الصفات فيهم لما يألفون من الحياة المتوحشة في سلوك البراري الخالية ، ومصاحبة السباع والاوابد . فهم اشد اتصالا بالفطرة ، واستغراقاً في المادة ، وتعلقاً بأنا الشخصية ، وتحرراً من كل نظام . واذا استثنينا بعض الشيء عروة بن الورد وما في طبيعته من الميل الى الالفة والتعاون ونصرة الضعيف نقع بعده على طائفة من لصوص العرب وشذاذها تمثل خصائص الشعب الجاهلي ابلغ تمثيل . وحسبك ثلاثة من شعرائها الفرسان : تأبط شراً ، وسليك بن السلكة ، والشنفرى صاحبنا اليوم .

وحديثنا عن الشنفرى كحديثنا عن سائر شعراء الجاهلية لا يخلو من اختلاف الروايات واختلاط التاريخ بالاسطورة . فقد اضطربت الاقوال في حقيقة اسمه ، فمنهم من سماه ثابتاً وجعل الشنفرى لقباً له لعظم شفتيه ،

ومنهم من اكتفى بالشنفرى دون غيره من الاسماء . واضطربت الاقوال في ولادته فروي انه نشأ في قومه الازد ثم اغاظوه فهجرهم . وروى آخرون انه ولد في بني سلامان ، وقيل بل نشأ عندهم ، وذلك ان حيّاً من بني فَهْم أسر الشنفرى وهو غلام صغير فلم يزل فيهم حتى اسرت بنو سلامان رجلًا من فهم ، ففداه الفهميون بالشنفرى ، فترعرع في بني سلامان وكبر وهو يظن انه منهم . فاتفق مرة ان قال لابنة الرجل الذي ربيَ عنده : « اغسلي رأسي يا أُخيّة ! » فلطمته وانكرت ان يكون اخاها . فذهب الى ابيها ، وكان يظن انه ابوه ، فقال له : « اخبرني من انا . » فأخبره انه ازدي من الاوس ، وانه غريب فيهم لا اصيل . فغضب الشنفرى لما ناله من الاهانة ، وخرج عنهم مضمراً لهم الشر ، فالتحق باعدائهم بني فهم ، واخذ يغير عليهم يسلب اموالهم ويفتك بهم الى ان تمكنوا من امساكه فقتلوهُ واستراحوا منه .

وابى الرواة الا ان يباوروا وفاته باسطورة جميلة ، فزعموا انه اقسم ، بعد ان ترك بني سلامان غاضباً ، ان يقتل مائة رجل منهم ، فما زال يترصدهم ويغتالهم حتى قتل تسعة وتسعين ، ولم يبق عليه سوى رجل واحد لتتم المائة ، وكان في جملة قتلاه حرام بن جابر السلاماني اخو أسيد بن جابر العدّاء المشهور . فقعد له أسيد ذات ليلة في مضيق ومعه ابن اخيه ورجل ثالث يقال له حازم ، فمر الشنفرى بهم يريد الماء فأبصر سوادهم فرماه بسهم ، وكان لا يرى سواداً الا رماه ، فشك ذراع ابن اخي أسيد الى عضده فلم يتكلم . وكان حازم منبطحاً يرصده ، فقطع الشنفرى بضربة اصبعين من اصابعه . ثم عدا عليه أسيد وابن اخيه وهو على الماء فأخذا سلاحه واسراه ، وجاء به الثلاثة الى بني سلامان ، فقضت عليه القبيلة بالموت انتقاماً منه ، فقطعوا رأسه ، وتركوه والجثة عرضة للضواري لتفترسه . فحدث ان رجلًا منهم عاج على جمجمته يوماً

وقد تعرّت من اللحم ، فرفسها برجله تشفياً وازدراء ، فغرزت شظية من عظمها في قدمه فشقتها ، ونغر الجرح فلقي الرجل حتفه ، فتمت به المائة ، وبرّ الشنفرى بقسمه ، فقرت عينه بعد موته .

والشنفرى احد مشاهير العدّائين في الجاهلية وبه يضرب المثل فيقال : « اعدى من الشنفرى . » وله في العدو اخبار لذيذة مع زميليه تأبط شراً وعمرو بن برّاق ، قيل انهم ذرعوا خطاه مرة ، فوجدوا اول نزوة نزاها احدى وعشرين خطوة ، والثانية سبع عشرة خطوة ، والثالثة خمس عشرة خطوة . وكان يفاخر بخفة رجليه ، ويزعم انه يسبق القطا الطائرة الى الماء ، فيشرب قبلها ويترك لها فضلته :

وتشرب أسآري القطا الكُدْر بعدما سرت قَرَباً ، احناؤها تتصلصل

وحياة هذا الشاعر حافلة بالجرائم كحياة اكثر الصعاليك العرب ، فقد كان يقطع الطرق على المسافرين ، فاذا انفرد بهم انقض عليهم واستباح اموالهم . او يغير ليلاً على الاحياء الآمنة فيروع النساء والاطفال ، ويبطش بالرجال ، ثم يعود كاسباً غانماً . وفي لاميته المشهورة صورة موجزة لغارة ليلية رافقه فيها الجوع والبرد والخوف ، فأيّم النساء ، وايتم الاولاد ، وعاد وقد أتم مهمته قبل ان يطلع الصباح :

وليلة نحسٍ يصطلي القوسَ ربّها وأقطُعه اللاتي بها يتنبّلُ
دعست على غطشٍ وبغش ، وصحبتي سُعارٌ وإرزيز ووَجر وأفكلُ
فأيّمتُ نسواناً ، وأيتمت إلدةً وعدتُ كما ابدأتُ ، والليل ألْيَل

ومن عادة القبائل في البادية انه اذا كثرت معرّات رجل منهم ، وضاقوا به ذرعاً فاصبحوا لا يطيقون ان يتحملوا عنه الديات والثارات ، خلعوه وطردوه ، لكي لا يطالبهم الناس بجناياته ، واذا قُتل فلا يجب عليهم ان

يأخذوا بثأره . ويخبرنا الشنفرى في لاميته ان القبيلة التي كان فيها ، خذلته وانكرته وأبت ان تنصره في ظلامته كما تقضي سنّة الجاهلية : انصر اخاك ظالماً او مظلوماً ، سنّة تنقضها القبيلة عند كثرة الجرائر . فترك صاحبنا قومه ساخطاً شاكياً ، لينشد الحرية في الطبيعة الوحشية ، بعيداً عنهم ، أليفاً للذئاب والنمور والضباع ، واجداً فيهن اهلاً بدلا من اهله ، يكتمون سره ولا يخذلونه في جناياته :

ولي دونكم أهلون سِيدٌ عَملّسٌ وأرقطُ زهلولٌ ، وعرفاءُ جيألُ

همُ الاهل لا مستودع السرّ ذائعٌ لديهم ، ولا الجاني بما جرّ يُخذلُ

ولهؤلاء الاهل الاوفياء اوصى بجثته بعد موته فحرّم على قاتليه ان يدفنوه وطلب ان يُترك جثمانه جزر السباع مخافة ان يعرف اعداؤه مكان قبره ، فينبشوا عنه ، ويمثلوا به ويحقروه . آثر ان تفترسه صديقته الضبع على ان يظفر به انسان فيهينه ، وهو لا يحمل الضيم حتى في لحده . فنادى أم عامر (كنية الضبع) يبشرها بوليمة يقيمها على شرفها من جسمه :

فلا تقبروني ان قبري محرّمٌ عليكم ، ولكن أبشري امّ عامر

وقد احترم بنو سلامان وصية الميت ، فطرحوه معروضاً للضواري ولم يرمسوه .

ولامية الشنفرى او لامية العرب كما يسميها الادباء ، من القصائد المختارة في تاريخ الادب ، وان كان الرواة يختلفون فيها كما يختلفون في صاحبها ، فمنهم من يثبتها له ، ومنهم من ينفيها عنه ويضيفها الى خلف الاحمر او سواه من اصحاب الرواية . ولسنا الآن في صدد هذا البحث فنحاول اثباتها او نفيها ولا سيما ان اكثر الشعر الجاهلي يحتمل السلب والايجاب ويتوسط الشك واليقين ، وانما يهمنا منها انها اصدق تمثيل شعر الفطرة البدوية بخشونة

الفاظها وبساطة معانيها ، فهي وحشية التعابير ، على اجمالها ، ساذجة التفكير في الاعراب عن حالة صاحبها ، بيّنة الشخصية في تصوير انانية الشاعر وتمرده ، وانطلاق نفسه . تقرأ هذا الشعر فيضيق صدرك بما فيه من لفظ غريب متصلب تباعد العهد بينك وبينه . واذا تدبرت معانيه بعد لأي ، لمست تلك الروح البدوية في شاعر لم يزل على فطرته ، يتظلم من اهله لانهم لم يعينوه على جرائمه . ويلجأ الى امه الطبيعة مستأنساً بها ، رابطاً اواصر القربى بسباعها ووحوشها . يفاخر ، اذا فاخر ، بالتشرد والفتك والسلب والايتام والتأييم ، ويرى من مناقبه انه يسبق القطا الى الماء ، وانه لا يمد يده الى الطعام الا بعد ان يمد غيره اليه يده لئلا يُرمى بالجشع وهو يقنع بالقليل من القوت :

وان مُدت الايدي الى الزاد لم اكن بأعجلهم إذ اجشع الناس اعجلُ

يباهي بفقره وجوعه وقناعته كما يباهي بلصوصيته وفتكه وتشرده ، ويخبرنا مفتخراً بان حياة القفار في الحرّ والبرد حالت دون العناية بنظافة جسمه حتى تلبد شعره بعد مضي سنة لم يُغسل في خلالها ولم يُمشط ، فعلقت به الاوساخ مثلما تعلق الابعار في اذناب الابل . فلا القذارة يجد فيها عيباً ، ولا يجد عيباً في التشبه باحقر شيء في الطبيعة :

بعيدٌ بمسّ الدُهن والفلي عهده له عبسٌ عافٍ من الغسل مُحولُ

فكيفما سرت مع لامية الشنفرى تلقاها ظاهرة الفطرة ، متصلة بالطبيعة والمادة في حياة صاحبها ومفاخره . بارزة الانانية في تحدثه عن نفسه ، وايثاره اياها بالشرف والفضائل ، وميله الى الانفراد بها عن المجتمع لئلا تُنتقص حريتها وتضام . يتمرد على قبيلته ، ويرفض تقاليدها وعاداتها . يتظلم منها ويتذمر عليها لانها خذلته في جناياته . فهي مذنبة اليه لانها لم تنصره ، وهو غير مذنب اليها وان حملها اكبر الجرائم . يتألم ويشكو لانها طردته وابعدته ، فأحس

ثقل الجرائم عندما حملها وحده ، ولكنه شجاع عزيز النفس ، لا يذل ولا يضعف وان تخلت عنه قبيلته . فاذا هو يمزج ألمه وشكواه بالتمرد والفخر والمباهاة ، فتتفاعل في قصيدته عوامل نفسية مختلفة تمسحها بجمال خاص يتميز به شعر الشكوى في البادية كما تميزت معلقة طرفة بن العبد في فخره وألمه وتمرده ودفاعه عن نفسه ، والقاء الذنب على عشيرته .

واذا كان شاعرنا المنبوذ قد تألم وحاول ان يستر ألمه بالمكابرة والاعتداد فقد بقي له عزاء وحيد في بعده وانفراده عن قومه ، عزاء يجده في زوجته الصالحة الامينة ، فيملأ نفسه غبطة نتمثلها في قصيدة له رائعة يصف بها حليلته فيخرج لنا أتم صورة للمرأة المحمودة في الجاهلية خلقاً واخلاقاً ، مع ما فيها من سرعة وايجاز . فزوجه لا يسقط قناعها عن وجهها ، ولا تلتفت اذا مشت . طيبة الرائحة في الصباح ، حين تتغير روائح النائمين . بيتها لا يناله عار بسببها ، تسير وانظارها عالقة بالارض لحيائها كأنها تبحث عن شيء اضاعته ، وان حدثت اختصرت الحديث فما تدفعها الوقاحة الى الهذر والثرثرة . عفيفة طيبة الاحدوثة لا يفتضح بها زوجها . كونها الله دقيقة الخصر ، عظيمة الردف ، طويلة القامة ، كاملة المحاسن . فلو جنّ انسان من الحسن لكانت احق من غيرها بالجنون .

ومن الخير ان تعود الى قراءة ما اخترناه من هذه القصيدة في صفحة الشعر ، والى مختارات اللامية وغيرها ، فانك بالغ بها متعة وان غاظتك أوابد الفاظها . فشعر هذا الشقي الملعون مهضوم على ما فيه من توحش وخشونة .

الشنفرى

نشيد الحرية

وفي ٱلارض منأى للكريم عن ٱلاذى   وفيها لمن خاف ٱلقلى متعزّل [1]

لعمرُكَ ما بٱلارض ضيقٌ على ٱمرئٍ   سَرى راغباً او راهباً وهو يعقل

ولي دونكم اهلون سِيدٌ عَملّسٌ   وارقطُ زُهلولٌ وعرفاءُ جيأل [2]

همُ ٱلأهلُ لا مستودَعُ ٱلسِّر ذائعٌ   لديهم ولا ٱلجاني بما جرَّ يُخذَلُ [3]

وصيته [5]

فلا تقبروني إن قبري محرّمٌ   عليكم ولكن أبشري أمَّ عامرِ [4]

اذا ٱحتملوا رأسي وفي الرأس اكثري   وغودر عند الملتقى ثَمَّ سائري

هنالك لا ارجو حياة تسرّني   سجيسَ الليالي مُبسَلاً بٱلجرائر [5]

المرأة المحمودة

لقد اعجبتني لا سَقوطاً قناعُها   اذا ما مشت ولا بذات تلفّتِ

تبيتُ بُعيد ٱلنوم تُهدي غَبوقَها   لجارتها اذا الهديّةُ قلّتِ

١ القلى : البغض . المتعزل : المكان الذي يعتزل فيه الانسان .

٢ السيد : الذئب . العملس : القوي على السير السريع . الأرقط : النمر يخالط سواده نقط بيض . الزهلول : الاملس . العرفاء : الضبع الطويلة العرف . جيأل : من اسماء الضبع .

٣ جر : جنى جناية طولب بها . يخذل : لا يعان ولا ينصر . ٤ أم عامر : الضبع .

٥ سجيس الليالي : طولها . مبسلا : مسلماً . الجرائر : الجنايات .

تُحَلُّ بِمَنْجَاةٍ من اللوم بيْتَهَا   اذا ما بيوتٌ بالمَذَمَّة حَلَّتِ

كأنَّ لها في الارض نِسْياً تَقُصُّهُ   على أَمِّهَا، وان تُكَلِّمْكَ تَبْلَتِ [6]

أُمَيْمَةُ لا يُخْزِي نَثَاهَا حليلَهَا   اذا ذُكِرَ النِّسوان عفَّت وجَلَّتِ [7]

فدَقَّت وجَلَّت واسْبَكَرَّت وأُكْمِلَت   فلو جُنَّ انسانٌ من الحُسْن جُنَّتِ [8]

٦ النسي : الشيء المفقود . تقصه : تتبعه . أمها : قصدها . تبلت : تقطع وتوجز ، يصفها بالحياء .

٧ نثاها : ذكرها . ٨ دقت : اي خاصرتها . جلت : عظمت ارذافها . اسبكرت : امتد قوامها وطال .

تأبط شرا

حديث عن شاعر فارس حدثنا به الرواة ، فحملناه الى قرائنا طريفاً على قدم العهد ، ام حكاية من اسمار الليالي خرّفونا بها ، فجئنا نخرّف بها غيرنا من الناس ؟ وما يضيرنا ان نسمع اخبار تأبط شراً ، واشعاره ، او نُسمعها من شاء وفيها متعة للنفس وسرح للخيال . فقد تكون حديثاً صحيحاً في بعضها ، واسطورة مبلورة في مجموعها لفقتها مخيلات الرواة من جهة ، واوهام صاحبها واكاذيبه من جهة اخرى ، فخرجت حافلة بكل نادر وعجيب . فاصحابنا الرواة كانوا لا يتحرجون من الوضع والتزيد . رحم الله ابا عمرو والاصمعي وابن الكلبي ، وعفا عن صاحب الاغاني ، فقد نقل كثيراً من كفرهم – ان عُدّ ذلك كفراً – وناقل الكفر ليس بكافر . وشاعرنا تأبط شراً كان شيطاناً من شياطين العرب ، وصعلوكاً من اكابر صعاليكها ولصوصها . يسلك القفار الموحشة لينقض على غنيمة يفترسها . ويبيت ليله متوحداً أليف الذئاب المعتسة ، والافاعي المنتشرة . تساوره الهواجس ، وتنتصب له الرؤى فتطرقه الجن بغيلانها ، فتعاركه ويعاركها حتى يفرج عنه الصباح ، فيعود من غزوته كاسباً او خائباً . وفي نفسه مما تراءى له حالات تعيش معها ، وتأتلف بشعوره ومخيلته فتندفع من فمه شعراً بديع التصور على ما في البدوي من قصر النفس ، وضيق مسارح الخيال . ويعجبه ان يتحدث بهذا الشعر وامثاله الى قومه وصحبه ، راوياً لهم اوهامه كأنها احداث واقعة ، يفاخر بها خصومه

واقرانه . بل ربما اضاف اليها اخباراً يختلقها ولم تكن من رؤى هواجسه . فقد تعود ان يأتي بالغرائب ، وتعودوا ان يسمعوا منه وعنه كل غريب . وهم لا يجدون في هذه الاخبار ما يريب نفوسهم ، ويؤذي عقائدهم . فقد كانوا يؤمنون بالجن والعفاريت ، ومخالطتها للانس في السكنى والاستهواء ، والمؤاكلة والزواج . الا انهم لم يحسنوا استثمارها لادبهم كما احسن اليونان من قبلهم استثمار آلهتهم ، ذلك لاستغراقهم في المادية ، وعجزهم عن التوسع في الاشياء التي لا تتناولها الحواس . فبقيت اساطير الجن محدودة الآفاق في الادب الجاهلي ، ولكنها لا تخلو من روعة وجمال . وتأبط شراً من افراد الشعراء الذين شغلت الجن حياتهم ، واذكت جذوة قرائحهم ، فكانوا اسطورة على باب التاريخ يختلط فيها الصحيح بالمصنوع . فقد رافقت الغرائب حياته منذ حداثته وهو لم يزل في كنف امه ، وكان قد مات ابوه ، فتزوج امه ابو كبير الهذلي الشاعر . فلما رآه يكثر الدخول عليها تنكر له وجافاه . وعرف ابو كبير الشر في وجهه فاستراب به ، وقال لوالدته : « قد والله رابني امر هذا الغلام ولا آمنه ، فلا اقربك منذ اليوم . » ويظهر ان الوالدة لم تكن حريصة على وليدها المنكود بقدر حرصها على بعلها الجديد . فأشارت عليه بان يحتال له فيقتله ، فيخلصها ويتخلص منه . فقال له ابو كبير ذات يوم : « هل لك ان تغزو معي ؟ » فقال : « ذلك من امري . » فخرجا ليلاً حتى اذا ادركهما مساء اليوم الثاني ابصرا ناراً عن بعد فوجهه ابو كبير اليها ، فانطلق سريع الخطى حتى بلغها ، فاذا عليها رجلان من ألص العرب ، فوثبا اليه يريدان قتله ، فرمى اولهما بسهم ثم رمى الآخر فقتلهما واخذ ما على النار من الخبز ورجع الى ابي كبير يخبره بما حدث . فارتاع ابو كبير منه ، فلما رجعا الى الحي طلق ابو كبير امرأته ثلاثاً . وقال : « ان ام هذا الغلام لا اقربها

بداً ! » فحرمت الوالدة بعلها الذي ارتضته نفسها ، حرمها اياه ولد مشؤوم طالما رأت الشر كامناً بين يديه حتى لقبته « تأبط شراً » . وكان اسمه ثابت ابن جابر الفهمي ، وكنيته ابو زهير ، فغلب اللقب على الاسم والكنية . وفي تلقيبه بتأبط شراً اقوال كثيرة اشهرها انه تأبط سيفاً وخرج فقيل لامه : اين هو ؟ فقالت : لا ادري ، تأبط شراً وخرج . وروي ان امه قالت له في زمن الكمأة : « ألا ترى غلمان الحي يجتنون لاهلهم الكمأة فيأتون بها ؟ » فقال لها : « اعطيني جرابك حتى اجتني لك فيه . » فاعطته اياه ، فملأه لها افاعي من اكبر ما قدر عليه ، واتى به متأبطاً له ، فالقاه بين يديها ثم فتحه ، فانسابت الحيات منه ، فوثبت الام مذعورة وخرجت من البيت . فسألها نساء الحي : « ماذا كان ثابت متأبطاً ؟ » قالت : « تأبط شراً . »

ومهما كان من اختلاف الاقوال في سبب تلقيبه ، فان هذا اللقب على غرابته يأتلف كل الائتلاف مع صاحبه ، ويدخل واياه في عالم الاساطير . فقد بات ذكر تأبط شراً مرادفاً للذعر والهول ، فحسب هذا الصعلوك ان يتسمى لعدوه حتى تصطك امامه الركب وتنحل العزائم . فعرف كيف يستفيد به في غزواته كما عرف ان يستفيد به في البيع والمتاجرة . قيل لقيه ذات يوم رجل من بني ثقيف يقال له ابو وهب ، وعليه حلة جديدة ، وكان جباناً اهوج . فقال لتأبط شراً : « بمَ تغلب الرجال يا ثابت ؟ وانت ، كما ارى ، دميم ضئيل . » قال : « باسمي ، انما اقول ساعة ما ألقى الرجل : انا تأبط شراً ، فينخلع قلبه حتى انال منه ما اردت . » فقال له الثقفي : « هل لك ان تبيعني اسمك ؟ » قال : « نعم ، فبمَ تبتاعه ؟ » قال : « بهذه الحلة وبكنيتي . » فقال تأبط شراً : « لك اسمي ولي كنيتك . » واخذ

حلته واعطاه طمريه ، ثم انصرف . وفي ذلك يقول مخاطبا زوجة الثقفي :

ألا هل أتى الحسناء ان حليلها تأبط شراً ، واكتنيتُ أبا وَهْب
فهبهُ تسمّى اسمي ، وسُميتُ باسمه فاين له صبري على مُعظم الخَطب
واين له بأسٌ كبأسي وَسورتي ، واين له في كل فادحةٍ قلبي

وطبيعي ان لا يستفيد الثقفي الاحمق من شرائه لقب الصعلوك ، وليست له شجاعة قلبه واقدامه . فقد كان تأبط شراً على ضآلة جسمه يحمل بين جنبيه قلباً لا يهاب الموت ، وهذا الجسم تحمله ساقان تسبقان بعدوهما الظباء . كان اذا جاع يتبع الغزلان فينتقي اسمنها ثم يجري خلفه فلا يفوته حتى يأخذه فيذبحه ثم يشويه فيأكله . فاذا كان اسمه يلقي الذعر في النفوس ، فانما الفضل في ذلك لجرأته وشدة عدوه ، وما شاع عنه من غرائب الاخبار ولا سيما فتكه بالغيلان . وكان الى ذلك واسع الحيلة يحسن التخلص اذا احدقت به المخاطر . ولطالما انقذته جرأته وحيلته وشدة عدوه . قيل انه خرج مرة يشتار عسلا في ارض بني لحيان وهم بطن من هُذيل ، فلحقوه واخذوا عليه طريق جبل وجدوه فيه يجني العسل ، ولم يكن له طريق غيره . فاقبلوا عليه وقالوا له : استأسر او نقتلك . فكره ان يستأسر كما كره ان يقتل . فصب ما معه من العسل على صخرة تنحدر الى السفح ، ثم عمد الى زق العسل فشده الى صدره ، ثم لصق بالصخرة فلم يبرح يتزلق عليها حتى انتهى الى الارض من غير طريقهم ، ونجا منهم .

وروى صاحب الاغاني وابن الانباري ان تأبط شراً اغار ومعه عمرو بن براق الفهمي على بني بجيلة . وابن براق هذا من اخوان تأبط شراً في العدو والغزوات . فساقا امامها قطعة من الابل ومضيا هاربين في جبال السراة . فخرجت بجيلة في اثرهما تعارضها في السهل حتى بلغت ماء في الطائف لا بد

ان يمرا عليه عندما ينحدران من الجبال . فلما جاء الليل هبطا الى السهل ، يقصدان الماء ، وقد اجهدهما العطش ، فما كادا يقتربان من العين حتى وقف تأبط شراً متنصتاً . ثم قال لابن براق : « دعنا من الشرب ، فانها ليلة طرَد . » قال : « وما يدريك ؟ » قال : « اني لاسمع وجيب قلوب الرجال تحت قدمي . » وكان من اسمع العرب وارهفهم اذناً . فقال له ابن برّاق : « ذلك وجيب قلبك . » فقال تأبط شراً : « والله ما وجب قط (اي خفق) ولا كان وجاباً . » وضرب بيده عليه . ثم اصاخ نحو الارض يستمع ، وقال : « والله اني لاسمع وجيب قلوب الرجال . » فقال ابن براق : « فأنا انزل قبلك . » ونزل الى الماء فشرب ، ولم تعرض له بجيلة لطمعها في تأبط شراً ، فلبثت متوارية عنه في الظلمة . ثم رجع فقال : « ليس بالماء احد . » فقال تأبط شراً : « هم لا يريدونك ولكن يريدونني ، فاذا شدوا علي واسروني ، دعوتك ان تستأسر لهم ، فلا تبعد عنهم ولا تمكنهم من نفسك ، واظهر لهم الاعياء بعد ان تجري مسرعاً . » فوعده ابن براق خيراً ، ومشى تأبط شراً الى الماء حتى توسطه وشرع يشرب . فوثب عليه القوم من مكامنهم ، فاخذوه واخرجوه من العين مكتوفاً . وابن براق قريب منهم لا يطمعون فيه لما يعلمون من عَدْوه . فقال لهم تأبط شراً : « هذا ابن براق من اصلف الناس ، واشدهم عجباً بعدوه ، وساقول له : استأسر معي ، فسيدعوه عجبه بعدوه ان يعدو بين ايديكم ليريكم خفته فيدركه الاعياء ، ويهون عليكم ان تمسكوه . فاني احب ان يصير في ايديكم كما صرت ، اذ انه خالفني . » ثم صاح به : « انت اخي في الشدة والرخاء ، وقد وعدني القوم ان يمنّوا عليك وعليّ ، فاستأسر وواسني بنفسك في الشدة كما كنت اخي في الرخاء . » فضحك ابن براق وقال : « مهلاً يا ثابت ، أيستأسر من

عنده هـذا العدو ؟ » ثم انطلق يعدو في سفح الجبل ذاهباً آيباً ، كأنه الريح في انطلاقه او كالفرس الكريم ، ثم بدا عليه التعب ، فأخذ يكبو ويتعثر فطمعت فيه بجيلة ، وشاقها ان تقبض عليه . وقال لهم ثابت : « قد امكنكم فخذوه ! » فعدوا اليه باجمعهم ، فلما ان نفّسوا عن تأبط شراً عدا في كتافه مبتعداً . وعارضه ابن براق ، فقطع وثاقه وافلتا معاً .

على ان هذا العدّاء الجريء لم يكن وافر الحظ عند النساء ، مع ما فيه من كيد وحيلة . فانه خطب فتـاة من بني عبس ، فوعدته ورضيت به . فلما عاد اليها وجدها قد رغبت عنه ، فسألها عن سبب ذلك ، فاعتذرت له ، بعد ان اعترفت بحسبه الكريم ، وزعمت ان قومها قالوا لها : ما تصنعـين برجل متعرض للموت بين يوم وآخر وتبقـين بلا زوج . فانصرف عنهـا ، وذكر خبره معها في قصيدة اثبتنا منها شيئاً بصفحة الشعر ، وفيها يصف نفسه في ادلاجه وسهره ، ولقائه الكماة ، وقلة ادخاره للزاد ، لا يأكل منه الا بقدر ما يمسك الرمق حتى هزل فشخصت رؤوس اضلاعه والتصق بطنه بظهره . ولكنه غفل او تغافل ان يخبرنا ان ضآلته هذه ربما كان لها اثر سيء في نفس الفتاة العبسية ، فلا بد ان تكون حوادثه العجيبة طرقت سمعها قبل ان تراه فجملتها تصور فيه كل جميل يروقها من شجاعة وخفة وبهاء . فلما وقع نظرها عليه تبخرت هذه الصور الجميلة وتشوهت ، ولم تغنها الشجاعة والخفة فتحجبا عن عينيها ما رأتا فيه من حقارة وقصر وقبح منظر . فوعدته مماطلة ثم ردته رداً جميلاً دون ان تؤذيه .

وكذلك الغول ابت مواصلته فدفعته عنها لا عفة وصيانة ، وان يكن في الغيلان متحصنات ، ولكنها لم تجد في نفسها شهوة اليه ، فصدت عنـه غير راغبة فيه كما صدت عنه فتاة بني عبس . الا انها لم تحسن السياسة في رده كما

احسنت العبسية فعاقبها بالقتل . والغول ، بحسب تعريف الجاحظ ، اسم لكل شيء من الجن يعرض للمسافرين ويتلون في ضروب الصور والثياب ، ذكراً كان او انثى ، الا ان الاكثر على انه انثى . واذا مالت الغول الى انسي واصلته وساكنته وتُرزق منه اولاداً . فقد احبت سعلاة ، وهي الغول من نساء الجن ، عمرو بن يربوع ، وتزوجته ، فأولدها بنين . ومكثت عنده دهراً مستأنسة به وباولادها ، ولكنها كانت تخشى ان يغلبها الحنين الى ارضها اذا عاودتها الذكرى ، فاوصت بعلها ان يغطي وجهها كلما اومض البرق من جهة بلادها . فصار عمرو بن يربوع لا همّ له الا ان يراقب البرق حتى اذا لاح من الجهة التي دلته عليها ستر وجهها بردائه فلا تبصره . وحدث انه غفل عنها ليلة وقد لمع البرق فلم يستر وجهها ، فصفقت بجناحين وطارت الى ارضها وهي تقول له :

أمسكْ بنيك عمرو اني آبق   برق على ارض السعالي آلِقْ

ومنهم من يقول انها ركبت بعيراً وطارت عليه ، والله اعلم . واما السعلاة التي لقيها تأبط شراً فقد عبثت به عبثاً كثيراً ، ولعلها ارادت ان تفزعه فتذهب بعقله . فانها تصورت له بثوب كبش وكان قد خرج غازياً ، فاحتمله تحت ابطه ، فجعل يبول عليه طول الطريق ، فلما قرب من الحي ثقل عليه ، فالقاه الى الارض ، فاذا هو سعلاة من بنات الجان ، فارادها على المنكر ، فامتنعت وتغوّلت فضربها بسيفه فقتلها ، وفي ذلك يقول :

فأصبحت والغول لي جارة   فيا جارتا انت ما اغولا
وطالبتُها بضْعها فالتوت ،   فكان من الرأي ان تُقتَلا
فخلّلتها مرهفاً صارماً ،   أبان المرافقَ والمفصلا
فمن يكُ يسأل عن جارتي   فانّ لها باللوى منزلا

وروى صاحب الاغاني ان تأبط شراً لقي الغول في ليلة ظلماء في موضع يقال له رحى بطان ، فاخذت عليه الطريق ، فلم يزل بها حتى قتلها ، وبات عليها . فلما اصبح حملها تحت ابطه وجاء بها الى اصحابه فقالوا : لقد تأبط شراً . ويذكر الشاعر هذه الحادثة بقصيدة يخبرنا فيها انه اراد ان يتخلص منها دون قتال ، فسألها ان تخلي له الطريق ، وقال لها : كلانا اخو سفر اضرّ به الهزال والتعب . فابت الا ان تحمل عليه متغولة ، فقابلها بسيفه اليماني ، فضربها غير خائف ولا متردد ، فخرّت الى الارض صريعة . ثم قالت له : ثنّ ، فرفض ان يعيد الضربة لأن الغول ، كما يخبرنا الجاحظ ، تستزيد بعد الضربة الاولى لانها تموت من ضربة ، وتعيش من ألف ضربة . وبات صاحبنا متكئاً على قتيله في تلك الليلة المظلمة ، حتى اصبح فوجد امامه جثة ناقصة الخلق كريهة الشكل :

اذا عينانِ في رأسٍ قبيحٍ كرأس الهر ، مشقوق اللسانِ
وساقا مُخدَجٍ ولسانُ كلبٍ وثوب من عباء او شنانِ

والقصيدة منشورة في ذيل هذا البحث ، تحمل صورة واضحة عن غرائب هذا الشيطان المطروق واوهامه .

تأبط شرا

الزوج المرفوض

وقالوا لها : لا تَنْكِحِيهِ فانهُ ... لأَول نصْلٍ أن يلَاقيَ مَجْمَعا [1]

فلَم ترَ من رأْيٍ فتِيلًا ، وحاذرت ... تأَيُّمَهـا من لابس الليْل أروعا [2]

قليل غِرارِ ٱلنَّوم ، اكبرُ همِّهِ ... دم ٱلثَّأْرِ ، أو يلْقَى كَمِيًّا مسَفَّعَا [3]

قلِيل ادخار الزاد إلا تعِلَّةً ... فقَد نشَز ٱلشُرسوفُ وٱلتَصَق ٱلمِعَا [4]

فتكه بالغول

أَلا من مبْلِغ فتْيانَ فهْم ... بما لاقيْت عنْد رَحى بطَان [5]

بأَني قد لقِيت ٱلغُول تهْوي ... بمَرْتٍ كَٱلصَّحِيفَة صحْصَحَان [6]

فقُلْتُ لها : كِلَانا نضو أَينٍ ... أَخو سفَرٍ فخَلِّي لي مكَاني [7]

فشَدَّت شدَّةً نحوي ، فأهوى ... لها كَفِّي بمَصْقُولٍ يمَاني

فأَضربُهَا بلَا دهش ، فخَرَّت ... صريعاً لليَدَين وللجِران [8]

١ معنى البيت انهم قالوا لها لا تتزوجيه فانه اذا لاقى مجمعاً من الناس فهو لاول نصل يقتل ، اي انه كثير الغارات مغامر معرض كل ساعة للقتل .

٢ التأيم : البقاء بلا زوج بعد موته . الاروع : الحديد الفؤاد . يقول : لم تر قدر فتيل من الرأي في زواجها به . ٣ مسفع : متغير الوجه .

٤ نشز : نتأ . الشرسوف : مقاطع الاضلاع التي تشرف على البطن . المعى : البطن .

٥ فهم : قبيلته من قيس عيلان . رحى بطان : اسم موضع .

٦ المرت : المفازة بلا نبات . الصحصحان : الارض المستوية .

٧ النضو : المهزول . الاين : التعب والاعياء .

٨ الجران : مقدم العنق .

فقالت : ثِنِّ ! قلتُ لها : رويداً مكانكِ انني ثبتُ الجنان
فلم أنفكَّ متكئاً عليها لأنظر مُصبحاً ماذا دهاني
اذا عينان في رأس قبيح كرأس الهرِّ مشقوق اللسانِ
وساقا مخدجٍ ، ولسان كلبٍ وثوب من عباء او شِنان [9]

٩ مخدج : ناقص غير تام الخلق . الشنان : جمع شن ، القربة البالية .

السليك بن السلكة

ينتسب الى السُلكة أمه ، والسلكة انثى الحجل ، وهو السليك اي الحجل الصغير . وأمه كأم عنترة أمة سوداء . وابوه عمرو عربي صريح من بني سعد ثم من تميم . الا انه جاء لامه كما جاء عنترة ، اسود اللون ، فكان احد الاغربة الثلاثة المشهورين ، يُعدّ معه غراب بني عبس ، وخُفَاف بن نُدبة . وقد استطاع السليك ان يحرر نفسه من رق العبودية بشجاعته مثلما استطاع الفارس العبسي ، فكان يذكر حسن تدبير الخالق الذي يضرب بيد ويتلقى بالاخرى فيقول : « اللهم انك تهيء ما شئت لما شئت اذا شئت . اللهم اني لو كنت ضعيفاً كنت عبداً . ولو كنت امرأة كنت أمة . » وعرف السليك فضل ربه وفضل شجاعته عندما رأى اولاد الاماء مستعبدين لا يعترف بهم آباؤهم البيض اذا وجدوهم ضعافاً . وعرف السليك فضل ربه وفضل ذكورته عندما رأى الامة السوداء يتزوجها الحر مستمتعاً بها ثم ينبذها واولادها لخدمة الحرة البيضاء ، او لرعاية الجمال ، ويدعوها أم ولد لا أم البنين . فتبقى طوال حياتها مكسورة الجناح ، مهضومة حقوق الباعلة والامومة . ويبقى اولادها طوال حياتهم ضياع النسب ، ينشدون البنوة والقربى ، فيدفعهم ابوهم ، وتدفعهم العشيرة . ذاك شأنهم ما داموا لا يحسنون الا الحلاب والصرّ . فاذا كانوا ذكوراً وظهرت عليهم بشائر النجابة ، تزول عنهم صبغة العبودية شيئاً فشيئاً بالاضافة الى ما يكسبون من المحامد حتى يتأتى لهم ان يمحوا سواد لونهم

بيض الفعال ، فيدّعيهم ابوهم ، وتقربهم العشيرة ، وترفع امهم رأسها بعد انخفاض ، ولكنها تبقى أم ولد لا أم البنين ، ويبقى ولدها عرضة للتعيير بابن الأمة وابن السوداء .

وليس ادل على النجابة من فتوة تأتلف بها الشجاعة والشعر ، فقد كان المجتمع الجاهلي في قحطه وفقره لا غنية له عن الكفاح من اجل الحياة ، يوالي الغزوات والحروب في طلب الرزق والدفاع عن النفس ، فلا غرو ان يكبر الشجاعة ويقدسها ، لان الشجاع ينصر القبيلة غازية ، ويحميها مغزوة ، ويمنع الاموال والنساء والاولاد . وكان المجتمع الجاهلي في حياته الغزوية وتنافسه القبلي يحتاج الى الشاعر ليدافع بلسانه عن العشيرة ، فيشيد بمناقبها ، وينشر مثالب اعدائها ، فتبوأ الشعر منزلة رفيعة ، وعاد حرم الشاعرية لا يقل عن حرم الفروسية كرامة وقداسة . وكان السليك فارساً شجاعاً وشاعراً مجيداً ، فغير عجيب ان يعتق نفسه ، ويغسل عنه صبغة العبودية ، وان لزمه لقب الغراب ، وابن الامة وابن السوداء . فهو من الابطال المقدمين في الجاهلية يتهيب الفرسان جانبه ، ويحذرون لقاءه . فعمرو بن معدي كرب ، على شجاعته ، كان لا يخشى ان يغلبه أحد على ظعينته اذا سار بها في ارض العدنانية الا اربعة من مضر منهم العبدان عنترة والسليك . ويصفه عمرو بقوله : « واما السليك فبعيد الغارة كالليث الضاري . » ويقدمه صاحب الأغاني لقرائه بروايته عن المفضل الضبي فيقول : « وكان السليك من اشد رجال العرب وانكرهم واشعرهم . »

وقد اشتهر السليك بغاراته البعيدة على حد ما وصفه ابو ثور ، لانه كان لا يغير على مضر لعصبيته فيهم وانما يغير على اليمن مبتعداً عن ديار المضرية لا يبالي ان يكون وحيداً في ارض نائية غريبة . فينيخ على القبائل القحطانية

غازيا ناهباً ، ثم يعود بغنيمته يقطع المسافات البعيدة كالليث الظافر بفريسته . واذا تعذر عليه غزو اليمن لسبب من الاسباب ، ولى وجهه شطر القبائل الربعية لان عدنانيته تنقسم الى ربيعة ومضر حين يبتعد عن قبائل قحطان . فعانت من شره بنو شيبان وبنو ضُبيعة في ديار ربيعة كما عانت من شره مُراد وخَثعم في ارض اليمن . ولقي من الفرسان المشهورين عمرو بن معدي كرب ، فاعترف له عمرو بالبسالة والاقدام . ولقي قيس بن مكشوح فارس بني مراد واحد الابطال المعدودين ، فقاده اسيراً بعد ان ضربه ضربة اشرفت على نفسه . وخبره مع قيس يستحق الذكر لما فيه من الفكاهة . قال ابو عبيدة : خرج سليك في الشهر الحرام حتى اتى عكاظ ، فلما اجتمع الناس ألقى ثيابه ، ثم خرج متفضلاً مترجلاً فجعل يطوف بين الناس ويقول : « من يصف لي منازل قومه وأصف له منازل قومي ؟ » فعرض له قيس بن مكشوح فقال : « انا اصف لك منازل قومي ، وصف لي منازل قومك . » فتواقفا وتعاهدا على ان لا يتكاذبا . فقال قيس : « خذ بين مهب الجنوب والصبا ثم سر حتى لا تدري اين ظل الشجرة . فاذا انقطعت المياه فسر اربعاً حتى تبدو لك رملة وقف بينها الطريق فانك ترد على قومي مراد وخثعم . » فقال السليك : « خذ بين مطلع سهيل ويد الجوزاء اليسرى فثم منازل قومي بني سعد . » فانطلق قيس الى قومه فاخبرهم الخبر ، فقال ابوه المكشوح : « ثكلتك امك ! هل تدري من لقيت ؟ » قال : « رأيت رجلا فضلا كأنما خرج من اهله . » فقال : « هو والله سليك بن سعد . »

ثم خرج السليك في بعض قومه يريد اليمن ومعه رجل يقال له صَرَد ، حتى اذا دنا من احياء مراد وخثعم ، مهتدياً اليها بتحديد قيس ، ضلت ناقة صرد في جوف الليل ، فانطلق يطلبها ، فلما اصبح شدّ عليه اناس من خثعم

فأسروه ، فعرفوا منه ان السليك قريب منهم ، مغير عليهم . فتلاحق الفرسان للقائه يتقدمهم قيس بن مكشوح ، فحمل عليهم السليك بمن معـه ، فاقتتلوا قتالا شديداً ثم كشفهم واسر فارسهم قيساً وغنم وسبى ، وانقـذ صرداً من الأسر . وعاد الى قومه يتغنى بشعره :

بكى صَرَدٌ لما رأى الحيّ أعرضت مهامهُ رمـلٍ دونهـم ، وسهوبُ
فقلت له : لا تبكِ عينك انهـا قضيةُ مـا يُقضى لهـا ، فتؤوب
سيكفيك فقدَ الحيّ لحمٌ مغرّضٌ وماء قدورٍ في الجفـانِ مشوبُ

على ان السليك في غاراته البعيدة ، ومواقعته للمخاطر ، لم يكن متهوراً كربيعة بن مكدم ، بل كان بالضد حسن التروي والاحتيـاط يتفحص مخارج الامور قبل مداخلها ، ولا يعدم حيلة يتقي بها ، لينقذ نفسه حين تزل رجله في المهالك . يخزن الماء في عرض البراري المقفرة مؤونة له في غاراته البعيدة ، متخذاً خزانات غريبة النوع لم تخطر لاحد قبله في بال . كان عندما يأتي الربيع بامطاره الغزيرة يعمد الى بيض النعام فيجمع منه عدداً كثيراً ثم يرضخه ويفرغ ما فيه ، ثم يملؤه ماء ويطبق شقيه بعضها عـلى بعض ، ويحمله معه وهو مغير على اليمن فيدفنه في المفاوز البعيدة العطشى . فاذا جـاء الصيف وانقطعت الغارات لقلة المـاء وشدة الحر ، بقيت غزوات السليك متواصلة لا تنقطع ، بفضل خزاناته المزروعة في الرمال .

وكان لخبرته بمسالك البادية لا ينسى المواضع التي دفنها فيها ، فيأتي البيضة حتى يقف عليها ويخرجها من مكانها . وكان يتحوط للامور في غاراته فما ينزل مراعي قوم ليطرد نعمهم الا بعد ان يتبين بُعد مضاربهم وقربهـا لئلا يلحقه الطلب . قال صاحب الاغاني : أنه املق مرة حتى لم يبق له شيء فخرج على رجليه رجاء ان يصيب غرّة من بعض من يمر به فيذهب بابله ، حتى امسى

في ليلة من ليالي الشتاء باردة مقمرة ، فاشتمل الصماء اي انه رد فضلة ثوبه على عضده اليمنى ثم نام عليها ، فبينا هو نائم اذ جثم رجل فقعد على جنبه فقال : « استأسر . » فرفع السليك اليه رأسه وقال : « الليل طويل وانت مقمر . » ينكر عليه العجلة ، فارسلها مثلا . فجعل الرجل يلهزه ويقول : « يا خبيث استأسر . » فلما آذاه بذلك اخرج السليك يده فضم الرجل اليه ضمة حبق منها ، ثم قال : « من انت ؟ » قال : « انا رجل افتقرت فقلت : لاخرجنّ فلا ارجع الى اهلي حتى استغني فآتيهم وانا غني . » قال : « انطلق معي . » فانطلقا فوجدا رجلا قصته مثل قصتهما ، فاصطحبوا جميعاً حتى أتوا الجوف جوف بني مراد ، فلما اشرفوا عليه اذا فيه نعم قد ملأ كل شيء من كثرته ، فهابوا ان يغيروا فيطردوا بعضها فيلحقهم الطلب . فقال لهما السليك : « كونا قريباً مني حتى آتي الرعاء فاعلم لكما علم الحي أقريب ام بعيد . فان كانوا قريباً رجعت اليكما ، وان كانوا بعيداً قلت لكما قولا اومىء اليكما به فأغيرا . » ثم انطلق حتى اتى الرعاء فلم يزل يتسقطهم حتى اخبروه بمكان الحي فاذا هم بعيد اذا طلبوهم لم يستطيعوا ادراكهم . فقال السليك للرعاء : « ألا اغنّيكم ؟ » فقالوا : « بلى غننا . » فرفع صوته وغنى :

يا صاحبيّ ألا لا حيّ بالوادي سوى عبيدٍ ، وآمٍ بين اذواد
أتنظران قريباً ريث غفلتهم أم تغدوان ، فان الربح للغادي

فلما سمعا ذلك اتيا السليكَ فأطردوا الابل فذهبوا بها ولم يبلغ الصريخ الحي حتى فاتوهم بالابل .

وكان لحذره وترويه يعطي عبد الملك بن مويلك الخثعمي اتاوة من غنائمه على ان يجيره حين يلجأ اليه في ورطة . فتسنى له بذلك ان يتجاوز بلاد مراد وخثعم الى من وراءهم من اهل اليمن ، فينقضّ عليهم ويغزوهم ويعود

غانماً آمناً .

ولا يستنكف السليك على شجاعته ان يطلب جوار النساء ليتخلص من تهلكة وقع فيها ولم يقو على دفعها . وجوار المرأة محترم عند العرب مع ضعفها وضعة شأنها ، ينافح عنه ابوها واخوتها وزوجها كما ينافح كل منهم عن جواره . قال ابو عبيدة : اغار السليك على بني عوارا بطن من بني مالك ابن ضبيعة ، فلم يظفر منهم بفائدة . وارادوا مساورته ، فقال شيخ منهم : « انه اذا عدا لم يتعلق به شيء ، فدعوه حتى يرد الماء ، فاذا شرب وثقل لم يستطع العدو وظفرتم به . » فأمهلوه حتى ورد الماء وشرب ثم بادروه . فلما علم انه مأخوذ جاملهم ، وقصد لادنى بيوتهم حتى ولج على امرأة منهم يقال لها فكيهة ، فاستجار بها ، فمنعته وجعلته تحت درعها ، واخترطت السيف وقامت دونه ، فكاثروها فكشفت خمارها عن شعرها ، وصاحت باخوتها فجاؤوها ودفعوا عنه حتى نجا من القتل . فقال السليك في ذلك :

لعمرُ ابيك ، والانباءُ تنمى لنعم الجارُ أختُ بني عوارا
من الخفرات لم تفضح اباها ولم ترفع لاخوتها شنارا
وما عجزت فكيهة يوم قامت بنصل السيف ، واستلبوا الخمارا

ولم يخطىء الشيخ حين أشار على قومه بان لا يطلبوا سليكاً الا بعد ان يشرب ويثقل ، فقد كان هذا الصعلوك الرجيم لا تعلق به الخيل اذا عدا على رجليه ، وبه يضرب المثل كما يضرب بالشنفرى ، ولا يعد في طبقتهما الا تأبط شراً وعمرو بن برّاق . ولئن تمكن السليك غير مرة من انقاذ نفسه بحسن حيلته وحذره وترويه ، لقد تمكن من انقاذها في احوال شتى بفضل عدوه وخفة قدميه . فكثيراً ما كان يطارده الفرسان بخيولهم ليثأروا منه اثر غزوة غزاها ، فيترجل عن فرسه ، وينطلق ساقيه للريح فيسبقهم اشواطاً ، وتقصر

عنه الجياد . قال ابو عبيدة : بلغني ان السليك بن السلكة رأته طلائع جيش لبكر بن وائل ، وكانوا جازوا منحدرين ليغيروا على بني تميم ، قبيلة السليك ، ولا يعلم بهم احد . فقالوا : « ان علم السليك بنا انذر قومه . » فبعثوا اليه فارسين على جوادين . فلما هايجاه خرج يطفر كأنه ظبي . وطارداه سحابة يومه . ثم قالا : « اذا كان الليل أعيا ثم سقط او قصّر عن العدو فنأخذه . » فلما اصبحا وجدا اثره قد عثر باصل شجرة ، ثم اقلع عنها ، وطارت قوسه فانحطمت ، وغرزت قطعة منها في الارض . فقالا : « ما له خزاه الله ما اشده ! » وهمّا بالرجوع . ثم قالا : « لعل هذا كان من اول الليل ثم فتر . » فتبعاه ، فاذا اثره في الارض قد بال متفاجّاً ، وجدّ في السير . فانصرفا يائسين من ادراكه . وتم الى قومه فانذرهم فكذبوه لبعد المسافة التي زعم انه قطعها عدواً فانشأ يقول :

يكذبني العَمران عمرو بن جُندب وعمرو بن سعد ، والمكذّب اكذبُ
ثكلتكما ان لم اكن قد رأيتها كراديس يُهديها الى الحي موكب
كراديس فيها الحوفزانُ وقومه فوارسُ همامٍ متى يَدعُ يركبوا

ولبثوا لا يصدقونه حتى جاء الجيش فأغار على جمعهم .

وأوتي السليك من قوة البنية ما أتاح له ان يستبقي نشاطه في شيخوخته ، فلم تفتر همته ، ولا ثقلت رجله . قيل انه قدم على بني كنانة وهو شيخ كبير ، فجمعوا له ابلا عظيمة فدفعوها اليه ، ثم قالوا له : « ان رأيت ان ترينا ما بقي من احضارك . » قال : « نعم ، وابغوني اربعين شابا ، ودرعاً ثقيلة . » فأتوه بذلك . فلبس الدرع ، وقال للشبان : « الحقوا بي ان شئتم . » وعدا متراخياً ، وعدوا جنبه فلم يلحقوه الا قليلا . ثم اشتد في انطلاقه فغاب عنهم ، ثم كر حتى عاد الى الحي وحده ، والدرع في عنقه

تضرب كأنها خرقة من شدة احضاره .

وكان السليك من اولئك الفتاكين الذين لا يرعون حرمة ، ولا يستفظعون جريمة ، يستحل الغدر والاغتيال لارضاء شهوة او اشباع مطمع . فقد علمنا ان عبد الملك الخثعمي كان يجيره اذا غزا ارض اليمن على ان يتجاوز في غارته بني خثعم . فاتفق ذات يوم ان مر قافلاً من غزوة فاذا بيت من خثعم اهله متخلفون ، وفيه امرأة شابة ، فسألها عن الحي فأخبرته انهم ترحلوا منذ حين . فأثارت الخلوة شهوته ، ونسي انه جار للقوم ، فاقتحم الفتاة واغتصبها ، ثم سار في الطريق الواضح . فبادرت المرأة واخبرت عشيرتها فركض في أثره أنس بن مُدرك فارس خثعم ومعه جماعة من الحي حتى فاجؤوه وهو غافل لا يحسب للامر حساباً فانتقموا منه وقتلوه . ولم ينفعه عند دنو الاجل حذره وترويه وشدة احضاره .

وخرج مرة ومعه رجلان من بني تميم فمر على حي بني شيبان في عشية رافقها ضباب ومطر والناس في ربيع مخصبون . فاذا هو ببيت قد انفرد من البيوت ، فقال لصاحبيه : « كونا بمكان كذا حتى آتي هذا البيت فعلّي ان اصيب لكما خيراً . » قالا : « افعل . » فانطلق وقد امسى وجن عليه الليل ، حتى جاء البيت من مؤخره فرأى شيخاً وامرأته بفنائه ، فدخله وكمن فيه . ثم لم يلبث ان رأى ابن الشيخ عائداً بابله من المرعى ، وسمع أباه يؤنبه غاضباً ويقول : « هلا عشيتها ساعة من الليل . » فقال له ابنه : « انها ابت العشاء . » فقال الشيخ : « العاشية تهيج الآبية . » اي ان التي تقبل العشاء منها تهيج شهوة التي تأباه . فأرسلها مثلاً . ثم نفض الشيخ ثوبه في وجهها ، فرجعت الى مراتعها ، والشيخ معها ، فمالت بادنى روضة فرتعت فيها وجلس الشيخ عندها لتتعشى وغطى وجهه بثوبه من البرد .

فانساب السليك من مكمنه كالارقم حتى اتى الروضة ، فانقض على الشيخ غيلة وغدراً ، فاستله من ردائه وضربه بالسيف فأطار رأسه ، ثم صاح بالابل فأطردها وسار بها الى صاحبيه .

ولعل السليك لم ير احداً من الناس الا اخوانه الصعاليك . فقد رأيناه يشفق على الرجل الذي دهمه ليلاً ليأسره ، عندما علم انه فقير خرج في طلب الرزق ، فجعله في صحبته وشاطره غنيمة غزوه . وكثيراً ما يقوم بالغارة وحده ويبقى اصحابه كامنين منتظرين ، لا يأتون عملاً حتى يعود اليهم يطرد الابل ، فيعطيهم حصصهم كاملة ، دون ان يبذلوا في سبيلها جهداً او يلاقوا عناء ، كغارته على ابل الشيخ في حي بني شيبان . ورافقه مرة جماعة من قومه فسار بهم في طريق مجهولة قليلة الماء ، فأمضهم العطش ، والسليك يبحث عن خزاناته فلا يجدها ، ولم يهتد اليها الا بعد ان انصرف عنه اكثر اصحابه خوفاً من ان يهلكوا عطشاً اذا اوغلوا في القفر . فمضى السليك بمن بقي معه فأغار على مراد وخثعم ، فأصاب نعماً كثيراً ، ثم عاد الى رفاقه الذين تخلفوا عنه ، فقسم الغنائم بينهم على سهام الذين شهدوا الغارة معه ، ولم يحرم واحداً منهم لانه اعتبرهم صحباً له من اول الطريق .

والسليك في بره باخوانه الصعاليك ، وعطفه عليهم ، كان كعروة بن الورد يفرق بين صعلوك وصعلوك ، يحمد الصعلوك المقدام ، ويذمّ الصعلوك الخامل ، بل كان كسائر الفرسان المقترين يعاني الفقر ولا يخجل من ذكر فاقته وجوعه وشحوبه ونحول جسمه . ولكنه يفاخر بمضاء عزمه في مغالبة الرزق ، ومقاومة الخطوب :

وما نلتها حتى تصعلكتُ حقبةً ... وكدتُ لاسباب المنية أعرف
وحتى رأيت الجوع بالصيف ضرّني ... اذا قمت تغشاني ظلال فأسدِف

يقطع القفار وحيداً ، يصبح في مفازة ويمسي في غيرها ، لا يدري اين تستقر به النوى على حد ما وصف تأبط شراً نفسه :

قليل التشكّي للمهم يُصيبه كثير الهوى ، شتى النوى والمسالك
يظلّ بموماةٍ ، ويمسي بغيرها جحيشاً ، ويعروري ظهور المسالك

او كما قال عروة :

وسائلةٍ اين الرحيل وسائلٍ ومن يسأل الصعلوك اين مذاهبه ؟

ويتفق معهما حاتم الطائي بقوله :

ولله صعلوك يساور همه ويمضي على الاحداث والدهر مُقدما
فتى طلباتٍ لا يرى الخمص ترحةً ولا شبعة ان نالها عدّ مغنما

فالسليك مثال للصعلوك المقدام الذي يحمده ويحبه ، لا لذاك الصعلوك الكسول الذي ينام الضحى متكلاً على غيره في معيشته ، يقنعه ان يقتات من فضلات الحي « آلفاً كل مجزر » كما نعته عروة ، او كما قال فيه حاتم :

لحى الله صعلوكاً مُناه وهمه من العيش ان يلقى لبوساً ومطعما
ينامُ الضحى حتى اذا ليله استوى تنبّه مثلوج الفؤاد مورّما
مقيماً مع المثرين ليس ببارحٍ اذا نال جدوى من طعامٍ ومجثما

وقد اخترنا لصفحة الشعر قطعتين من كلام السليك يفاضل في احداهما بين صعلوكين : الصعلوك الكسول والصعلوك النشيط ، فلا يختلف بتصويره لهما عن عروة بن الورد وحاتم الطائي . والثانية يتحدث فيها عن غنيمة الصعلوك ذاكراً غارته على ابل الشيخ ، وكيف نالها بعد ان تصعلك حقبة حتى امضه الفقر ، فصار اذا قام لحاجته اظلمت عيناه ، وتغشتها ظلال لما به من الجوع :

وحتى رأيتُ الجوعَ بالصيف ضرّني اذا قمتُ تغشاني ظلالٌ فأسدِفُ

وشعرُ السليك في جملته يجري على هذا النحو من وصف فقره وتشرده

وغاراته ، تطبعه الفطرة بخشونتها وجمالها الوحشي ، وبما فيها من صراحة وحرية واعتداد بالنفس ، الا انه لم يبلغ الينا منه سوى الشيء القليل .

السليك بن السلكة

بين صعلوكين

فـلا يغْررْك صعْـلوكٌ نؤومٌ ، اذا امسَى يُعَـدُّ من ٱلعِيَال
اذا أَضْحَى تفقَّـد مَنْكِبَيْهِ وأبصَرَ لحمَـهُ حـذَرَ ٱلْهزال
ولٰـكِن كُل صُعْلوكٌ ضروبٍ بنَصْل ٱلسَّيْفِ هامات ٱلرجال

غنيمة الصعلوك

وعاشيَةٍ راحت بطَاناً ذعرتُهَـا بسَوطِ قتِيلٍ وسطَهَـا يتَسَيَّفُ [1]
كَأَن علَيْـهِ لون بُردٍ محـبَّرٍ اذا ما اتاهُ صـارمٌ يتَلَهَّفُ [2]
فبَات لهم أَهل خـلاءٌ فِنَاؤهم ومرَّت بِهم طَـيْرٌ فلَم يتَعَيَّفُوا [3]
وباتوا يظُنُّون ٱلظُّنُون وصحْبَتي اذا ما علوا نشْزاً أَهلُّوا واوجفُوا [4]
وما نلْتُهَا حتَّى تَصعْلَكْتُ حُقْبَةً وكِدْتُ لاسبَابِ ٱلْمَنيَّـة اعرف
وحتَّى رأَيتُ ٱلجوعَ بالصَّيْفِ ضرَّني اذا قمْتُ تغْشَاني ظلَالٌ فأُسدفُ [5]

١ العاشية : الابل المتعشية . راحت : رجعت في المساء . بطاناً : عظيمة البطون من الاكل . يتسيف : يضرب كالسيف .
٢ عليه : راجعة للقتيل . محبر : موشى ، ويريد به لون الدماء . يتلهف : يتحسر على نفسه .
٣ الفناء : ساحة الدار . لم يتعيفوا : لم يتخذوا العيافة اي زجر الطائر ليتسعدوا او يتشاءموا .
٤ نشزا : مرتفعاً من الارض . أهلوا : رفعوا صوتهم غبطة وحمدا . اوجفوا : اسرعوا .
٥ اسدف : اظلمت عيناي من الجوع .

آداب الفروسية

لا نرانا نطمع في غير مطمع فنحاول ان نجعل من آداب الفروسية الجاهلية نظماً دينية او اجتماعية مخطوطة المعالم، مرسومة الاصول والفروع، تواضعت على احترامها فئات متآلفة اصطفيت من اهل النبل والشرف للذود عن حرمة الدين والارض وما اليهما من الحرمات. فعلينا من اجل ذلك ان ننتظر القرن التاسع وما بعده من القرون الوسطى لنشاهد الفروسية المسيحية في اوربة، والفروسية الاسلامية في الاندلس تتواصى بها جماعات منظمة وضعت لها الشروط والمراسيم.

فالفروسية العربية في جاهليتها لم تكن مؤسسة دينية ولا اجتماعية وانما كانت فضيلة خلقية تنتمي الى الافراد لا الى الجماعات. تعتز بالعبيد والصعاليك، كما تعتز بالاشراف وذوي اليسار، وليس لها من الشرائع الا ما قضى به العرف والتقليد. وحقيق بالجاهلي على فرديته ألا ينشىء للفروسية نظاماً اجتماعياً. وعلى انانيته واعتداده بنفسه ان يحررها من رق الطبقات. وعلى فطريته ان يعدل بها عن القوانين المقررة الى ما جرت به العادة، وتعارفت عليه الاخلاق. فكان للفروسية آداب متوارثة يرعاها البدوي بطبيعته لا يحتاج الى رسوم موضوعة، ولا يرتبط بجماعة منظمة الا ما كان من عصبيته القبلية ومنفعتها المشتركة بينه وبين ابناء عمه.

والفروسية العربية في آدابها المأثورة تعكس صوراً متناقضة، محمودة مذمومة،

لانها كالفروسية المنظمة في القرون المتوسطة تشتمل على العيوب والفضائل .

ويدلنا ظاهر الاشتقاق اللغوي ان اولى خلال الفروسية ان يكون الفارس بارعاً في ركوب الخيل ، حاذقاً امورها واحوالها . ولدينا من اشعار الفرسان واخبارهم ما يطلعنا على مدى معرفتهم بصفات الجياد الكريمة ، ومهارتهم في اعتلائها ، وادارة اعنتها ، والتقلب على ظهورها . حتى ان الصعاليك العدّائين كانوا يحاربون راكبين . وبلغت العناية بالخيول انهم جعلوا مرابطها قرب العيال تكريماً لها وحرصاً عليها . وسموها المقربات . واطلقوا عليها احسن الاسماء والنعوت . وربما فضل الواحد منهم فرسه على زوجته وآثره بالعناية كعنترة ، او اضاف الخيل الى اسمه لاكثاره منها كزيد الخيل . ويحمد من الفارس ان ينزو على جواده نزواً دون ان يضع رجله في الركاب ويعتمد على يديه . قيل ان عمر بن الخطاب كان يأخذ بيده اليمني اذنه اليمنى ، وبيده اليسرى اذن فرسه اليسرى ، ثم يجمع نفسه ويثب فكأنما خلق على ظهر فرسه . واشتهر ربيعة ابن المكدم بخفة صعوده ونزوله وضروب انقلابه والتوائه .

وشرط الفروسية لا يقتصر على شؤون الخيل وحدها بل يتطلب معها الشجاعة والصبر وحسن البلاء . وقد بيّن عمر بن الخطاب بعض آداب الفروسية حين اوصى رجاله بقوله : « ائتزروا وارتدوا ، وانتعلوا وألقوا الخفاف . وارموا الاغراض . والقوا الرُكُب . وانزوا نزواً على الخيل . ودعوا التنعم وزي العجم . ولا تلبسوا الحرير فان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عنه . »

فمن هنا نعلم ان الفروسية عندهم تقتضي استعداداً خاصاً للحرب في لبس الثياب والنعال ، والتخفف من الاثقال ، وايثار الخشونة على النعومة .

واوصى علي بن ابي طالب اصحابه يوم صفين فقال : « عضّوا على النواجذ من الاضراس ، فانه انبى للسيوف عن الهام . »

وعض النواجذ كناية عن الصبر في القتال . ويريد بذلك ان الصبر انجى للمحارب من الفشل . ومثله قول عمرو بن معدي كرب يصف الحرب لعمر ابن الخطاب : « مرّة المذاق اذا كشفت عن ساق . من صبر فيها عُرف ومن نكل عنها تلف . » ومن امثال العرب : « الشجاع مُوقّى ، والجبان مُلقّى . »

ويستقبح من الفرسان اذا خاضوا معركة ان ينازع بعضهم بعضاً ويكثروا الصياح والجلبة . روي ان عائشة سمعت منازعة اصحابها وكثرة صياحهم يوم الجمل فقالت : « المنازعة في الحرب خوَر ، والصياح فيها فشل . »

غير انهم لم ينكروا على الفارس ان يفزع من الحرب ، فتسامحوا بفزع القلب لا فزع الرأس والرجلين . قال عمرو بن معدي كرب : « الفزعات ثلاث ، فمن كانت فزعته في رجليه ، فذلك الذي لا تقُلّه رجلاه . ومن كانت فزعته في رأسه ، فذلك الذي يفرّ عن ابويه . ومن كانت فزعته في قلبه ، فذلك الذي يقاتل . »

واجازوا الفرار من الموت حين لا ينفع الثبات ، ولكنهم يكرهون الفرار عن الاهل والاموال . وكان عمرو بن معدي كرب احد الابطال المعدودين ، واسرع الناس الى الهرب اذا لم يُحمد الصبر . لان النجاة في مثل هذه الحال تعد من صدق البصر وحسن التدبير ، وهما خلتان ينبغي للفارس ان يتصف بهما ليستحق قيادة الجيش وادارة رحى القتال . وكانت بنو عبس تحمل اذا حمل عنترة ، وتحجم اذا أحجم . وسئل عنترة يوماً : « أأنت اشجع العرب واشدّها ؟ » قال : « لا . » قيل : « فبماذا شاع لك هذا في الناس ؟ » قال : « كنت اقدم اذا رأيت الاقدام عزماً . وأحجم اذا رأيت الاحجام حزماً . ولا ادخل موضعاً الا ارى لي منه مخرجاً . وكنت اعتمد الضعيف الجبان ، فأضربه الضربة الهائلة يطير لها قلب الشجاع ، فأثني عليه فاقتله . »

وعلى الفارس ان يكون خبيراً في انواع السلاح يحسن استعمالها جميعاً حتى القوس التي تأتي في الدرجة بعد السيف والرمح ، يجعلها عمر بن الخطاب ضرورية للفرسان ، ضرورة خفة الركوب ، فيقول : « ان تخور قوىً ما كان صاحبها ينزع وينزو » اي ينزع في القوس ، يمدها ويجذب وترها . وينزو على الخيل من غير استعانة بالرُكُب .

وقد فصّل عمرو بن معدي كرب انواع السلاح ، وحدود فوائدها للفارس ، عندما سأله عنها عمر بن الخطاب فقال له : « ما تقول في الترس ؟ » قال : « المجن الدائر ، وعليه تدور الدوائر . » قال : « فما تقول في الرمح ؟ » قال : « اخوك ، وربما خانك فانقصف . » قال : « فالنبل ؟ » قال : « منايا تخطيء وتصيب . » قال : « فما تقول في الدرع ؟ » قال : « مُثقلة للراجل ، مُتعبة للفارس ، وانها لحصن حصين . » قال : « فما تقول في السيف ؟ » قال : « هناك ، لا أمّ لك ، يا امير المؤمنين . » فضربه عمر بالدرّة وقال : « بل لا أم لك . » فقال عمرو : « الحمّى اضرعتني لك . » اراد ان الاسلام اخضعه فجعله يسكت على هذه الاهانة وما تعود السكوت على مثلها في جاهليته . وهو مثل تضربه العرب اذا اضطرت للخضوع .

ومن محاسن الفروسية ان تقترن بالنجدة فيقال فارس نجيد وهو الذي يسرع على سماع الصوت الى اغاثة المستجير الخائف الملهوف ، وهذا يذكرنا بفروسية القرون الوسطى . قال طَرفة :

اذا القوم قالوا : من فتى ؟ خِلت انني عُنيتُ ، فلم اكسلْ ولم أتبلّدِ

وقال ايضاً :

وكرّي ، اذا نادى المضافُ ، محنّباً كسيدِ الغضا ، نبّهتَهُ ، المتورّدِ

وكثيراً ما رأينا الفرسان في ابحاثنا المتقدمة يلقون بانفسهم في المهالك ،

ويشعلون نيران الحرب لانقاذ الجار وحمايته ودفع المذلة عنه . واذا افتخروا قالوا : جارنا عزيز وجار غيرنا ذليلُ .

ويجمل بالفارس ان يكون بعيد الغارات يسلك القفار الموحشة ، ويقطع المفاوز المجهولة ، ويغزو الاحياء المتنائية ، ويعود غانماً كاسباً لا يخشى لحاقاً ولا ضياعاً . وكان عمرو بن معدي كرب يقول عن سليك بن السلكة : هو بعيد الغارة كالليث الضاري . ويعتز الفارس النجيد ان يسير بظعينته في الصحراء متحدياً كل من يريد ان يغلبه عليها ، واثقاً من نفسه بحمايتها ، كما سار بها ربيعة ابن المكدم واردى الفارس بعد الفارس دفاعاً عنها . حتى انه حمى ظعينته حياً وميتاً .

والمرأه لها صلة وثيقة بالفروسية العربية ، وان لم تبلغ من الحرمة والتقديس ما بلغته لدى الفروسية الاوربية . فان فرسان الجاهلية تعودوا ان يستهلوا قصائدهم بالنسيب جرياً على الاسلوب المتبع عندهم ، فلا يتميزون عن غيرهم من بقية الشعراء الا اذا شرع الفارس يتغنى بذكر حبيبته في اثناء حديثه عن غزواته وحروبه . فيعرض عليها صوراً من مبارزاته ومعاركه شأن عنترة العبسي . ويرينا نفسه مستأسداً لا يهاب الموت اذا احدق الخطر بحبيبته . وقد شهدنا عمرو بن معدي كرب يستميت في الدفاع حين رأى لميس خائفة تهم بالفرار . فالحبيبة تشجع الفارس العربي ، وتحمله على الصبر والثبات ، وازدراء الحمام . وهي الى ذلك توحي له اجمل الغزل الحماسي ، يجتمع فيه الحب والفخر ، وتنبعث منه شواعر العاشق المفتون مؤتلفة بفضائل الفارس النجيد . وحبهم متعفف على الغالب لا ينحدر بصاحبه الى ذكر الفواحش كما انحدر بامرىء القيس ، ولا يرفع المرأة الى اقداس الروحانية كما رفعتها الفروسية المسيحية في الغرب ، وانما هو حب سيطرت عليه المادة وان عفّت الفاظه ومعانيه .

والعفة من الاداب التي تحمدها الفروسية العربية ، ولا تقصرها على الحبيبة وحدها بل تقضي على الفارس ان يحسن سلوكه بين نساء القبيلة ولا سيا جاراته . وكان عنترة يغض طرفه ما بدت جارته . وحاتم الطائي يتعهدها بالعطايا في غياب زوجها ولا يدخل خباءها . الا انه لا ينكر على الفارس ان يستمتع بسبية تقع في يده ، او بامرأة غريبة يسوقها الحظ اليه . وقد بحثنا في العفة وانواعها في كلامنا على حاتم الطائي ، وبيّنا حدودها عندهم بما فيه كفاية وغنى عن العودة الى تفصيلها هنا . وتحدثنا في غير موضع عن مجمل الفضائل الجاهلية كالسخاء والحلم والوفاء والفصاحة . وهي كلها من آداب الفروسية ، يدعيها السادات والاشراف ، ولا يتنازل عنها العبيد والصعاليك . فليس قيس بن عاصم اكثر اعتزازاً بحلمه من عنترة . ولا حاتم الطائي حاجباً بجوده جود عروة بن الورد .

بيد ان الفروسية الجاهلية لا تخلو من العيوب والنقائص شأنها شأن الفروسية الغربية فيا بعد . فقد رأينا الفرسان يشيدون بذكر المرأة ، ويستوحون منها الحب والحماسة ، ولكنهم لا يرفعون لها قدراً ، ولا يحترمون جنسها ، فظلت مضعوفة الجانب مهيضة الجناح يساء بها الظن ، وترمى بالغدر والخيانة . وربما دفنوها حية تشاؤماً بها او تخلصاً من عارها . ورأينا ان العفة عندهم لا تتجاوز الجارة وابنة العم . وقد تكون الاولى اقدس حرمة من الثانية . وهم على تمدحهم بالحلم لا يبتعدون به عن ابناء العشيرة ، ولا سيا ذوي القلة منهم . فحاتم الطائي يفاخر بحلمه على ابن عمه ما دام اخوته بعيداً عنه . وكثير منهم يقترف افظع الجرائم ظلماً وعدواناً ، وينافس بها كأنها ليست في نظره معرة واثماً . فالحارث بن ظالم يقتل طفل النعمان ولا يبالي ، وقيس بن عاصم يشتهر بحلمه ويئد بناته البريئات . وقد مدحوا الظالم كما مدحوا الحليم لان ظلم الاباعد فضيلة ومكرمة ، ما دام شعارهم القبلي انصر اخاك ظالماً او مظلوماً . قال زهير

في صفة حصين بن ضمضم :

جريء متى يُظلمْ يعاقبْ بظلمه سريعاً والا يُبدَ بالظلم يظلمِ

وجعلوا الوفاء والامانة من محاسن فروسيتهم ، الا انهم لم يستقبحوا الغدر والخيانة ، واللجوء الى الخدع والحيل الدنيئة للاخذ بالثأر ، كما فعل الحارث بن ظالم بخالد بن جعفر ، وقيس بن الخطيم بقاتلي جده وابيه .

ولم تتنزه فروسيتهم اجمالاً عن الكبرياء والعنجهية وغلاظة الطبع . ولا سلم سخاؤها من الطمع في الاسلاب ، والتكالب على اقتسام الغنائم . وقد يشوهها الفرار في كثير من الاحيان . ومع ذلك فهي ملائمة لطبيعة البادية في عصر لم يزل شعبه على فطرته الاولى يسن لنفسه ناموسه الطبيعي ، ويجري في آدابه على غرار حياته وعقليته ، يحمد من الصفات ما لا نراه محموداً ، ويبرر من الاعمال ما لا نجده مقبولا . وهو في هذا وذاك يصدر عن طبع غريزي ، وارادة حرة ليس لها من قيود غير العرف والعادة والتقليد . فكانت الفروسية مصورة ادق تصوير حياة الجاهلية بفضائلها وعيوبها . ولنا فيما مر بنا من المواقع واخبار الفرسان مشاهد بارزة الخطوط ، غنية التعبير .

ويرى القارىء اننا اغفلنا طائفة من ايام العرب المشهورة ، كما اغفلنا طائفة من الفرسان والشعراء المعدودين ، وما ذلك الا لان الغاية التي توخيناها في هذا الكتاب هي ان نجتزىء بذكر الشعراء الذين غلبت الفروسية عليهم ، فاضطررنا الى اهمال امثال امرىء القيس وطرفة ولبيد وان كان في اشعارهم من الحماسة ما يدل على البطولة . وكذلك اغفلنا الفرسان الذين لم تخلص الينا اشعارهم كبسطام بن قيس الشيباني وهاني بن مسعود ، والفرسان الذين ضاعت اخبارهم واشعارهم الا القليل الذي لا يغني كأبي براء ملاعب الاسنة ، وعتيبة بن الحارث ابن شهاب .

وليس من غرضنا ان ندون حروب العرب في مجموعها وانما اردنا ان نعطي صورة شاملة عن طرقها واسبابها ولا سيما الايام التي لها صلة باخبار الشعراء الفرسان لما يتخللها من شعر الفروسية وآدابها . ولعل في ما اوردناه كفاية للمطالع والمستفيد .

المراجع

الكتب العربية

ابو الفرج الاصفهاني : الاغاني

ابن عبد ربه : العقد الفريد

ابن قتيبة : عيون الاخبار

ابن قتيبة : الشعر والشعراء

الضّبي : المفضّليات

ابو تمام : ديوان الحماسة

الالوسي : بلوغ الارب

الاب لويس شيخو : شعراء النصرانية

ابو عبيد البكري : اللآلي في شرح امالي القالي

ابن هشام : سيرة النبي

المبرّد : الكامل

ياقوت : معجم البلدان

البستاني : دائرة المعارف

الطبري : تاريخ الامم والملوك

المسعودي : مروج الذهب

الجاحظ : البيان والتبيين

الجاحظ : الحيوان

عبد الرحيم العباسي : معاهد التنصيص

السيوطي : المزهر

ابن خلدون : المقدمة

ابن رشيق : العمدة

ابو زيد القرشي : جمهرة اشعار العرب

البحتري : الحماسة

التبريزي : شرح القصائد العشر

الزوزني : شرح المعلقات السبع

اسامة بن منقذ : لباب الادب

بطرس البستاني : ادباء العرب في الجاهلية وصدر الاسلام

الكتب الفرنسية

HENRI LAMMENS : **LE BERCEAU DE L'ISLAM**

CL. HUART : **HISTOIRE DES ARABES**

فهرس

صفحة

صفحة

انتهى طبع هذا الكتاب على
مطابع الاتحاد
في ٣٠ كانون الاول ١٩٤٤

من

منشورات دار المكشوف

معارك العرب	بطرس البستاني
تاريخ جرح	فؤاد الشائب
في قصور الخلفاء	صلاح الدين المنجد
الوعي القومي	قسطنطين زريق
اساطير شرقية	كرم البستاني
الاعدام	خليل تقي الدين
لبنان في العالم	جورج معنق
خواطر ساذج	خليل تقي الدين
الالحان	الياس ابو شبكه
نداء المجهول	محمود تيمور
في قصور الملوك	قدري قلعجي
اساطير الامم	قدري قلعجي
حورية البحر	محمود تيمور
اديب في السوق	عمر فاخوري
مواعيد	صلاح لبكي
الفكر العربي الحديث	رئيف خوري

تحت الطبع

الحقيقة اللبنانية	عمر فاخوري
الى الابد	الياس ابو شبكه
النغم التائه	صلاح لبكي

